التَّطَوُّف
في أُصُولِ التَّصَوُّف

تأليف الشيخ العلامة

محمد بن أحمد الجنيد النور

تقديم

الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

تعريف

الحبيب أبي بكر العدني ابن علي المشهور

حققه وعلق عليه

عيسى بن أمين بن محمد القاسمي

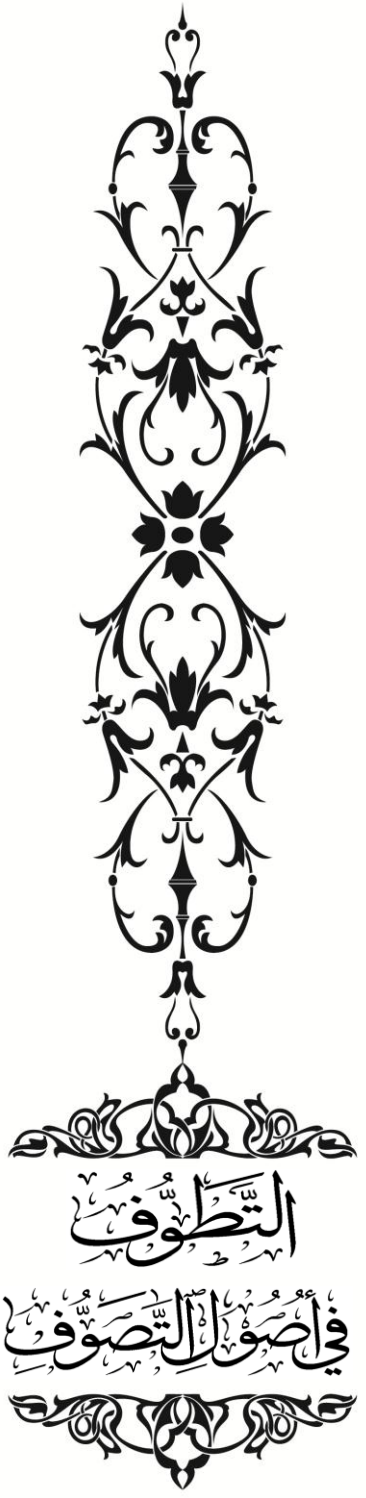
التطوف
في أصول التصوف

الموضُوع : تصوف .
العنْوان : التطوف في أصول التصوف .
المؤلف: الشيخ محمد بن أحمد الجنيد.
المحقق: عيسى بن أمين محمد القاسمي.
رقم الطبْعة : الثالثة .
سنة الإصدار : ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م .
قياس القطع : ١٧ × ٢٤ .
عدد الصفحات : (٢٤٦) .
التنضيد الطباعي والتنسيق : دار الصلاح للنشر والتوزيع (اليمن - حضرموت) .

دار الصلاح للنشر والتوزيع
DAR AL-SALAH
PUBLICATION & DISTRIBUTION
اليمن - حضرموت
www.daralsalah.com
daralsalah2018@gmail.com
00967 - 733822833

الطبعة الثالثة
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

دار الصلاح

حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو نشر جزء منه بأي شكل لن الأشكال أو حفظه ووسخه في أي نظام ميكانيكي أو إكتروووي مكين من الألألأجاعه أو ترجمته إلى لغة أخرى دون إذن خمـ يطسبق.

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by means without prior permission in writing to the publisher.

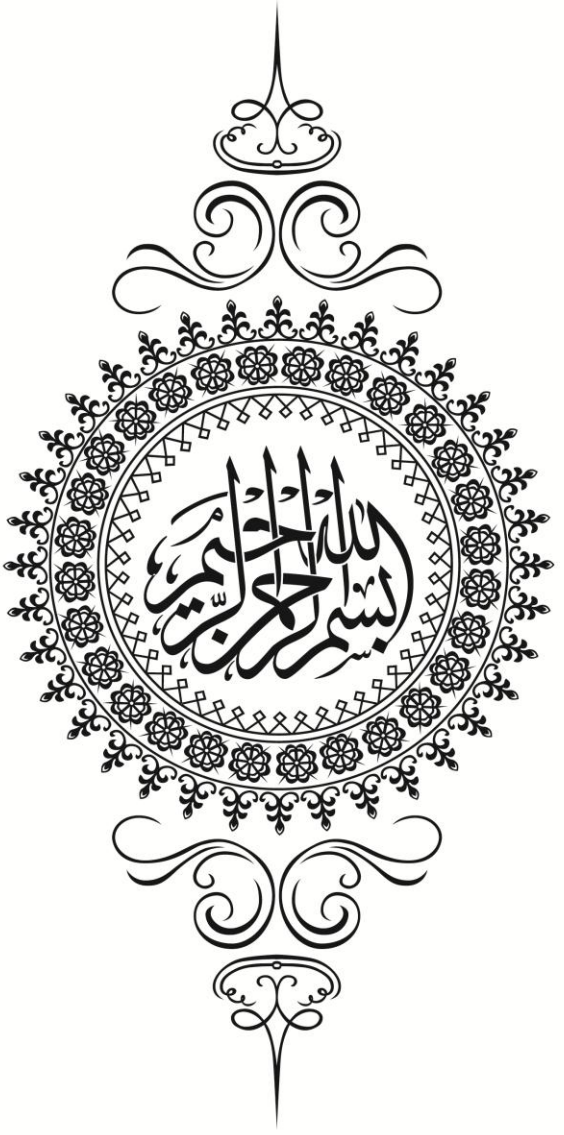
بسم الله الرحمن الرحيم

أبيَاتٌ قِيلَتْ فِي كِتَابِ التَّطَوُّف

[مجزوء الكامل]

اقْـــرَأْ فَـــدَيتُكَ يَـــا صَـــدِيقْ ... اِجْعَـــلْ كِتَـــابِي لَـــكْ رَفِيـــقْ
فَـــتَرَاهُ فِيـــــه فَـــــوَائِدٌ ... و تَـــرَى بِـــــه عِلْـــمٌ عَرِيـــقْ
لَا تُهْمِلَنْـــــــهُ فَإِنَّـــــــه ... أَوفَى مِـــــنَ الأَخِ الشَّـــــقِيقْ
لِمَ لَا وفِيـــــــهِ مَعَـــــارِفٌ ... وَ نَفَـــائِسُ الـــدُّرِّ العَتِيـــقْ
فَـــتَرَى تَـــرَى حِلْيَتَـــهُ ... تِـــبْرٌ نَضَـــارٌ مَـــعْ عَقِيـــقْ
وَ الحـــقُّ حَـــقٌّ إِنَّـــهُ ... يَهـــدِي إِلَى أَقْـــوَمْ طَرِيـــقْ

[من الوافر]

إِذَا مَـــا رُمْـــتَ تَعْرِفُـــهُ التَّصَـــوُّفْ ... أَدِرْ عَينَيـــكَ فِي سُـــطُرِ التَّطَـــوُّفْ
تَـــرَى فِيـــهِ البَيَـــانَ بِـــلَا مِـــرَاءٍ ... تَـــرَى فِيـــهِ الهِدَايَـــةَ والتَّعَـــرُّفْ

المُؤَلف

[من الطويل]

أَبِي قَـدْ ثَقَبْـتَ الـدُّرَّ ثَقْبَـاً مُرَتَّبَـا ... وَأَحْكَمْـتَ فِي تَـأْلِيفِ عِقْـدٍ مُرَكَّبَـا
وَأَسْـمَيْتَه بِاسْـمِ التَّطَـوُّفِ صَـادِقَاً ... لَعَمْـرِي بِـهِ قَـدْ طَـافَ عِلْـماً وَمَـذْهَبَا
لَقَـدْ طَـافَ فِي الأَكْبَـادِ لِلـدَّا فَلَـمْ يَجِـدْ ... طَبِيبَـاً يُـدَاوِي مَـا بِهِـمْ فَتَطَبَّبَـا
عَرَفْنَـا وَلَمْ نَعْـرِفْ وَكُنَّـا وَلَمْ نَكُـنْ ... كَمِثْـلِ أَبِينَـا فِي المَنَاصِـبِ مَنْصِـبَا
فَـوَا غَفْلَتِـي عَنْـهُ فِي مَيْعَـةِ الصِّـبَا ... وَوَجْـدٍ بِـهِ بَعْـدَ المَشِـيْبِ مُعَتِّبَـا
أَطَعْتُ هَـوَى نَفْسِـيَ فِي زَمَـنٍ مَضَـى ... وَعَاتَبْتُ دَهْـرِي فِيـكَ مَـا الـدَّهْرُ أَعْتَبَا
فَيَالَـكَ مِـنْ حِلْـمٍ وَيَـا لَـكَ مِـنْ تُقَـى ... وَيَـا لَـكَ مِـنْ زُهْـدٍ بِـهِ الكُـلُّ أُعْجِبَـا
تَشَـمَّخْتَ تَصْـنِيفَ العُلُـومِ مُكَابِـدَاً ... وَلِيـدَاً إِلَى أَنْ صَـارَ رَأْسُـكَ أَشْـيَبَا
أَطَـالَ إِلَـهُ العَـرْشِ عُمْـرَكَ عَالِمـاً ... فَقِيهَـاً وَصُـوفِيَّاً مَـدَى الـدَّهْرِ مَشْـرَبَا
بِـكَ الكُـلُّ وَالأَبْنَـاءُ أَنْـتَ غِيَاثُنَـا ... إِذَا مَـا ادْلَهَـمَّ الأَمْـرُ فِينَـا مُصَـعَّبَا
فَيَـا رَبِّ بَلِّغْنِـي رِضَـاكَ رِضَـاءَهُ ... تُقَـدِّمْ مَنِيَّـاتِي فِـدَاهُ تَقَرُّبَـا
وَصَـلِّ وَسَـلِّمْ كُـلَّ يَـومٍ وَلَيْلَـةٍ ... عَـلى مُجْتَبَـى الـرَّحْمٰنِ مَـا الـدُّرُّ صُـوِّبَا
مُحَمَّـدِ المَبْعُـوثِ لِلْخَلْـقِ رَحْمَـةً ... وَمَـا قُـرِأَتْ يَاسِـينُ والفَـتْحُ وَالنَّبَـا
وَآلٍ وَأَصْـحَابٍ وَتَـابِعِهِمْ بِمَـنْ ... بِهِـمْ قَـدْ تَوَسَّـلْنَا لِتَحْقِيـقِ مَطْلَبَـا

نَجْل المؤلف

الشَّيخ / الجنيد بن محمد بن أحمد الجنيد

تقديم

للحبيب العلّامة

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

ابن الشّيخ أبي بكر بن سالم

عَميد دار المصطفى - بتريم - للدّراسات الإسْلاميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل التحقُّقَ بالإسلام والإيمان عِلماً وعَملاً سُلّماً إلى ارتقاءِ مراتب الإحسان ، وجعل مراتبَ الإحسانِ مَدخلاً وباباً إلى خالصِ المعرفةِ والمحبَّةِ والقُربِ والدّنو ، وصَلى اللهُ وسلَّمَ على مفتاح أبواب الرّحمة الهادي إلى سبيل الحقِّ بالحق على الوجه الأَكمل ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه المغْتَرِفِين من بحارِ علمِه ما أوقفهم على المعلوم ، وأزاحَ عنهُم جميعَ الوُهوم ، بِنورِ تفضُّلٍ وعنايةٍ من الحيّ القيّوم ، وعلى آبائه وإِخوانه من النبيين والمرسلين، وآلهم وصحبهم وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذه رسالةٌ حسنةٌ مباركة ، تحدث فيها الشيخ الكريم العلّامة الموفَّق المنوَّر محمد بن أحمد الجنيد النور ، عن شَرْحٍ وتِطْوَاف للأصول التي حرّرها الإمامُ العالم العارف الواسع الفَهم ، حميدُ الوصف ، المنتشرةُ علومُه وكتبُه في أوساط الأمة ، الحائزة على القبول من خاصَّتها الأئمة، الشيخ يحيى النووي أبو زكريا عليه رحمة الله تبارك وتعالى، ومِثلُه مِن خير مَن يتحدث عن أصول التصوف ، إذ قد سبرَ فيها أغوارا ، وبلغ فيها

رِفعةً ومقدارًا..، ولقد حرّر في رسالته المختصرة أصولَ التصوف ، الآخذةِ بمتأمِّلها إلى حقيقة التعرُّف ، على معاني ذلك العِلم الإحساني الذّوْقي .

ولقد أفادَ وأجادَ الشيخُ محمد بن أحمد الجنيد النّور بما جمع في كل ما ذَكر من الأصول من نقولٍ عن أهل الشأن ، وبيانٍ لرجال وفرسان ذلك الميدان ، ومأخذهم لتلك العلوم من مصدرها ؛ كتاب الحق وسنة رسوله السيد المعصوم صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وكلام السلف الأكرمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .

فنسأل اللهَ أن ينفع بهذه الرسالة ومؤلِّفها ، وأن يبارك في الانتفاع بها لكلّ قارئٍ وسامع ، وناشرٍ وطابع ، ومُتطوّفٍ ومُتشوِّفٍ ومُطالع ، وأن يجعلها باباً إلى الوَعْي والذَّوق ، المُنتِجَين لحقيقة الرَّغبة والشَّوق ، والتطلُّع إلى ما هو فوق ، وأن يجزيَ المؤلفَ والمُحقّقَ لها مِن تلامذتِه الأَخ عيسى بن أمين بن محمد القاسمي ، ومَن ساهم في هذا الخير خيرَ ما جزى المقبولين لديه من أهل الخير ، وضاعفَ لنا ولهم البركة في ما أبدى ويُبدي ، وما أنعم ويُنعمُ ويُسدي من أنوار العلم والمعارف ، وأسرار الحقائق واللطائف. وبالله التّوفيق .. وهو المستعان وعليه التُّكْلان. وصلى الله وسلَّم على سيدنا محمد وآله وصحبه ومَن سار في دربه ، والحمد لله رب العالمين .

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ
ابن الشيخ أبي بكر بن سالم

يوم الخميس١٦/ ربيع الثاني/ ١٤٣٦ هـ
الموافق : ٦ / ٢ / ٢٠١٥ م

تعريف

العلّامة والمفكر الإسلامي الحبيب

أبي بكر العدني بن علي بن أبي بكر المشهور

الموجه العام لأربطة التّربية الإسلاميَّة ومَرَاكزهَا التَّعليميّة والمهنيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذِي جمعَ أصولَ علُومِ الدِّين في أربعة أمور شرعية ، الإسلام وهو علم الشريعة، والإيمان وهو علم العقيدة، والإحسان وهو علم الزهد والتزكية والتصوف، والعلم بعلامات الساعة وهو علم معرفة الخلل النّاشئ في العلوم الثلاثة آخر الزمان وما يستجد من العلوم والمعارف والتحولات الكونية، والصلاة والسلام على سيدنا محمد القائل: (ذاك جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم)، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار.

وبعد : فقد عُرِضَ عَليَّ كتَاب (**التَّطَوُّفُ في أُصُول التَّصَوُّف**) ، تأليف / السيد العلامة محمد بن أحمد الجنيد النور ، وتحقيق / عيسى بن أمين بن محمد القاسمي ، وتقديم / الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ .

والكتاب سفر جامع للأصول التي حررها الإمام الشيخ يحيى النووي أبو زكريا رحمة الله عليه في كتابه (المقاصد النووية) ، اعتنى بها مؤلف الكتاب الشيخ الجنيد ، وجمع بين علم التصوف وأصوله الشرعية كما ذكرها العلماء والعارفون بالله ..

وأهمّ ما لفت نظري ودفعني للكتابة بإسْهَاب ما جاء في مقال: (بين يَدي الكتاب) ، ومقدمة المحقق .. فالتمهيد (بين يدي الكتاب) يأتي في زمن غير زمن الإمام النووي ..، وغير زمن المؤلف السيد الجنيد .

وقد صار الوصف للتصوف وأهله مصوغا بالتهمة والتبديع لدى عامة أهل زماننا وعصرنا ، وخاصة جيل المدرسة الحديثة وتلاميذ الإعلام والثقافة المعاصرة ما عدا القليل القليل ، ولكن التمهيد لم يتعرض لشيء من ذلك ..؛ وكأنّ الموضوع لا يقتضي الإشارة ، لهذه المهمة الضرورية في هذا العَصر المجحف .

وحديثي هنا يخص أهل عصرنا ممن ينتمي إلى هذا المنهج الصَّافي بعد أن تشعب الناس فيه ..، والناس هنا ليس العوام ، فالعوام تبع للعلماء وتشعب العلماء اتخذ منهجا غرضا أكثر من كونه منهجا تقييما ، مما أفسد المعنى الشرعي للتصوف وتطبيقات الآخذين به عبر الأزمنة المتحولة .

وقد أشار المحقق في مقدمته بعد عرضه لحديث جبريل عليه السلام ما قرأه عن رباعية أركان الدين أو أموره كما جاءت في علم فقه التحولات ..، وقال : (ولست هنا لأتحدث عن أركان الدين ، وإنما مرادي أن تكلم عن التصوف الذي هو علم الإحسان والتزكية) .

والمعلوم أن التصوف لدى علم الإحسان والتزكية أحد أمور الدين الأربعة ، وأن التناول لأركان الدين أو أموره مجتمعةً شرطٌ من شروط البيان كما هو في الحديث المستشهد به في مقدمة المحقق جزاه الله خيرا ..

وأعتقد جازما أن إيضاح الصورة الصحيحة للتصوف يحتاج إلى زيادة سعة وتبيان ، مرتبطاً بمفهوم رباعية الأركان ولأن الأقدمين كما ذكر المحقق قد غفلوا عن ذلك فإن حاجة المتأخرين إلى معرفة ناتج الغفلة التي طرأت من غير تعمد ولا قصد لدى المتقدمين أمرٌ ضروري .

والكتاب في كنهه وموضوعه معبر عن رأي الأقدمين عن التصوف ، فهل سيكون للمتأخرين إيضاح أكثر وتوصيف أوسع يتناسب مع الآخرين ، مع إعادة ربط رباعية الأركان ، ومع ما حدث من تجريح ونقد لعلم الإحسان في تطبيقات أهل العرفان أم غير ذلك؟!.

فالملاحظ أن الأوائل أخذوا تناولهم لهذا العلم مقترنا بمراحل تحوله إلى مدارس صوفية ، ولم يعتنوا بالتصوف في أصوله العملية ومواقف رجاله الأولية من عهد الرسالة وما تلاها كمواقف عملية شرعية.

بل اعتقد البعض أن فحول العلماء وكبراء الأمة نظروا التصوف منهجاً دخل فيه زمرة منهم وتركه آخرون .. مع أن التصوف إذا عرفناه بركن الإحسان جزء لا يتجزأ من أركان الدين التي يباشر العلم بها والعمل بما فيها كل من ترقى في مراقي الإسلام والإيمان والإحسان وليس موضوعاً خارجاً عن أمر الديانة أو اختيارا يختار منه ما يشاء ويدع ما يشاء ، وإنما حصل توصيف الإحسان بهذه الصورة بعد ظهور المذاهب الإسلامية فيما بعد القرن الثالث والرابع .

وعلى هذا المفهوم يجب أن يفهم المتأخرون أن التصوف المتَنَاوَل في رباعية الأركان مبني على مواقف الأئمة الفحول الذين باشروا وطبقوا مفهوم علم الإحسان قبل ظهور التصوف المقَعّد المُمَنْهج الذي تتناوله مؤلفات العلماء والباحثين .

فالتّنَاول للمنهج المقعد يبدأ من ظهور الطرق الصوفية ، والتناول لمنهج الإحسان في أصوله يبدأ من عهد صاحب الرسالة ، وما جاء من بعده من مواقف علميه وعملية لأئمة آل البيت والصحابة والتابعين ، حتى ظهور التصوف المُمَنْهج فيما بعد ..

وإذا نحن اقتصرنا في حديثنا عن التصوف بذكر اجتهادات العلماء كالمشتغلين بأخبار وحكايات وحقائق ومراتب وغرائب الصوفية ، فقد عزلنا التصوف كعلم مرتبط بركن الإحسان الثالث إلى علم مستقبل يختاره قوم ويؤمن به قوم ، فالذين لا يؤمنون به يخرجونه عن دائرة علم الإحسان ويربطونه بعصر التدوين والتقعيد كما هو الحال في صراع العقائد بين علماء الكلام عندما يعزلون النظر عن عصور السلف قبل اختلاف المذاهب ويرجحون ما اتفق عليه بعض علماء المذاهب إبان مراحل الصراع المرير في المرحلتين الأموية والعباسية وما تلاهما .

ولأجل هذا جعلتُ تعضيدي لهذا الكتاب قائم على الإشادة أولا بالمؤلف وحسن اختياره لعلم قواعد التصوف من (المقاصد النووية) ، وشكراً للمحقق الذي فتح لي بملحظه الموفق لرباعية الأركان في أن أطرق التصوف مرتبطا بهذه الرباعية الشرعية ، ومهيبا بالباحثين الجدد ممن يرغب في خدمة علم الإحسان الركن الثالث من أمور الدين كما مر ، وعلم التصوف كثمرة شرعية من دراسة وتطبيقات علم الإحسان أن يأخذوا بعين الاعتبار موقع فقه التحولات من دراسة الأركان الثلاثة ، لإعادة شرف الوحدتين الموضوعية والشرعية التي جرت على لسان من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وآله وسلم .

وأن يوسعوا دائرة البحث في مفهوم التصوف من حيث كونه مواقف آل البيت والصحابة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنها موقف الإمام علي وزهده في قرار الخلافة ثم زهد الإمام الحسن بن علي .. وزهد الإمام الحسين في حياة لا يستقيم فيها قواعد الأخذ بالشريعة في النظر إلى حرمة الذوات المطهرة وحرمة المواطن الشريفة .

وزهد الإمام علي زين العابدين في قرار الحكم والمطالبة بالثأر والدم .. ليستعيض عن ذلك بالتصوف العملي العلمي الذي انبثق عنه فيما بعد علم التصوف ومسمى الصوفية ، وسار من بعده من سار على هذا الموقف من أهل البيت وعلماء الأمة عدة أجيال .. ولكنها انقسمت إلى قسمين :

١-قسم أخذ منهج الإمام علي زين العابدين وآبائه ومنها أبناؤه وأحفاده حتى ظهور الاختلاف الفكري من بعد أبناء الإمام جعفر الصادق .

٢-وقسم أخذت به مسائل الاختلاف والصراع بعد المرحلة الكرْبَليّة وتحولت المسألة إلى اجتهادات متعددة ومتفرعة .. كان من أعدلها منهج أهل السنة والجماعة في الأصول ومنهج أهل التصوف المعتدل في علم الإحسان .

وأخيرا أسأل الله التوفيق لأجيالنا المعاصرة كي تفهم سلوك آبائها وأسلافها من خلال دراسة المراحل الأولى وما تفرع عنها ، وليس من خلال دراسة المراحل الأخيرة وحدها ، وما ترتب فيها من الاختلاف والاختلاق ولا من خلال حملات المغرضين والناقدين .. والله من وراء القصد وهو حسبنا الله ونعم الوكيل.

السيد /

أبو بكر العدني ابن علي المشهور

جُدَّة - ١٢/ ربيع الأول/ ١٤٣٨هـ

بَيْنَ يَدَيِ الكِتَاب

التصوف علمٌ جليلُ القَدْر ، عظيمُ النفع ، أنواره لامعة ، وثماره يانعة ، علم يزكي النفس من الدنس والأرجاس ، ويطهر القلوب ويعطر الأنفاس ، يصفي القلوب عن جميع الأغيار ، ويوصل الإنسان إلى مرضاة العزيز الغفار ، يبعد العبد عن الضلال والهوى ، ووساوس الشيطان والنفس الأمارة بالأسواء ، وخلاصته اتباع شرع الله تعالى ، وتسليم الأمور كلها له عز وجل ، والالتجاء إليه في كل الشئون مع الرضى بالمقدر ، من غير إهمال للأوامر ولا مقاربة لما عنه الشرع نبه وحذر .

يظل التأليف في هذا العلم ، ويظل الإرشاد إليه ما دامت رجاله ، ومادام السالكون فيه ، والتصنيف فيه فن لا يمله من اعتَادَه، ولا يلتذه إلا من اشترى له سهرَه وباع فيه رُقادَه، ولا يأنس به في طول أسفاره إلا من وثق بما معه من الزِّوَادَة ، وهو شغلٌ للنفس عما يعرض لها من هموم هذه الدار ، ومَطلٌ يُدافع بصفوه ما تحدثه الآفاتُ من الأَكدار ، وسَهْلٌ يرتاح القلب إليه إذا اضطرته إلى حزنها الأقدار .

وهذا كتاب في هذا العلم وجيز ومختصر ، حاوٍ على فوائدَ تفوق الجواهر والدرر ، يأتي في زمن ملت فيه نفوس أهله من القراءة في المطولات ، وسئمت النظرَ في كتب السلوك والإرشادات ، ليعيدلنا الارتباط بكتب الأسلاف الأمجاد ، ويزودنا للدار الآخرة بأحسن زاد.

وعلاوة على ذلك فإن هذا الكتاب يصدر من شيخ تحقق بما فيه قبل أن تخطه أنامله ، مما يجعل الانتفاع به عظيماً ، والإقبال عليه شاملاً وعميماً ، شرح فيه المؤلف أصول التزكية التي ذكرها الإمام النووي رحمهُ اللهُ تعالى في كتابه **"المَقَاصِد النّوَوِيّة"**،

وحرص الشيخ حفظهُ اللهُ تعالى ونفع المسلمين به – مع ما منحه الله تعالى من السعة في هذا العلم– على أن يكون الكتاب تام الفائدة ، وافر النفع ، مناسبا للخواص والعوام من القرّاء.

ولم يتقيد فيه على شرح المقاصد فحسب ؛ بل جمع فيه جملة من الآداب التي لابدّ منها لسالك طريق الآخرة ، وختمه بالكلام على الكرامات التي هي من مواهب الحق جل وعلا للخلص من أوليائه المتقين ، يظهرها لمن يريد للخلق الانتفاع به من الأولياء والصالحين ، حين يحصل الشك في استقامتهم وصلاحهم ، وإلا فإن الاستقامة أعظم كرامة وأدلُّ دليل على الصلاح والولاية .

ومما يزيد هذا السفرَ العظيم المبارك رونقا وجمالا ؛ بروزُه في قالب التحقيق وحلَّة التنضيد ، موشحاً بتعليقات مفيدة ، وتَتِمَّات حسنة فريدة ، تمتع القارئ والمتأمل ، وتجعل هذا الكتاب جَدِيراً بقول الشاعر : [من الكامل]

وَإِذَا بَـــدَا لا تَسْـــتَقِلُّواْ حَجْمَـــه وَحَيَـــاتِكُم فِيـــه الكَثـــيرُ الطيِّـــبُ

المحقّـق

التَّعْريف بالمُؤَلّف

نسبه :

هو الإمام العلامة ، الولي الصالح ، الورع الزاهد ، العارف بالله تعالى ، الشيخ محمد ، بن أحمد ، بن الجنيد ، بن عبد الله ، بن ياسين ، بن الجنيد ، بن الطيب ، بن ياسين ، بن الطيب ، بن الشيخ النور ، بن الشهاب ، بن الطيب ، بن الشهاب ، بن الطيب ، بن الشهاب ، بن الجنيد ، بن عبدالله ، بن أبي بكر ، بن محمد ، بن إبراهيم ، بن أبي بكر ، بن علي ، بن موسى ، بن عمر ، بن غالب ، بن عمر ، بن سرور ، بن بكر ، بن عامر ، بن عبد الرحمن ، بن خالد ، بن زيد ، بن الصحابي الجليل أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري رَضِيَ اللهُ عنه ، الأشعري نسبا وعقيدة ، الحنفي مذهبا ، التهامي مولدا ، الصوفي مشربا ، الشاذلي طريقة.

❖ ولادته :

ولد في الثامن من شهر ربيع الأول ، عام (١٣٥٧) هـ ، بدار النصر في مديرية (جبل راس) التابعة لقضاء زبيد محافظة الحديدة ، ويذكر بعضهم حكاية عن الشيخ أحمد بن قائد العواضي رحمهُ اللهُ تعالى ؛ أن العارف بالله تعالى القطب أبا الغيث سيدي محمد بن حسان بن سنان رحمهُ اللهُ تعالى بشر به تلامذته قبل ولادته .

❖ نشأته :

نشأ شيخنا الفاضل نشأة علمية صالحة على الأخلاق الحسنة والآداب السَّنِيَّة ، في بيئة الصلاح وأسرة العلم والتقوى، وقد كان المعلم الأول له هو والده الإمام

العلامة أحمد الجنيد الذي كان له به الاعتناء التام والرعاية الكاملة ، حيث جعله يتردد بين مكتبته الحافلة بآلاف الكتب في شتى فنون العلم الشريف ، وبين زاويته وما يمليه على المئات من التلاميذ فيها ، وقد كان منذ الصغر منور البصيرة ، صافي السريرة ، سريع البديهة ، ذا ذكاء وفطنة وفهم وقاد ، فاق جميع الأقران وحاز السبق على سائر الإخوان . وكان والده رحمة الله تعالى عليه إذا أراد كتابا معينا وهو في الزاوية يشير إليه ويكتب له اسم الكتاب بإصبعه في الهواء فيعرف اسم الكتاب المطلوب ويحضره في الحال دون أن يخطئ الكتاب المقصود !.

❖ وفاة والده :

توفي والده رحمهُ اللهُ تعالى وهو ما زال في سن الصغر ، إلا أنه وعى عنه أموراً كثيرة وأحوالاً شهيرة ؛ من العلم والعبادة ، والورع والزهادة ، وقد كان والده في حياته يوصي به عددا من شيوخ عصره ، ليلاحظوه بالعناية ويحطُّوا نظرهم عليه .

ومن أَجَلِّهم: الحبيب العلامة إبراهيم بن عمر بن عقيل باعلوي مفتي لواء تعز رحمهُ اللهُ تعالى ، فكان بعد ذلك يكثر التردد إليه والأخذ عليه ، قال الشيخ: في أثناء ترددي على الحبيب إبراهيم بن عمر بن عقيل ، كنت أتعلم اللغة الإنجليزية في بعض المعاهد بمدينة تعز ، وكانت الدروس تنتهي بعد صلاة العصر ، فكانت صلاة العصر تفوتني في أول وقتها ، فلمَّا دخلت عليه في مجلسه سمعته يقول : رحم الله الشيخ عبد الهادي السُّودي ؛ كان يقول : من جلس في تعز أربعين يوما نزعت حلاوة الإيمان من قلبه ! ، فقلت في نفسي : كيف يقول الحبيب هذا الكلام وهو يعيش في تعز والشيخ عبد الهادي السُّودي عاش ومات في تعز ؟!، فنظر الحبيب إِليَّ وقال: أيْ نعم يا ولدي؛ يكون عنده درس إنجليزي يؤخره عن صلاة العصر، فتركت تعلم اللغة

الإنجليزية ولم أعد إليها بعد ذلك . وقد ذكرت هذا ليكون نموذجا يعرفنا بمدى عناية الشيوخ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم به ، وتلطفهم في نصحه وإرشاده ، من الذين أوصاهم به أبوه ، وكذلك من غيرهم .

❖ طلبه للعلم الشريف :

حفظ القرآن الكريم في مستهل عمره ، وتلقى علومه في بداية أمره ، على يد عدد من الأساتذة والشيوخ ؛ منهم الأستاذ عامر بن محمد بن مقبل الحاتمي ، والأستاذ قائد بن صالح بن قائد النميري ، والشيخ الفقيه عبده بن سالم ، والحاج أحمد بن عبدالله بن علي الشرقي ، وأتمه مع علم الفقه على يد الفقيه محمد بن محمد عرجاش ، والشيخ علي بن حيدر بن خالد الوصابي ، والشيخ العلامة خالد بن محسن بن حسن الشرعبي ، ولم يزل يواصل الأخذ والتلقي منذ نعومة أظفاره في عدة فنون ، حتى استلهم نحواً من اثني عشر علما في فنون مختلفة من فنون العلم الشريف ، وكان له الباع الكبير في العلوم العربية كعلم النحو والبلاغة وعلم العروض .

ولا يمكن تحديد طلبه للعلم بزمن معين ؛ لأنه منذ الصغر وهو يواصل الإفادة والاستفادة ، شأنه كشأن غيره من العلماء في مواصلتهم للأخذ والتلقي ، فلا يأخذ كتابا إلا ويقرأه حتى يكمله ، ولا يرد إليه طالب علم إلا ويتحفه بصنوف من الفوائد والمسائل النادرة ، التي تنبئ عن سعة اطلاعه وتضلعه في العلوم والمعارف .

وأما معاناته في طلب العلم فحدث ولا حرج ..؛ سأل أحد شيوخه عن مسألة من العلم ، فقال له وهو راكب على الخيل: إن أردت الجواب فأتبعني إلى المراوعة ، ولم يكن الشيخ جادّاً معه في ذلك ولا يظن أنه سيفعل ذلك ، إلا أنه حمل كلام الشيخ بمحمل الجد فسار من مدينة زبيد إلى منطقة المراوعة مشياً على الأقدام في شدة

الرمضاء فتمزقت نعاله وما وصل حتى تورمت وتفطرت قدماه ، وقد كان في أثناء طلبه للعلم في مدينة زبيد ، يأتي الشيوخ الذين يقرأ عليهم إلى منازلهم ، فربما وقف الساعة والساعتين والثلاث بباب الشيخ مع علم الشيخ بمكانه إلا أنه لا يفتح له على الفور اختبارا منه وامتحانا له ، فكانوا لا يرون منه سوى الصبر الكامل والأدب التام.

❖ أخذه للتصوف :

أما علم التصوف فقد أخذه على عدد من مشايخ الطريقة الشاذلية ، وأكثرهم من آل حسان ، ومن أجل من أخذ عنهم علم التصوف ؛ سيدي الشيخ العارف بالله تعالى محمد بن محمد حسان رحمهُ اللهُ تعالى ، وعنه أيضا أخذ الطريقة الشاذلية ولبس الخرقة ، ويعد الشيخ محمد بن محمد حسان من أجل وأبرز شيوخه في السلوك والطريقة والشريعة والحقيقة ، وأخذ أيضا عن إخوته العارف بالله تعالى علي بن محمد حسان ، والشيخ العارف بالله تعالى الحسن بن محمد حسان ، والعارف بالله تعالى عبد الباري بن محمد حسان ، وغيرهم الكثير والكثير .. رحمة الله تعالى عليهم أجمعين ، حتى رفعت له بين أهل هذا العلم الأعلام ، ورسخت منه فيه الأقدام ، وأصبح يطلق عليه لقب "الصّوفي" من خواص الناس وكذلك العوام ، لما يرونه فيه من الأخلاق الحميدة ، والأعمال المجيدة ، ولن يسعني المقام لِأَنْ أتحدث عن تصوفه في هذا التعريف المستعجل ، فهذا الكتاب يعتبر كالمتحدث عنه ؛ لأنه تحقق به وعمل بما فيه .

❖ أخذه للطب والكيمياء:

لم يقف الشيخ عند حد معين في طلبه للعلوم ، ولم يقتصر على علم معين ، فبعد أن أتقن علوم الشريعة وآلاتها ، شرع في تعلم الطب والكيمياء لسنوات عدة ، من الكتب ومن الشيوخ ، وقد أتقن علم الكيمياء على يد العارف بالله تعالى الشيخ أحمد

بن علي بن محمد حسان ، والأستاذ ناجي بن عبدالله الفايشي ، وتفوق فيه تمام التفوق ، وكان الغرض منه الاكتفاء الذاتي له ولمن يليه ، ولكن ما أن تعلمه حتى زهدت نفسه فيه ، وهنا تظهر حقيقة الزهد ؛ فإن الزهد يكون عند وجود الدنيا والقدرة عليها لا عند انعدامها وتعسر حصولها ! يقول الشيخ حفظهُ اللهُ تعالى: تعلمتُ الكيمياء وتفوّقت فيه مائة في المليون ! ولكني دسته تحت قدمي ، وزهدت نفسي فيه ، ورضيت من الدنيا بما قاله المثل: يومٌ على عسَل ويومٌ على بصَل ويومٌ على ما حَصَل !.

وأما علم الطب فقد لجأ الشيخ إليه وبذل فيه جهدا عظيما ، لكي يتمكن من إيصال العلم والخير والهدى إلى عوام الناس ، فكان بالفعل وسيلة ناجحة لتعليم الجاهلين وإرشاد الغافلين ، حيث يفد إليه حاليا العشرات من الناس كل يوم ، بعضهم بغرض الزيارة والتماس البركة ، وبعضهم بغرض التعلم والاسترشاد ، وبعضهم لحل المشاكل وفصل الخصومات ، وأغلبهم يأتي للتداوي والاستشفاء ، فيرجع الكل ظافرا بما أمله ورجاه ، بعد أن يقضي بعض الأيام في زاوية الشيخ المباركة ، يتنقل فيها بين ذكر وأوراد ، وعلم وإرشاد ، وما يخرج منها إلا وقد استفاد منها أو أفاد .

انتفاع الناس به: اتخذ الشيخ – حفظهُ اللهُ تعالى ونفع المسلمين ببركته – كل وسيلة آتاه الله تعالى إياها في سبيل نفع العباد ، وتقريبهم إلى الخير والرشاد ، بالأحوال والأقوال والأفعال ، ولو لم يكن من مناقبه – وهي كثيرة – إلا ذلك لكفى ، وكيف لا يكون ذلك؟ والنبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم يقول : «خَيرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»[(١)]، فمنذ عرفته البلاد وهو يسعى جاهدا في النفع الخاص والعام ، ليله يمضيه

(١) أخرجه الحافظ القضاعي في مسند الشهاب [٢/ ٢٢٣] برقم (١٢٣٤) عن جابر رضيَ اللهُ عنه .

في عبادة ربه ، ونهاره في نفع خلقه وعباده ، فكم قد شفى الله تعالى به من علل وأسقام ، وكم أزال به من نزاع وخصام ، وزاويته الشهيرة الحافلة بالطالبين والزائرين شاهد يغني عن الكلام .

وقد شهد له شيوخه بالولاية والصلاح ، وأثنى عليه كثير من الجهابذة الأعلام ، من أجلهم سيدي السيد محمد بن هزاع الأيواني ، الذي يرجع نسبه إلى الفخر الشيخ أبي بكر بن سالم الحضرمي رحمهم الله تعالى ، فقد كان يثني عليه بين تلامذته ومريديه ، ويقول لهم عنه إذا ذُكِرَ عنده: "ذاكَ نَجْمُ البِلادِ "، وقد كان بينهما مراسلات وتبادل في القصائد والأشعار .

وله في الحب والتعظيم الذي يتوجه به إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم درجة عظيمة، لا تكاد تنعت ولا توصف ، حتى أنه لتصيبه أحيانا حالات من الوجد في حب الرسول صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ينسى فيها نفسه ويغيب عمن حواليه، وتختلج مشاعره وقسمات وجهه، وتنهمر عيناه بالدموع ، وربما لا يفيق إلا بعد وقت طويل.

❖ مؤلفاته :

قلما يتيسر للشيخ الواحد الجمع بين تأليف الرجال وتأليف الكتب ، ولكن الشيخ حفظهُ اللهُ تعالى حاول الجمع بين ذلك ، لحرصه على تمام النفع كما هو ديدنه ، فقد كتب عدة كتب في فنون متنوعة ، كالنحو، والبلاغة، والصرف ، والعروض ، والقوافي ، والشعر ، والتصوف ، والكيمياء ، والطب ، ولكن وللأسف! فإن معظم هذه الكتب لا تزال في مسودات ، حبيسة الأوراق والملفات ، ولم يبرز منها سوى هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وديوان الزجل في روائع الغزل، وديوان زهور الابتهال في

مناجاة ذي الجلال ، وديوان الروض الأسعد ، ولكن لنا أمل في أن ينشط من أبنائه من يقوم بصَفِّ تلك الكتب وإبرازها للناس ليعم بها النفع ، كما نأمل منهم أيضا أن يكتبوا عن حياته العلمية والدعوية ، ليستفيد الشباب وطلاب العلم فيحذوا حذوه ويقتفوا نهجه ، فإن كثيرا من الطلاب حين يقرأون في تراجم الأوائل ، يقول بعضهم: ومن يقدر منا أن يكون مثلهم ؟ الزمان قد تغير، وأولئك كانت الأسباب لهم متيسرة ، إلى غير ذلك من الأعذار.. التي يبررون بها تقصيرهم وعجزهم، ولكن عندما يطلعون على ترجمة شيخ عاش زمنهم وعاصرهم، فإن ذلك يكون عونا للمشمر، وحجة على المخل والمقصر.. واللهُ تعالى وليُّ الهداية والتوفيق ..

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ المحقِّق

الحمدُ لله الذي غَمَرَ خواص عباده بلطائفه ، وعَمَرَ قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه ، واصطفاهم وخصهم بأسراره ومعارفه ، ألزمهم الوقوف على طاعته وتقواه ، ونزههم عن الالتفات إلى ما سواه ، وعن الركون إلى من عداه ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره على جميع نعماه ، وأسأله عز وجل التوفيق لما يحبه ويرضاه ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد : فإن مما لا يجهله أحد من المسلمين، أن الإحسان ركنٌ عظيمٌ من أركان الدين، كما ورد في ذلك الخبر عن سيد المرسلين؛ في الحديث الصحيح المشهور بحديث جبريل، عن سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تعالى عنه قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَينَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلاَ يَعْرِفُهُ منَّا أَحدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم فَأَسْنَدَ رُكْبَتَهُ إِلَى رُكْبَتيه، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ لَه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةِ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إليهِ سَبِيلًا»، فَقَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ عُمَرُ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »، فَقَالَ : صَدَقْتَ ، فَقَالَ : أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ ، فَقَالَ : «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ

كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ .. »[١]. الْحَدِيثَ إلى آخره.

وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لأبواب الدين وأركانه..، وقد جاء "علم الفقه" ليهتم بأركان الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج ونحو ذلك، وجاء "علم التوحيد" ليهتم بأركان الإيمان، ويأتي "علم التصوف" ليهتم بتحقيق الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وفق منهج وطريق يسلكه العبد للوصول إلى الله تعالى، والوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة، وهذا المنهج يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص على وفق الشروط المعتبرة في الاجتهاد، كما أن "علم فقه التَّحولات" - الذي رفع شراعه وخاض غماره شيخنا العلامة أبو بكر بن علي المشهور حفظهُ اللهُ تعالى- يهتم بمعرفة أشراط الساعة وعلامات قربها، وهو علم يعتبر معرفته رُكنٌ رابعٌ من أركان الدين كما يُعلمُ من حديث جبريل الشهير ولا غرابة إن غفل عن ذلك الأقدمون.. فكم ترك الأول للآخر؟!.

ولست هنا لأتحدث عن أركان الدين..، وإنما مرادي أن أتكلم عن التصوف الذي هَو علم الإحسان والتزكية؛ التي هي من المنن العظمى التي بعث بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، كما ورد بيان ذلك في مواضع متعدده في القرآن الكريم ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ويمتن على عباده فيقول الله تعالى:﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ

(١) صحيح البخاري [٦/ ١١٥] رقم (٤٧٧٧) .

ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ، ويقول تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:٢].

فما هذه التزكية إن لم تكن التصوف والسلوك؟! لا شك أنها السلوك الحسن وتصفية الباطن من المعاصي القلبية ، كالحسد والكبر والعجب والرياء وغير ذلك مما هو موضوع التصوف وعليه يدور مداره بغض النظر عن التسمية مهما تعددت فالمؤدى واحد.وهو مبني على الكتاب والسنة، قال سهل التُّستَري رحمهُ اللهُ تعالى: "أصول مذهبنا -يعني الصوفية-ثلاثة: الاقتداء بالنبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النيّة في جميع الأفعال" .اهـ .

ويقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمهُ اللهُ تعالى: "ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنُّخَالة ، وانما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية " اهـ.

وقد حكى الإمام الشعراني رحمهُ اللهُ في الطبقات إجماع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الصوفية إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها وتبحر في لغة العرب حتى عرف مَجازاتها واستِعاراتِهاوغير ذلك، والحكمة في هذا الإجماع الذي حكاه ظاهرةٌ؛ لأن الشخص إذا تصدَّرَ للمشيخة والإرشاد اتخذه المريدون قدوةً لهم ومرجعًا يرجعون إليه في مسائل دينهم، فإذا لم يكن متقنًا لعلم الشرع متبحراً فيه فقد يضل المريدين بفتواه فيحل لهم الحرام ويحرم الحلال وهو لا يشعر.

ولما كان التصوف مبنيًّا على الكتاب والسنة ، دخل فيه عظماء الأئمة والعلماء وانضم إلى زمرة أهلهِ فحولٌ من الكبراء، كالحافظ أبي نُعَيمٍ، وحجة الإسلام أبي حامد

الغزالي ، والقاضي بكارِ بن قتيبةَ، والقاضي رُوَيمْ البغدادي، وأبي القاسمِ القشيري الجامع بين الشريعة والحقيقة، والفقيه الشيرازي، والحافظ المقدسي، والعز بن عبد السلام المالكي، والحافظ ابن الصلاح، والإمام النووي، والتقي السبكي ، والفقيه ابن الملقِّن ، وشرف الدين الدمياطي، والحافظ الطبراني، والمفسر ابن النقيب، والمفسّر أبي حيان الأندلسي ، وقطب الدين القَسطلاني ، والحافظ أبي موسى المَديني ، والعلامة التبريزي، والإمام ابن حجر ، وجلال الدين السيوطي، وغيرهم خلق كثير تضيق عن ذكرهم هذه الأسطر رحمة الله تعالى عليهم أجمعين ، فلا تجد عالمًا كبيرًا ولا محققا شهيرا إلا ودخل في طريق القوم والتمس بركتهم ونال الحظوة بسبب الانتسابِ إليهم، ومن قرأ تراجم العلماء والمحدثين وتتبع سيرتَهم واستقصى أخبارهم أدرك ذلك ، ولا ينكر ذلك إلا جاهل متعنت لا اعتداد به .

ولأهمية هذا العلم النفيس ودوره في تهذيب النفوس ، المنطلق من قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وقوله سبحانه وتعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] ، فقد صنف فيه عدد من أكابر العلماء ، فمنهم من صنف في العلم ومنهم من صنف في رجاله.

وممن صنف في رجال التصوف الحافظ أبو نُعيم صنف كتابه المسمى "حِليةُ الأَولياء"، أراد أن يميز فيه الصوفية المحققين عن غيرهم وذلك لّما كثر في زمانه الطعن من بعض الناس في الصوفية، وظهرت دعوى التصوف من طائفة أخرى هم خلاف الصوفية في المعنى، وصنف خلق كثير من العلماء كتبًا في هذا الشأن، منها "طبقات الصّوفية" للمحدث الحافظ أبي عبدالرحمن محمد السُلَميّ النيسَابوري، و"طبقات الصوفية" للحافظ البَارع أبي سعيد النقّاش الحنبلي، و"طبقات الصوفية" للإمام الحكيم الترمذي، و"طبقات الصوفية" للحافظ ابن الملقّن الشافعي، وكل هؤلاء العلماء الذين صنفوا التراجم من أهل الحديث .

ولقد أثنى على التصوف وعلى أهله جلُّ علماء الأمة وأئمتها المؤتمنين على شرع الله تعالى، الذين عبرهم وصلتنا تعاليم الإسلام وسائر الآداب والأحكام ؛ قال الشيخ منصور الحنبلي: "نُقِلَ أن الإمام أحمد رحمهُ اللهُ قال عن الصوفية: لا أعلم أقوامًا أفضل منهم، قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحون مع الله ساعة، قيل: فمنهم من يموت ومنهم من يُغشى عليه فقال: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] ، ولعل مُراده سماع القرآن، وعذرهم لقوة الوارد .اهـ[1].

وكان الإمام أحمد رحمهُ اللهُ قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله : " يا ولدى عليك بالحديث ، وإياك مجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية ، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه "، فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي ، وعرف أحوال القوم ، أصبح يقول لولده : " يا ولدى عليك بمجالسة هؤلاء القوم ، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم ، والمراقبة ، والخشية ، والزهد ، وعلو الهمة ". اهـ[2].

وقال الإمامُ حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمهُ اللهُ تعالى: "إني قد علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأَنَّ سِيرَتَهم أحسنَ السِّيَر ، وطريقتهم أصوب الطُّرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جُمعت عقول العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلوم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقةٍ

---

(١) انظر كتاب : كشاف القناع (٨/ ٢٨٣).

(٢) انظر كتاب : تنوير القلوب ، للعلامة أمين الكردي ، صفحة: (٤٠٥) .

طهارتُها تطهيرُ القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ". اهـ [١].

وقد اشتهر عن الإمام مالك إمام دار الهجرة رحمهُ اللهُ تعالى أنه قال: "مَنْ تفقَّهَ ولم يتصوف فقد تفسق، ومَنْ تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمعَ بينهما فقد تحقَّق". اهـ[٢].

وقال الإمام الشافعي رحمهُ اللهُ تعالى: "صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات ، قولهم: الوقت سيف إِن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسَك إِن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة". اهـ[٣].وقال أيضا رحمهُ اللهُ: "حُبِّبَ إِليَّ من دنياكم ثلاث: تركُ التكلف، وعِشرةُ الخلق بالتلطُّف، والاقتداء بطريق أهل التصوف". اهـ [٤].

أما العزّ بن عبد السلام رحمهُ اللهُ تعالى فقال :"قَعَدَ القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى ، وقعد غيرهم على الرسوم ، ومما يدلك على ذلك، ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات ، فإِنه فرع عن قبول الحق لهم ، ورضاه عنهم ، ولو كان العلم من غير عمل ، يرضي الحق تعالى كل الرضى ، لأجرى الكرامات على أيدي أصحابه ، ولو لم يعملوا بعلمهم، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ".اهـ

وقال الإمام السبكي رحمهُ اللهُ تعالى، في كتابه معيد النعم ومبيد النقم-تحت

---

(١) انظر كتاب: المنقذ من الضلال للإمام الغزالي صفحة : (١٣١) .

(٢) انظر حاشية العدوي على شرح الزرقاني لمتن العزية (٣/ ١٩٥).

(٣) انظر كتاب: تأييد الحقيقة العلية للحافظ السيوطي صفحة:(١٥).

(٤) انظر كتاب: كشف الخفاء ومزيل الإلباس للإمام العجلوني (١ / ٣٤١).

عنوان الصوفية-:"حياهم الله وبيَّاهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم، وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المُتلبِّسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنه لا حدَّ لهم، والصحيح صحته ، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة ؛ والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم ، ويُستنزل الغيث بدعائهم ".اهـ(١).

ويقول الإمام الكبير حجة المتكلمين عبد القاهر البغدادي رحمهُ اللهُ تعالى: "الزهاد الصوفية الذين أبصروا فأقصروا، واختَبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أُولئك مسؤول عن الخير والشر ، ومحاسب على مثاقيل الذر ، فأعدُّوا خير الإعداد ليوم المعاد ، وجرى كلامهم في طريقَيْ العبارة والإشارة على سَمْتِ أهل الحديث دون من يشتري لهو الحديث ، لا يعملون الخير رياء ، ولا يتركونه حياء ، دينُهم التوحيد ونفي التشبيه ، ومذهبهم التفويضُ إلى الله تعالى ، والتوكلُ عليه والتسليمُ لأمره ، والقناعةُ بما رزقوا ، والإعراضُ عن الاعتراض عليه" .اهـ(٢).

وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمهُ اللهُ: "أعلم أن أكثر من حصرَ فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ، لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن، والصوفية قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم وهم مطبوعون على كمال الأدب مع الله ، وهؤلاء

(١) معيد النعم ومبيد النقم ، صفحة : (١١٩).

(٢) انظر كتاب: الفَرْقُ بين الفِرَقِ لعبد القاهر البغدادي(١/ ٣٠٢).

هم خير فرق الآدميين ".اهـ[١].

ويقول الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي رحمهُ اللهُ تعالى: "إن التصوف في نفسه علم شريف ، وإن مداره على اتباع السنه وترك البدع ، والتَّبرِّي من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها واختياراتها ، والتسليم لله تعالى والرضى بقضائه وطلب محبته ، واحتقار ما سواه ، وعلمت أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم ، فأدخلوا فيه ما ليس منه ، فأدى ذلك الى إساءة الظن بالجميع ، فوجَّهَ أهلُ العلم للتمييز بين الصنفين ليعلم أهل الحق من أهل الباطل ، وقد تأملت الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم أرى صوفياً محققاً يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادعوا أنهم صوفية وليسوا منهم ".اهـ[٢].

وفي شعب الإيمان للإمام أبي بكر البيهقي رحمهُ اللهُ قال: سمعت السلمي يقول: سمعت أبا بكر الرازي يقول :سمعت غيلان السمرقندي يقول: سمعت أبا بكر الوراق يقول :"من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام ابتدع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والورع تفسق ، ومن تفنن في الأمور كلها تخلص"، وهذه العبارة تشبه عبارة الإمام مالك المتقدمة وتعضدها[٣].

ولاهتمام العلماء والأئمة بعلم التصوف فقد وضعوا له من المبادئ والقيود والضوابط مثل ما لغيره من العلوم الأخرى، فوضعوا له تعريفات وشروط وأركان

---

(١) انظر كتاب: فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازي ، صفحة: (٧٢).

(٢) انظر كتاب: تأييد الحقيقة العلية للحافظ السيوطي ، صفحة :(٥٧).

(٣) شعب الإيمان ، (٢ / ٢٩٥).

وأصول..، إلى غير ذلك من الأمور التي سنتعرف على بعضها في ثنايا هذا الكتاب المبارك، يقول شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمهُ اللهُ تعالى: "التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس ، وتصفية الأخلاق ، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية". وقال الإمام الجنيد رحمهُ اللهُ:"التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني". وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمهُ اللهُ تعالى:"التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية ".

ويقول الإمام ابن عجيبة رحمهُ اللهُ تعالى: "التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، وتصفية البواطن من الرذائل ، وتحليتها بأنواع الفضائل ، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة ".

وقال شيخنا العلامة عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ حفظهُ اللهُ : " التصوف هو تصفية القلب، ورسوخ القدم في العمل بمنهاج الله تعالى". وقال أيضاً فيما يتعلق بشأن الطّرق الصُّوفية المتعددة : " ناشئة الأمة في حاجة إلى وعي وفهم لإدراك عظمة رسالة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وتحقيق مراتب الإسلام والإيمان التي هي السُّلَّم لارتقاء مراتب الإحسان، ويكون الوصول إليها والتحقق بها عبر ما اشتهر اسمه في الأمة بالطريقة، وما هو إلا الإحسان في تطبيق أمر الشريعة الغرّاء، واتباع المنصُوصِ على وجهٍ مخصوص، من التَّنقِّي والكمال، والرُّقي وصدق العزم، وإفراد القصد لوجه الحق، فاتضاح هذه المعاني يكون حراسة لهم في الفهم من الشطح، ومن تصور الشيء على غير ما هو عليه، ومن إيراد الأمور على غير وجهها..".

وكم هناك من العلماء ممن أثنوا على هذا العلم الشريف والطريق القويم، وإنه لمن الصعوبة بمكان أن تحصر أقوالهم وتجمع لكثرتها وانتشارها في بطون المئات من

الكتب، والتي تجعل المتأمل المنصف يعلم حقيقةً أن هذا العلم ليس وليد الساعة ، ولا شَاذّاً عن السنة والجماعة ، ولا ناشئا من الزَّوَاوِي ولا مقصوراً على العوام والفقراء .

والحقيقة أن أصل التصوف كسلوك وتعبد وزهد في الدنيا وإقبال على العبادات واجتناب المنهيات ومجاهدة للنفس وكثرة لذكر الله تعالى ، يرجع إلى عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم وعهد الصحابة ، فأول صوفي هو النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، لأنه أول من دخل الخلوة في غار حراء مؤثرا للزهد والعبادة وحالته بعد البعثة لا تخفى على مسلم، ولأن التصوف يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين المستمدة من القرآن والسنة فهو في الحقيقة التطبيق للإسلام ، وأما من حيث تسمية هذا العلم بالتصوف فلا أحد ينكر أنها ناشئة كمسميات العلوم الأخرى؛ كعلم الفقه والتوحيد والحديث ونحوها.

ويقول الإمام القشيري رحمهُ اللهُ تعالى: "إن المسلمين بعد رسُول الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم لم يَتَسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرّسول صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم، إذ لا أفضلية فوقها ، فقيل لهم الصحابة، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعُبَّاد، ثم ظهرت البدعة وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة"(١).

ويقول العلامة ابن خلدون رحمهُ اللهُ تعالى: "هذا العلم من العلوم الشرعية ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها ، من الصحابة

(١) انظر كتاب الرسالة القشيرية ، (١/ ٣٤).

والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عامًّاً في الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية ". اهـ(١).

وأما تدوين التصوف كعلم ؛ فإنه بعد عهد الصحابة والتابعين ، دخل في دين الإسلام أُمم شتى ، وأجناس عديدة ، واتسعت دائرة العلوم ، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص ؛ فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثر من غيره، فنشأ – بعد تدوين النحو في الصدر الأول – علم الفقه ، وعلم التوحيد ، وعلم الحديث ، وأصول الدين، والتفسير ، والمنطق ، ومصطلح الحديث ، وعلم الأصول ، والفرائض ، وغيرها.

وبعد هذه الفترة أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً ، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله تعالى بالعبودية ، وبالقلب والهمة ، مما دعا أرباب المجاهدة والزهد إلى أن يعملوا من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف ، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، من باب سد النقص ، واستكمال حاجات الدين في جميع النواحي. وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

١- الإمام الحارث المحاسبي رحمهُ اللهُ تعالى ، المتوفى سنة (٢٤٣)هـ ، ومن أشهر ما كتبه: كتاب "بدء من أناب إلى الله" ، وكتاب "آداب النفوس". و"رسالة التوهم" .

(١) انظر مقدمة ابن خلدون صفحة: (٣٢٨).

٢- الإمام سعيد الخراز رحمهُ اللهُ، توفي سنة (٢٧٧)هـ، كتابه: "الطريق إلى الله".

٣- الإمام أبو طالب المكي رحمهُ اللهُ تعالى ، المتوفى سنة (٣٨٦) هـ ، وله كتاب: "قوت القلوب في معاملة المحبوب" .

٤- الإمام أبو القاسم القشيري رحمهُ اللهُ تعالى ، المتوفى سنة (٤٦٥) هـ ، وله كتاب "الرسالة القشيرية" وهي من أهم وأشهر الكتب في التصوف.

٥- حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمهُ اللهُ تعالى ، المتوفى سنة (٥٠٥) هـ، ومن كتبه: كتاب " إحياء علوم الدين"، وكتاب" الأربعين في أصول الدين "، وكتاب "منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين"، وكتاب "بداية الهداية"، وغيرها الكثير ، ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر كتب التصوف ومن أجمعها إن لم يكن هو الأشهر. ومهما تحدث ودَوَّنَ وكتب الكثير عن التصوف وعن ماهيته وعن مقاماته وعن كيفية السير فيه إلا أنه يبقى شِئنَا أم أبينا علم الأذواق لا علم الأوراق ، علم الأعمال لا علم الأقوال ، علم القلب والجنان لا علم اللسان ، ويبقى أيضا ذا أهمية كبيرة لا ينكرها إلا ذو عناد ؛ كيف لا وهو العلم الذي يزكي باطن الإنسان ويصفيه ، ويطهر القلب وينقيه، القلب الذي إذا تلوث بشيء من الذنوب كالحسد والبغضاء مثلا فإنه إن كان صاحبه منقطعا للعبادة أو مشتغلا بأنواع العلوم ، فإن ذلك لن ينفعه أبدا ، ولن يكون في غيره مؤثرا ، ما دام متسخ الباطن ممتلئا بالمحبطات وكبائر الذنوب والسيئات فإن المعاصي القلبية أخطر بكثير من المعاصي البدنية.

وفي الحديث الشريف عنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[(١)]، ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى وجوب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه [١/ ٩٣] ، برقم (٩١) ، عن عبدالله بن مسعود رضيَ اللهُ عنه .

تعلمه ، وأنه من الفروض العينية التي يجب معرفتها على كل مسلم ، وقال بعضهم إنما يجب تعلمه على من لم يرزق قلبا سليما . فيُعلمُ مما تقدم أن التصوف علم من العلوم الشرعية الضرورية ولكنَّ كثرةَ دخول الأدعياء فيه شوهته وفتحت المجال للمنتقدين عليه ، وهذا لا يجعلنا نرده بالجملة ففي كل علم أدعياء، ولدى كل طائفة خطأ وصواب لأن العصمة للأنبياء فقط .

وإنه لمن الخطأ بمكان أن ينفر الناس عن هذا العلم النفيس الشريف مع الحاجة الماسَّة إليه في تهذيب النفوس وتقويم الأخلاق؛ بحجة أن أهله من أصحاب التبرك أو التوسل أحيانا مع أن هذه الأمور ليست مباحث علم التصوف، ولاهي من الأمور المختصة بالصوفية؛ بل هي مسائل فقهية يتم التعرض لها في كتب الفقه ، لذا فإن من وضع الشيء في غير محله نسبة كثير من المسائل الخلافية الحاصلة اليوم والتي قد تم الحديث عنها والفصل فيها من قبل جهابذة علماء الأمة إلى التصوف وأهله .

وهذا النوع من الخلط كثير؛ وليس في قضية التصوف فحسب بل إن بعضهم يهجرون سنة زيارة القبور مثلا بحجة أنها من الشرك والبدع أو تودي إلى ذلك مع أن ذلك لا علاقة له بعلم التوحيد وقد ورد الأمر به من الشارع!، ومثل ذلك أيضا هجر سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم بدعوى أنها مولد وأن المولد بدعة.. وهكذا..!. وقد قال العلماء رحمة الله تعالى عليهم: لو أن كل علم هجر وترك بسبب إشكالٍ ظهر فيه لهجرت سائر العلوم ، ولو أن كل عمل من الأعمال الصالحة حدثت فيه بدعة أو معصية عارضة وترك لدخول هذه الشائبة فيه لتركت بذلك جمع الأعمال!، ولكن الخطأ يصحح والمنكر يُزَال والاستمرار في الخير والحرص عليه أمرٌ لابدَّ منه .

وقد استمر التأليف والتصنيف في هذا العلم الشريف والفنّ المنيف ، حتى صار فناً موازيا لغيره من فنون العلم ، كعلم التفسير ، وعلم الفقه ، وعلم اللغة ، وغير

ذلك ، فلا ترتاد مكتبة إلا وتجد علم التصوف يحتل واجهة فيها ، بل غالبا ما تجد علماء الأصول وعلماء الفقه يختمون به كتبهم ؛ فتجد كل خاتمة في التصوف !.

ولقد سطر لنا الإمام الحافظ يحيى بن شرف الدين النووي -رحمهُ اللهُ تعالى وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء - أصول هذا العلم ؛ حيث صنف رسالة سماها بـ " المقاصد النووية "، ذكر فيها سبعة مقاصد ، الأول : في بيان عقائد الإسلام وأصول الأحكام ، والثاني : في الطهارة ، والثالث : في الصلاة ، والرابع : في الزكاة ، والخامس: في الصوم ، والسادس : في الحج ، والسابع : في أصول طريق التزكية ، وهذا يدلنا على أن علم التصوف -مهما شوهت سمعته- جزء لا يتجزأ من الدين بل هو الركن الثالث منه، وهو الإحسان الذي عرَّفه النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بقوله: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» .

وقد قامت همة شيخنا الفاضل الشيخ محمد أحمد الجنيد حفظهُ اللهُ تعالى ونفعنا والمسلمين ببركته بشرح المقصد السابع؛ الذي هو في أصول طريق التزكية- التصوف- شرحا وافيا ، وبينه بيانا كافيا ، ووضحه توضيحا شافيا ، فكان التأليف متوسطا ، لم يجنح فيه إلى التطويل الممل ولا إلى الاختصار المخل ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حكمة الشيخ وفطنته ومعرفته بواقع الناس اليوم ، فقد كلت الهمم ، وضعفت العزائم، وسئمت النفوس، ولعل ذلك بسبب ما انفتح على الناس من التكنولوجيا الحديثة! فصار التعلق بالصور أكثر من الحقائق، والانشغال بالأجهزة أكثر من الانشغال بالكتب ، ولو أنا أعدنا النظر إلى ماضينا القريب لوجدنا أن هناك من العلماء من ألفوا كتبا يعجز أبناء اليوم عن قراءتها فضلا عن كتابتها، ولن نطيل بذكر الأمثلة فالبعض جاوزت مؤلفاته الألف، والبعض يصل حجم الكتاب له سبعين مجلدا !.

وقام نجل المؤلف الشيخ إسماعيل حفظهُ اللهُ تعالى بكتابة كتاب التطوف هذا للمرة الأولى وتم تصويره وتوزيعه لتلاميذ الشيخ وللمحبين له، وعندما وصلتني نسخة منه أُعجبت بمادة الكتاب كثيرا ، فذكرت ذلك للشيخ فقال لي ماذا لو عرضته على الحبايب في مدينة تريم؟ وعندما عرضته على شيخي ومربي روحي سيدي الحبيب عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ حفظهُ اللهُ تعالى، كانت منه الإشارة إلى حاجة الكتاب إلى التحقيق ، فأقدمت على ذلك الأمر على الرغم من صعوبته ، مع العلم أني لم أقم بمثل هذا من قبل ولست من أهله ، وغالبا ما يكون التحقيق أصعب من التأليف، ولكن أحببت اغتنام إشارة الحبيب، ورجوت أن أحصل على الرضا وحسن النظر من مشايخنا الكرام ، وحيازة شرف الخدمة لشيخنا الفاضل نفعنا الله تعالى به وبأمثاله.

وقد كان ممن شجعني على ذلك ووجهني إليه، الأستاذ الفاضل منير بن سالم بازهير حفظهُ اللهُ تعالى وبارك في مسعاه، فلقد قلدني بحسن توجيهاته مناً لا تفي الكلمات بشكرها، ولا تقوى الأنامل على تسطيرها ، ولكن أسأل الله تعالى أن يجزيه عني خير الثواب والجزاء، وكذلك يجزي عني خير الجزاء غيره من الأساتذة والإخوان ممن كان له في هذا العمل رأيٌ سديدٌ ، وحسن تأييد ، أو توجيه صائب ، أو مراجعة خاطفة ، أو ملاحظة هادفة ، والله سبحانه وتعالى الموفق والمعين ، وهو حسبنا في كل وقت وحين ، والحمد لله رب العالمين .

عِيسَى بن أمين بن محمَّد عَبْدُه القاسمي

دار المصطفى للدراسات الإسلامية

تريم- حضرموت- الجمهورية اليمنية

٢١شوال ١٤٣٥هـ

مَنهَجُ العَمَلِ فِي الكِتَاب

لقد اجتهدتُ - حسب الوسع والطاقة - في خدمة هذا الكتاب ، وإخراجه بصورة علمية حسنة مناسبة لأسلوب التحقيق العلمي، منقحة ومهذبة، وسليمة من الأخطاء، مع العلم أن كل عمل بشَري لابُدّ أن يلحقه شيء من النقص والقصور، ويكفي مثالا في هذا ما حكاه الربيع عن الإمام الشافعي ؛ قال: قرأت "الرّسَالة" على الشافعي أربعين مرة، وفي كل مرة منها وهو يصحح ويعدل فيها بعض الألفاظ، ثم قال في الأخير: " أَبَى الله تعالى أَنْ لَا يجعلَ العِصْمةَ إِلا لِكتَابه"، فأقول من باب التحدث بالنعمة لا التزكية : بأني قد حرصت كل الحرص على إخراج الكتاب بصورة مَرضيّة ، لا أقول سليماً من كل الأخطاء ، بل أقول قريباً من السّلامة من ذلك ، وقد كان عملي على النحو التالي :

١- إخراج الآيات القرآنية برسم المصحف الشريف ، مع عزوها إلى السور وبيان رقم الآية من السورة .

٢- تحقيقُ النص وضبطه وتشكيله ووضع علامات الترقيم المناسبة، قدر الإمكان.

٣- تخريج الأحاديث النبوية الواردة في الكتاب من دواوين السنة المختلفة، فأعزو الحديث إلى من أخرجه ، مراعياً في العزو رقم الحديث ، والجزء والصفحة أحيانا لكي لا يطول التعليق ، وغالباً ما أذكر كلام أهل العلم في الحكم على الحديث.

٤- تخريج الآثار الواردة في هذا الكتاب ، واجتهدت في عزوها إلى الكتب الأساسية والمصادر المعتبرة .

٥- عزو الأبيات الشعرية إلى قائليها ومصادرها بقدر الإمكان ، مع تبحير الشواهد على حسب بحور الشعر المعروفة .

٦-ترجمة الأعلام الوارد ذكرهم في متن الكتاب ، مع مراعاة الإيجاز والإجمال في تراجمهم ، وتوثيق ذلك من مصدر أو مصدرين من المصادر المعتمدة في بيان التراجم إلا ما لم أجد له ترجمة في مصدر معتمد ، ولم أترجم لهم في موضع واحد ، وذلك لأنه ذُكِرَ فيه عشرون علما فخشيت تطويل الحاشية بالتراجم لهم .

٧-توثيق النقولات التي أوردها المصنف من الكتب التي عزاها إليها ، وفي حال كونها مفقودة اجتهدت في تتبعها وعزوها من الكتب التي ذكرتها.

٨-التعليق على بعض المسائل التي يذكرها المؤلف ورأيت الحاجة ماسة إلى التعليق عليها لزيادة الفائدة .

٩-التعريف بالفرق الوارد ذكرها في الكتاب ، وعنونة بعض المواضيع .

١٠-شرح بعض الكلمات الغريبة التي تحتاج إلى توضيح المراد أو تبيين المعنى .

١١-التعريف بالمؤلف؛ بوضع ترجمة يسيرة، ذكرت فيها بعض ما أمكنني معرفته وجمعه عن شخصيته الكريمة، ولم أطل فيها خشية التطويل وسأم القارئ.

١٢-وضع مقدمة مختصرة ، أشرت فيها إلى شرف علم التصوف ، وكيفية نشأته ، وأهميته في تهذيب النفوس ، وذلك تتميما للفائدة التي يؤديها مضمون الكتاب.

والله سبحانه وتعالى أسأل؛ أن يرزقنا الإخلاص في كل ما نعمل ونقول ، وأن يمن علينا بالتوفيق وحسن القبول ، وأن يجعل عاقبة هذا العمل اليسير رضا الله سبحانه وتعالى ثم مشايخنا عنا ، وشفاعة نبينا الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، إنه سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين .

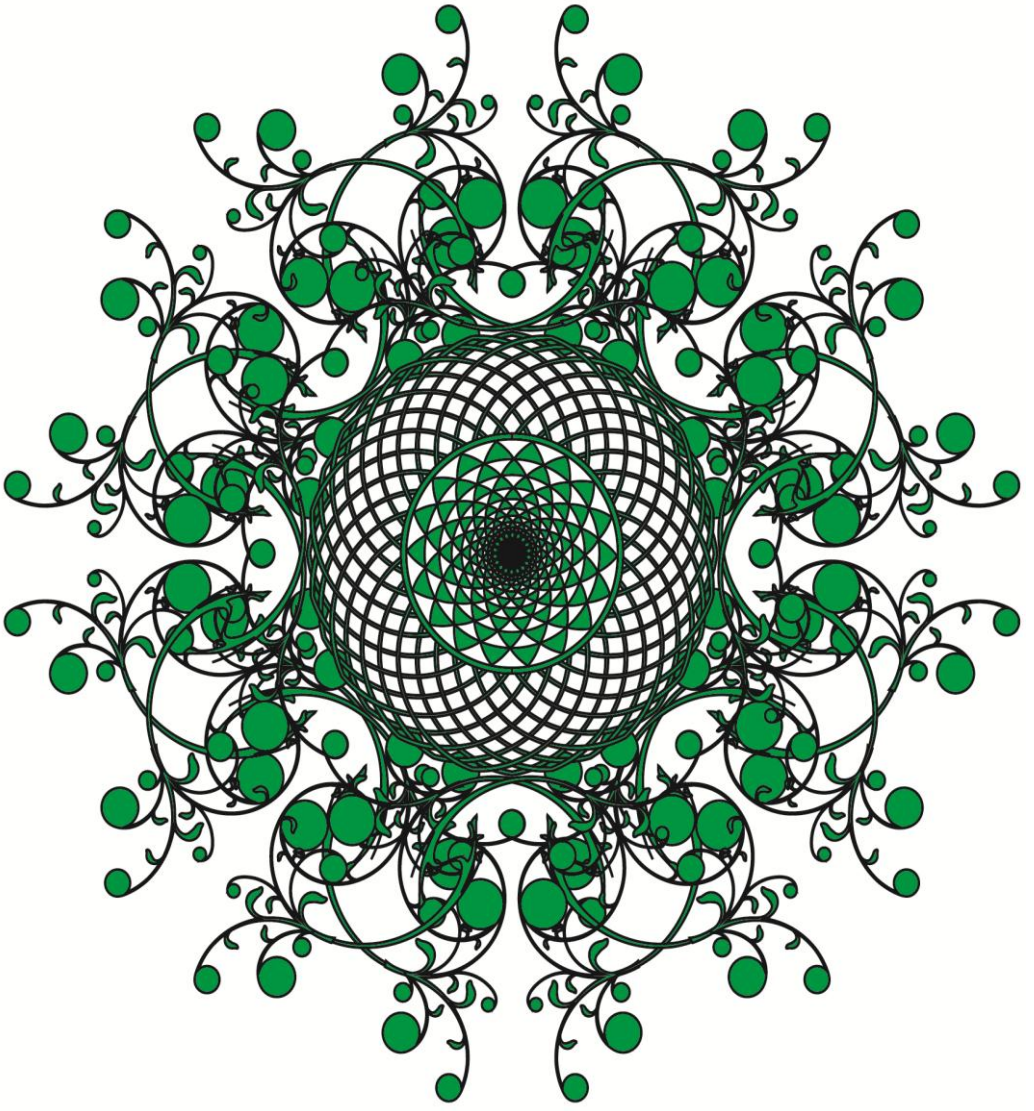

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الَّذي عَيَّنَ لِأَعيَانِ الأَعيَانِ عَينَ عيَانِ حَقِّ اليَقينِ ، وعَلَّمَ من لدُنه من تحقَّقَ في عَبْدِيَّتِه وعُبُودِيَّتِه وعُبُودَتِه من العبادِ المُخْلِصينَ ، وَاخْتَصَّ من اختَصَّ برحمته العِنْدِيَّةِ ولم يُضَيِّعْ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] .

أَحْمَدُه كما يَنبغي لِجلالِ وَجْهِهِ ولِعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، وأُسَبِّحُهُ علْماً بِأَنَّه المسَبَّحُ قَبلَ التَّسبيحِ ، المنَزَّهُ قَبلَ عِلْمِ المنُزِّهينَ وأَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ المُنْفَرِدُ بواجبِ الوجودِ الذَّاتِي ، وكَمَالِ جَلالِ الجَمالِ والصِّفَاتِ ، المتَوَحِّدِ بالعُلوِّ والعَظَمةِ ، والقُدْسِ والمَجْدِ[1] ، والغِنَى والعِزِّ ، من قَبلِ القَبْلِ والآتي ، فَسُبحَانَه مِنْ إِلهٍ عَظِيمٍ، وَرَبٍّ كريمٍ رؤُوفٍ رَحيمٍ، لَا رَبَّ سِوَاه، ولَا مَعْبُودَ إِلَّا إِيَّاه . وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمّداً عَبْدُه ورسُولُه ، النَّبيُّ الكريمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ، سَيدُ المرسَلينَ وإِمامُ المتَّقِينَ ، وقَائدُ الغرِّ المُحَجَّلينَ[2]

---

(١) **القدس**: أي البركة والطهارة والنزاهة عن النقائص ، ومن أسماءه سبحانه وتعالى القدوس ، وهو صفة مبالغة ومعناه الطاهر المنزه عن جميع النقائص ، **والمجد**: هو العلو والعظمة .

(٢) روى البخاري في صحيحه برقم (١٣٦)، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم : «إِنَّ أُمتِي يُدعونَ يومَ القِيامَةِ غراً مُحَجَّلينَ من آثارِ الوضوءِ ، فمن استطاعَ منكُم أَن يُطيلَ غرَّته فليفعلْ». وفي صحيح مسلم برقم (٢٤٦) عنه أيضا قال: قال صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم :« أَنتُم الغُر المحجَّلينَ يومَ القِيامَةِ من إِسباغِ الوضوءِ ، فمن استطاعَ منكم فَليُطلْ غُرَّتَه وتَحجِيلَه». **والغرَّة**: في الوضوء وهي غسل ما زاد على الواجب في الوجه من جميع الجوانب. **والتَّحجيلُ**: في الوضوء أيضا وهو غسل ما زاد على الواجب في اليدين والرجلين من جميع الجوانب ، وغايته في اليدين المنكب ، وفي الرجلين الركبة .

إلى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، الهَادِي إلى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ ، والمُرْسَلُ رَحْمَةً لِلْعالمينَ ، صَاحبُ الحَوضِ واللِّواءِ والشَّفَاعةِ في اليَومِ العَظِيمِ ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلِيهِ وَعَلى آلِه وَصَحْبِهِ ، صَلاةً تكونُ لَه رِضاً ولِحقِهِ أَداءاً كَما هُو أَهْلُه دَائِما مُؤَبَّداً ، وعَلى آلِهِ الأَطهارِ وصَحَابَتِهِ الأَبرارِ والتَّابِعِينَ الأَخيارِ ، وعَلَينَا مَعَهُم وَفِيهِم وَوَالِدِينَا وبَنِينَا ومَشَايخنَا وأَولِيَاءِنا وَجميعِ المسْلمِينَ . صَلِّ اللَّهُمَّ عَليهِ كَما أَمَرتَنَا أنْ نُصَلِيَ عَليهِ ، وكَما تحُبهُ وتَرضَاهُ ، وأَعْطِهِ الفَضِيلةَ والوَسِيلَةَ والدَّرَجَةَ العَالِيَةَ الرَّفيعَةَ ، والمقَامَ المحْمُودَ الذَّي وَعَدتَّهُ واجْزِه اللَّهُمَّ عَنَّا أَفضَلَ مَا جَازَيتَ نَبياً عَنْ أُمَّتِه واجْزِهِ عَنَّا مَا هُوَ أَهلُهُ ، وصَلِّ اللَّهُمَّ عَلى إِخوانِه الأَنْبِيَاءِ والمرسَلينَ وعَلى آلِهِمْ وأَصْحَابِهِمْ وسَائرِ الصَّالِحِينَ إِلى أَبدِ الآبِدِينَ ، آمينَ يَا رَبَّ العَالمينَ[1].

أَمَّا بَعْدُ : فَهَذا شَرحٌ لَطِيفٌ ، دَعَتْنِي إِليهِ الحَاجَةُ المُلِحَّةُ والطَّلَبَاتُ المُتكَرِّرَةُ مِنْ أَبناءِ عَصْرِي الذَّينَ اطَّلَعُواْ على أُصُولِ التَّصَوُّفِ [2] ؛ الَّتِي رَسَمَهَا وأَلَّفَهَا سَيِّدي وَوَلِي أَمرِي شَيخُ أَهلِ الطَّرِيقةِ ، والقَائمُ على قَدَمِ الشَّرِيعةِ والحقِيقةِ ، نُقْطَةُ بِيكَارِ[3] أَهلِ

---

(١) أخذ الشيخ حفظه الله تعالى ونفعنا به وبسائر الصالحين؛ هذه المقدمة من مقدمة كتاب " شرح العينية " للإمام العلامة الحبيب أحمد بن زين الحبشي رضيَ اللهُ عنه، وذلك لما حوته هذه المقدمة من براعة الاستهلال ، وحسن الثناء على ذي الجلال ، وسيدنا محمد مولى بلال صَلَّى اللهُ وسلم عليه وعلى سائر الآل ، فهي جزيلة المعنى سهلة العبارة واضحة الإشارة مناسبة للمضمون .

وهذا الاختيار من الشيخ يدل على حسن أدبه وكمال تعلقه بأحبابه من ساداتنا آل باعلوي ، وقد سمعنا منه مدحه لهم وثناءه عليهم تكرارا أحيانا بالنثر وأحيانا بالأشعار . نفعنا الله تعالى بهم أجمعين .

(٢) انظر كتاب " المقاصد النووية " ، المقصد السابع في أصول طريق التزكية ، ص: (١٦٥) .

(٣) نقطة البيكار: هي مركز الدائرة ، أي النقطة التي تدور حولها الدائرة بأبعادٍ متساوية ، والمعنى هنا أنه قطب دائرة أهل العرفان وحوله يدور جميع الأولياء.

العِرْفَانِ ، المعرُوفُ بالبرِّ والإِحسَانِ ، البَحْرُ الدَّفُوقُ[١] ، سَيدِي الشَّيخُ العَارفُ بالله تعالى الإِمَامُ الحافظُ الفقيه محُيِ الدِّينِ أَبو زكريا يحيى بنُ شَرَفِ الدِّينِ النَّوَوِي[٢] رَضِيَ اللهُ تَعَالى عنْه ونَفَعَنَا بِه وبِعُلُومِه ، وأَذاقنَا من صَافي مَشْرَبِه ؛ بِأَن أَشْرَحَ لهُم أُصُولَ التَّصَوُّفِ ، فكَان مِنِّي الإِقدَامُ، عَلى أَن أَشرحَ بِقدرِ مَا وصَلَ إِليهِ نَهْدُ جَوَادِي وفكرِي ، وقَد سَمَّيْتُه: «**التَّطَوُّفَ[٣] فِي أُصُولِ التَّصَوُّفِ**» مُسْتَمِدًا بركةَ الجَبارِ والعَونَ من الله العزِيزِ الغفَّارِ .

وإِن كنتُ لَسْتُ أَهلاً لكنِّي اسْتَغْنِيتُ بالله سُبحانَه عَوناً وفضلاً ، فكلاً يُدْلِي ممَّا تُحقِبُه حَقِيبَتُه ويُفرِغُ ممَّا في حَوصَلتِه وجُعْبَتِه[٤]، ولعلِّي أَنْ أُصِيبَ ، ولابدَّ لِي مِنَ الله مِنْ

---

(١) **الدفوق**: الممتلئ حتى أن الماء يفيض من جوانبه لامتلائه والمعنى هنا أنه بحر مليء بالعلوم والمعارف.

(٢) هو الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن الحُزامي النووي الشافعي الدمشقي المشهور بـ "النووي" شيخ الإسلام وعلم الأولياء، ولد في نوى من قرى حوران بسوريا سنة (٦٣١)هجرية وإليها ينسب ، حفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة ، ثم قدم إلى دمشق في الثامنة عشرة من عمره فأكمل فيها تعليمه وأقام بها زمنا طويلاً ؛ حتى صار إماما بارعا حافظا متفننا ، أتقن علوما شتى وبارك الله تعالى في علمه وتصانيفه لشدة ورعه وزهده وإخلاصه للمولى سبحانه وتعالى، وليَ مشيخة دار الحديث الأشرفية، وله مؤلفات كثيرة مشهورة وعظيمة النفع ؛ منها : المنهاج ، والمجموع ، وشرح مسلم، توفيَ رحمَهُ اللهُ أعزبا لم يتزوج؛ سنة(٦٧٦)هجرية، بنوى ودفن فيها.[طبقات الحفاظ(١/ ٥١٣)، البداية والنهاية(٣/ ٢٩٤)].

(٣) يقال تَطَوَّفَ، وتُطِيِّفَ، وأطَاف، وطَاف به وحوله وعليه طَوْفاً وطِوَافاً ؛ بمعنى دار وحام ، وبمعناه تطوَّف، وفي التنزيل: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[البقرة: ١٥٨]، أي يدور ويسعى بينهما. ويعني المؤلف بهذا العنوان أن هذا الكتاب طاف حول معاني أصول التصوف تطوافًا أحاط بغالب مسائله وأبحاثه.

(٤) **الحوصلة**: في اللغة تطلق على حوصلة الطائر التي يحمل فيها الماء ،وجمعها حواصل.

و**الجعبة**: تطلق على الوعاء الذي يوضع فيه السهام وجمعها جعاب، والمعنى من ذلك كله: أن كلا يدلي مما عنده ومما في حوزته من العلم .

عَطاءٍ ونَصِيبٍ ، مَعَ أَنَّي أَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ أَني غَثٌّ لَا سَمِينٍ ، وذُو فِكْرٍ ثَقِيلٍ بطينٍ ، لكنَّهَا تحرَّكَتْ فيّ الهِمَّةُ القَلْبِيَّةُ ولا شَكَّ أَنَّها سَاعَدَتْنِي الأَقدَارُ الإِلهيةِ لأَضعَ لها شَرحاً يُوضِّحُ مَعانِيَهَا القَائمَةَ على عُقُودِ الجُمَانِ[١]، وسَيُسْفِرُ بِقَدْرِ استطاعتِي وعلى حَسَبِ بِضَاعتِي عن التِّبيَانِ . وقد عَنَّ لِي فيه تَوسِيعُ دائرةِ الغَرَضِ لِلكَلَامِ، وإِيرَادِي ما يَحسُنُ إِيرَادُه منْ كلِّ مَا يُنَاسِبُ المقَامَ، ولَيسَ لِي إِلَّا الإِغْتِرَافُ، مِنْ بِحَارِ السَّادةِ العارفينَ الأَشرَافِ، والارتِشَافُ[٢] منْ مَوارِدِهِم الَّتِي هي غُنْيَةُ الطَّالِبِينَ، والأَخذُ مِنْ رِيَاضِ أَسفارِهِم الَّتِي يَجْتَنِي ثِمَارَهَا كُلُّ لَبِيبٍ، ويَقْتَنِي دُرَرَ أَسْلَاكِهَا كُلُّ مُنِيبٍ، ولِلعَبدِ مِنْ كَأْسِ الكِرامِ نَصيبٌ، **فَمَن تَشَبَّه بِقَومٍ فهُوَ منْهُم**[٣]، ومَنْ أَحَبَّ قَوماً انْدَرَجَ فِي صِفَتِهِم.

ولله دَرُّ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ[٤] رَضِيَ اللهُ عنه إِذْ يَقُولُ: [من الوافر]

---

(١) الجمان: حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .

(٢) الإرتشاف: استِقْصاء الشُّرب حتَّى لا يَدَع في الإِناء شيئاً، والرَّشْفُ كذلك يقال: رَشَفَ الإِنَاءَ رَشْفاً: اسْتَقْصَى الشُّرْبَ واسْتَفَّ ما في الإِنَاءِ حتى لم يَدَعْ فيه شَيْئاً، ويطلق على الماء القليل الذي يَبْقَى في الحَوْض.

(٣) هذا جزء من حديث صحيح أخرجه الإمام أبو داود في السنن [٢/ ٤٤١] برقم (٤٠٣١) .

(٤) هو الإمام المجدد الفقيه المجتهد صاحب المذهب أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان الشافعيّ القرشي المطّلبي المكّي يلتقي نسبه مع النبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم في عبد مناف ، وهو أبرز أئمّة أهل السنة والجماعة عبر التاريخ، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلاميّ ، مؤسّس علم أصول الفقه، وهو مجدد الإسلام في القرن الثاني الهجري، ولد سنة (١٥٠)هـ بغزة ، مات أبوه وهو ابن سنتين فحملته أمه إلى مكة، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، وأقبل على الرمي حتى فاق فيه الأقران ، ثم أقبل على العربية والشرع فبرع في ذلك وتقدم، ثم حُبب إليه الفقه ، فحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة ، كان آية في قوة الحفظ والذكاء ، فقد حفظ الموطأ في تسع ليالٍ، رحل إلى المدينة المنورة وإلى اليمن وإلى بغداد وفيها صنف المذهب القديم، ثم رحل إلى مصروفيها صنف المذهب جديد، دون العلم وصنف في فروع الفقه وأصوله، وكان فصيح اللسان بليغاً، حجّة في لغة العرب، اشتغل بالعربية عشرين سنة مع بلاغته وفصاحته، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: "ما مس أحد قلماً ولا محبرة إلا وللشافعي في عنقه منّة"، توفّي رحمَهُ اللهُ تعالى بمصر، سنة (٢٠٤)هـ . [سير أعلام النبلاء، (٥/ ١٠)].

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُم لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةْ
وَأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ الْمَعَاصِي وَإِنْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَةْ (١)

ولم أُثْبِتْ بحمدِ الله تعَالى في هَذا الشَّرحِ إلا ما كَان في كُتُبِ الشَّرعِ مُحَرَّرَا ، وعِنْدَ أَهْلِ الحَقِّ مَقبُولًا مُقَرَّرَا ، رَاجيَاً منَ الله تعالى أَن يُورِدَنِي من مَوَارِدِ الصَّفاء وِرْدًا هَنِيَاً ، ويَجعَلَنِي ممّنْ سَلَكَ في ابتغاءِ مَرْضَاتِه صِرَاطًا سَوياً ، وإِني سَائلٌ ممن ذَكَتْ فِطْنَتُهُ(٢) وفَهِمَ المُرَادَ ، أَن يُبادِرَ إِلى إِصلاحِ ما عَسَى أَن يَجِدَه من الفَسَادِ ، وأَن يَغُضَّ الطَّرْفَ عمَّا يَلْقَاهُ منَ القُصُورِ فإِنَّ الإِنْسَانَ محلُّ الخَطَأِ ومحلُّ النِّسيَانِ . وقَدْ قِيْلَ شِعْرًا : [من الطويل]

وَ مَنْ ذَا الذِي تُرْضِي سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى المَرْءَ نَبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُه(٣)

وقَال آخَرُ : [من الكامل]

وَمِنَ المُحَالِ بِأَنْ تَرَى أَحَدًا حَوَى كُنْهَ الكَمَالِ وَذَا هُوَ المُتَعَذِّرُ(٤)

---

(١) البيتان في ديوان الإمام، (ص:٢٧٦). وقد رد عليه تلميذه الإمام أحمد بن حنبل فقال : [من الوافر]

تُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمُ يَنَالُوا بِكَ الشَّفَاعَة
وَتَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ الْمَعَاصِي حَمَاكَ الله مِنْ تِلْكَ الْبِضَاعَة

(٢) **الفطن:** الداخل في الأمر بحسن الحيلة، ومن له عقل ونظر ثاقب ودراية كاملة في الأمور والعواقب.

(٣) هذا البيت لعلي بن الجهم ، وهو في ديوانه ص: [١١٨] . وينسب أيضًا لبشار بن برد العقيلي ، كما في ديوانه :[١/ ٣٢٦] وقبلها يقول: [من الطويل]

إذا كنتَ في كُلِّ الأُمُورِ مُعاتِباً صَدِيقَكَ، لم تَلْقَ الذي لا تُعاتِبُهْ
فعِشْ واحِداً، أو صِلْ أخاك، فإنَّهُ مُقارِفُ ذَنْبٍ تارَةً ومُجانِبُهْ
إذا أنتَ لمْ تَشْرَبْ مِرَاراً على القَذَى ظَمِئْتَ وأَيُّ النَّاسِ تصفو مشَارِبه

(٤) هذا البيت لأحمد بن المأمون الحسني وهي في ديوانه، ص :(٣٠) من مقطع يقول فيه : [من الكامل]

يا ناظراً فيما عمدت لجمعه اعذرْ فإن أخا البصيرة يعذرُ
واعلم بأنّ المرءَ لو بلغ المدى في العمر لاقى الموت وهو مقصرُ
فإذا ظفرت بزلة فافتح لها باب التّجاوز فالتّجاوز أجْدرُ
فالنّقصُ في كنه الطبيعة كامِنٌ فبنو الطبيعة نقصهم لا ينكرُ

ومن الله تعالى أَسْتَمِدُّ العَوْنَ والتَّوفِيقَ ، والهدايةَ إلى أَقْوَمِ طَرِيقٍ ، وأَن يَمُنَّ عليَّ بحُسْنِ الختَامِ ، والفَوزِ بِشُهُودِه في دَارِ السَّلامِ ، إِنَّه ذُو الفَضْلِ والإِنْعَامِ .

❁ ❁ ❁

الكَلَامُ عَلَى البَسْمَلَةِ

فَلنفتَتِحُ التَّأْليفَ بالكلامِ فيما يَتعلقُ بالبسملةِ الشَّريفَةِ ، إِذِ الوَاجِبُ البَدْءُ بهَا اقْتِدَاءً بالقرآنِ العَظِيمِ في افْتِتَاحه بهَا ، كسَائرِ الكُتبِ المنَزَّلةِ ، بما يَدُلُّ عليه قولُه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَاتِحَةُ كلِّ كِتَابٍ»[(١)]. قال الحافظُ السُّيوطِي[(٢)] رحمهُ اللهُ تعالى نقلًا عن العَلَّامةِ أَبي بكرٍ التُّونِسِيِّ[(٣)]: أَجْمَعَ عُلماءُ

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في كتابه [الجامع لأخلاق الراوي والسامع (١/ ٥٤٩)]عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أخرجاه بلفظ« بسمِ الله الرَّحمن الرَّحيم مفتاحُ كلِّ كتابٍ » ، وعزاه السيوطي أيضاً إلى الحافظ البغدادي ، وقال أنه معضل ، وهو ضعيف لانقطاع سنده .

(٢) هو الإمام الحافظ، الفقيه المحدث جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري، المعروف بجلال الدين السيوطي، من كبار علماء المسلمين ، إمام حافظ ، مؤرخ وأديب ، ولد سنة (٨٤٩) هـ بأسيوط من صعيد مصر حمله أبوه إلى مجلس الحافظ ابن حجر وعمره ثلاث سنوات وتوفي والده وله من العمر ست سنوات، فنشأ يتيمًا، حفظ القرآن وهو دون الثامنة، ثم أقبل على دراسة الفنون ، وكان آية في الحفظ والذكاء وسرعة التأليف والتصنيف ، يحفظ مائتي ألف حديث كما روى ذلك عن نفسه ، وأَلَّفَ وهو في سن السابعة عشرة ، وبلغت مصنفاته (١١٩٤) مصنفا – على حسب ما حققه بعض من ترجم له من المعاصرين– ؛ ما بين كتاب ورسالة ، وهذا يعدمن شواهد القدرة ، ومن كراماته المعدودة ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى في القاهرة سنة (٩١١ هـ) [شذرات الذهب(٨/ ٥١)، الكواكب السائرة (١/ ٢٢٦)].

(٣) هو الإمام العلامة أبو بكر بن محمد بن قاسم التونسي الدمشقي الشافعي ، شيخ القراء والنحاة ، ولد بتونس سنة (٦٥٦) هـ ، سافر مع أبيه إلى مصر ، قرأ على الإمام حسين بن عبدالله الراشدي ثم قدم دمشق فحضر عند الزواوي بالمشيخة الكبرى ، أقرأ عند قبر زكريا بالجامع ، ثم وليَ مشيخة التربة الأشرفية جامع التوبة والمشيخة الكبرى، توفي رحمَهُ اللهُ شهيداً بعلة البطن سنة (٧١٨) هـ.[غاية النهاية ١/ ١٨٤].

الأَمةِ على أَنَّ الله تَعالى افتَتَحَ كُلَّ كتَابٍ ببِسْمِ الله الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ، وأَنْزَلَهَا عَـلى آدَمَ عِـلى نَبِيِّنَا وعَلَيهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ(١).

ولذلكَ اسْتَدَلَّ بَعْضُـهُم عَـلى أَنَّهَـا لَيسَـتْ مِـن خُصُوصِـيَّاتِ هَـذهِ الأَمَّـةِ ، ودَلِيلُـه أَيضاً ما وَرَدَ في سُورَةِ النَّمْلِ من قَولِه تَعَالى - حِكَايةً عَن سُلَيمَانَ عَلى نَبِيِّنَا وعَلَيهِ أَفْضَـلُ الصَّلاةِ والسَّـلامِ في كتابـه الـذي أَرسـله إلى بلقـيس- حَيـثُ قـالَ اللهُ سُـبْحَانَه وتعـالى : ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠] ، والمختصُّ بهذه الأَمَّـةِ إنـما هُـو اللّفظُّ العَرَبيُّ على هذا التَّرتِيبِ، وعَلى هَذا يُحمَـلُ قَـولُ مَـنْ قـالَ إِنَّهَـا مِـن خُصُوصِـيَّاتِ هَذهِ الأَمَّةِ . والابتِدَاءُ أيضاً عَمَلاً بِقَولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَـحْبِه وسَـلَّم: «كـلُّ أمـرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدأُ فيه ببِسْمِ الله الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ فَهـو أَبْـتَرٌ » (٢)، وفي روايـةٍ «فَهـو أَجْـذَمٌ» ،

---

(١) انظر كتاب روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني [١/ ٤١] ، للإمام الآلوسي رحمَهُ اللهُ تعالى.

(٢) أخرجه الحافظ عبدالقادر الرَّهاوي في كتابه [الأربعين، ص:٢٩] ، وأخرجه الخطيب البغدادي في كتابه الجامع [٢/ ٦٩] ، حديث رقم:(١٢٠٩)، وذكره التاج السبكي في [طبقات الشافعية الكبرى، (١/ ١٢)] من عدة طرق وسنده واهٍ ، وذكر الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري (٨/ ٢٢٠) أنه من قسم الواهي، وقد حكم بضعفه جماعة من الحفاظ منهم الحافظ السيوطي كما في كتابه الجامع الصغير (٥/ ١٣). وقد بالغ الحافظ أحمد بن الصديق الغماري حيث حكم بوضعه وصنف بخصوص هذا الحديث رسالتين : الأولى : " الصواعق المنزلة على من صحح حديث البسملة " والثانية :" الاستعاذة والحسبلة ممن صحح حديث البسملة "جزم فيها أنه موضوع وأنه غير موجود في كتب السنن!، ومن الحفاظ من حكم بشذوذه وذلك لمخالفة لفظه لفظَ ثمانية عشر حافظا كلهم يرونه بلفظ : «كل أمر ذي بالٍ لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» ، وفي رواية «فهو أكتع »، وفي رواية «فهو أجذم » ، وفي رواية « فهو أبتر » فيكون هذا هو المحفوظ ،وهذا هو الذي رواه أحمد والطبراني والنسائي والبيهقي وغيرهم ، وحسنه الحافظ السيوطي وابن الصلاح وغيرهما. وقد تلّخصَ مما تقدم ذكره أن الأفضل أن نقول : أن الإبتداء بالبسملة تأسياً بالكتاب العزيز لما في الصحيحين من حديث جابرٍ رضيَ اللهُ عنه مرفوعاً «ابدَأواْ بما بَدَأ الله بهِ» رواه البخاري (١٥١٥) ، ومسلم (١٢١٨)، واقتداء بالنبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم في رسائله وكتبه للملوك ، فيكون هذا أعظمَ دليلٍ من حديث البسملة وأقوى أيضا من حديث الحمدلة ، مع العلم أن هذا الحديث لم يستشهد به الشيخ وحده ؛ بل قد جرى الاستشهاد به من كثير من الفقهاء والمحدثين، والله تعالى أعلم .

وفي روايةٍ « فَهو أَقْطَعٌ»، وفي روايةٍ «فَهو أَكْتَعٌ» ، وأَهلُ الكَلامِ على الرِّوَايَاتِ كلِّها ، مبنيٌ على التَّشْبِيهِ البَلِيغِ ، وهو ما حُذِفَ منه أَداةُ التَّشْبِيهِ وَوَجْهُ الشَّبَهِ.

والمعنى في ذلك : (فهو كالأَبْتَرِ) أَي الذي هو مَقْطُوعُ الذَّنَبِ أَو (كالأَجْذَمِ) أَي الذي ذَهَبَتْ أَنَامِلُه مِنَ الجُذَامِ[1]-أَعَاذَنَا الله تعالى والمسلمينَ مِنه-أَو(كَالأَقْطَعِ) وهو مَقْطُوعُ اليَدِ ، وعلى كُلٍ فَوَجْهُ الشَّبَهِ مُطلقُ النَّقْصِ ، وإِنْ كَان في المُشَّبهِ بهِ حِسِّيَّاً وفي المُشَبَّه مَعْنَوِيَّاً ، ومِنْ بَابِ الاسْتِعَارَةِ الصَّرِيحةِ على خِلافٍ بين الجُمهُورِ .

وقال سَعْدٌ[2] فِي نَحوِ زَيدٌ أَسَدٌ ؛ حَيثُ قَالَ الجُمْهُورُ : يَجِبُ أَنْ يَكونَ مِن بَابِ التَّشْبِيهِ البَلِيغِ ، ولَا يَجوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ الاسْتِعَارةِ لأَنَّه يجُمعُ فيها بين طَرَفَي التَّشْبِيهِ أَعْنِي المُشَبَّهَ والمشَبَّهَ بِهِ ، وجُوِّزَ لِسَعْدٍ ذلكَ ، ومَنعَ لُزُومَ الجَمعِ بينَ الطَّرَفَينِ ، بِجَعلِ المَشَبَّهِ الرَّجُلَ الشُّجَاعَ ، وهو غَيرُ مَذكُورٍ في التَّرتِيبِ ، والمذكُورُ إِنَّما هُوَ فَردٌ من أَفرَادِهِ وهو زيدٌ ، واعْتُرِضَ بِأَنَّ بينَ الخَبَرينِ تَعَارُضٌ فكيفَ يمكنُ العملُ بهما ؟.

وأُجِيبَ بأَجْوِبَةٍ.. **أَشْهَرُهَا**: أَنَّ الابتداءَ نَوعَانِ حقيقيٌ وإضافيٌ :

فالحَقِيقِيُ: هُوَ ا لابتِدَاءُ بِمَا تَقَدَّمَ أَمَامَ المَقْصُودِ ولم يسبقه شيءٌ.

---

(١) الجُذَامُ : هو علة يحمَّر منها العضو ، ثم يسودُّ ثم يتقطع ويتناثر ، ويتصور ذلك في كل عضو من أعضاء الجسم إلا أنه في الوجه أكثر ، وهو يحدث بسب انتشار السوداء في البدن كله ، فيفسد عند ذلك مزاج الأعضاء وربما انتهى إلى تآكل الأعضاء وسقوطها عن تقرُّحٍ ، أعاذنا اللهُ تعالى والمسلمين منه .

(٢) هو الإمام العلامة سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتزاني ، فريد عصره ووحيد دهره ، صاحب التصانيف الكثيرة والتآليف المشهورة ، ولد سنة (٧١٢) هـ ، بتفتزان من بلاد خرسان ، أخذ العلم عن أكابر عصره حتى انتهت إليه علوم البلاغة والمعقول بالمشرق وسائر الأمصار ولم يكن له في معرفتها نظير ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٧٩٢)هـ .[الدرر الكامنة (٤/ ٢١٤) ، البدر الطالع(٢/ ٣٠٣)].

والإِضَافِيُّ: هُوَ الابتِدَاءُ بِمَا تَقَدَّمَ أَمَامَ المقْصُودِ وإنْ سَبَقَه شَيءٌ، فَفِيهِمَا العُمُومُ والخُصُوصُ المُطْلَقُ فَحُمِلَ خبرُ البَسْمَلَةِ على النَّوعِ الأَوَّلِ وخَبرُ الحَمْدَلَةِ على النَّوعِ الثَّاني.

ومنها: أنَّ ا لابتِدَاءَ أَمرٌ مُمْتَدٌّ من الأَخذِ في التأْليفِ إِلى الشُّروعِ في المقصُودِ وكُلَّما تَقَدَّمَ منَ البَسْمَلَةِ والحَمْدَلَةِ والصَّلاةِ والسَّلامِ عَلى رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم قبلَ الشّروعِ في المقصُودِ يَصْدُقُ عليه الابتدَاءُ وإن تقدَّم بعضه عَلى بَعْضٍ .

❁ ❁ ❁

سَبَبُ الإِبْتِدَاءِ بالبَسْمَلةِ

الافتِتَاحُ بالبَسْمَلةِ هُو لِلتَّأَسِّي بِكِتَابِ الله تَعالى وكَما أَورَدْنَا الحديثَ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبارَكَ عَليهِ وَآلِه وَصَحْبِه: «كلُّ أَمرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فيه بِبسمِ اللَّهِ فهو أَبترٌ وأَقطعٌ» ورُوِيَ «بالحمدُ لِلَّهِ»، والمعنى أَنه ناقصٌ قليلُ البركةِ ، ورُوِيَ أَجْذَم- بالجيم والذال المعجَمَة- ومعنى « ذِي بالٍ» أي حالٍ يُهتَمُّ به شَرعاً .

وتُسمى تسْمِيَةٌ وبَسْمَلَةٌ كما يُقالُ **سَبْحَلَةٌ** في سبحانَ اللَّهِ ، و**حَمْدَلَةٌ** في الحمد لِلَّهِ ، و**هَيْلَلَةٌ** في لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، و**حَوقَلَةٌ** في لا حولَ ولا قوة إلا باللَّهِ ، و**حَيْعَلَةٌ** في حيّ على الصلاة ، وفي حي على الفلاح ، و**جَعْفَلَةٌ** في جعلني اللهُ فداءك ، و**دَمْعَزَةٌ** في أدامَ اللهُ عزك ، و**طَلْبَقَةٌ** في أطال اللهُ بقاءك ، و**حَسْبَلَةٌ** في حَسبيَ اللهُ ونِعمَ الوكيل[1].

واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) انظر كتاب : فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبي ص: (١٥٨) .

والبسملة فاتحة القرآن العظيم بل هي فاتحة كلِّ كتابٍ ، وأَبركُ ما يُبدأُ به في كلِّ أَمرٍ وفي كلِّ خطابٍ، وفي الخبرِ أَنهُ «لا يُردُّ دعاءٌ أَوَّلُه بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» [١] وهي آية في الفاتحة على خِلافٍ في ذَلكَ.

❁ ❁ ❁

الخِلَافُ فِي البَسْمَلَةِ

اختُلِفَ في البَسْمَلَةِ هَلْ هيَ آيةٌ من غيرِها سوى سورةِ براءةَ أَمْ لَا ؟، ففيه خلافٌ للعلماءِ[٢]، وهو وجهان لأصحابنا[٣] أَصَحُّهَا عند الأكثرين نعم ، لِأنه رُوِيَ أَنه صَلَّى

---

(١) ذكره ابن عجيبة في [تفسير الفاتحة الكبير ، ص:١٦٤]. ولم أجد تخريجه فيما بين يدي من المصادر .

(٢) الاختلاف في البسملة من أمهات المسائل حتى أفرده جمع بالتصنيف كالإمام ابن خزيمة ،والخطيب ، وغيرهم وكل خلافهم في غير البسملة التي في سورة النمل إذ هي فيها آية بالاتفاق والتواتر .

وحاصل الخلاف في البسملة عند جميع العلماء يرجع إلى عشرة أقوال : **الأول** : أنها ليست آية من السور أصلا. **الثاني** : أنها آية من جميع السور غير سورة براءة. **الثالث** : أنها آية من الفاتحة دون غيرها . **الرابع** : أنها بعض آية منها فقط . **الخامس** : أنها آية فذة أنزلت لبيان رؤوس السور تيمناً وللفصل بينها. **السادس** : أنه يجوز جعلها آية منها وغير آية لتكرر نزولها بالوصفين. **السابع**: أنها بعض آية من جميع السور. **الثامن**: أنها آية من الفاتحة وجزء آية من السور . **التاسع** : أنها جزء آية من الفاتحة وآية من جميع السور . **العاشر** : أنها آية فذة وإن أنزلت مراراً .[روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، للإمام الألوسي (١/ ٤١)].

(٣) قال الإمام النووي في المجموع [٤/ ٤٠٦]: مذهبنا أن البسملة آية كاملة من أول الفاتحة بلا خلاف ، وليست في أول سورة براءة بإجماع المسلمين وفي باقي السور ثلاثة أقوال: **أصحها** وأشهرها: أنها آية كاملة، وهو الأصوب. **الثاني**: أنها بعض آية. **الثالث**: أنها ليست بقرآن في أوائل السور غير الفاتحة، ثم هل هي في الفاتحة وغيرها على سبيل القطع ؛ أم على سبيل الحكم؟ فيه وجهان لأصحابنا ، والصحيح أنها على سبيل الحكم لا على سبيل القطع ، إذ لو كانت على سبيل القطع لَكفر من ينفيها والإجماع على أنه لا يكفر من أثبتها ولا من نفاها لاختلاف العلماء فيها .اهـ .

اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم عَدَّهَا آيةً ، وأَنه كان يُعْرَفُ بها فَصْلُ ما بين السُّورَتَين ، فمن قرأَها في كلِّ سورةٍ استبرأَ من الخلافِ ومن تركها فقد تَرَكَ مائةً وأَربعةَ عشرَ آيةً من بعضِ القرآنِ الكَريمِ عندَ الأَكثرينَ، ورُوِيَ عن ابن عباسٍ[١] رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما: " أَنَّ مَنْ تَرَكَهَا ؛ فَقَدْ تَرَكَ مائةً وأَربعةَ عَشَرَ آيةً مِنَ القرآنِ "[٢] ، واستدلواْ أَيضاً بِأَنها كُتِبَتْ في المصحفِ في أَوائل السُّور سوى سورةِ براءَةَ ، فلولا أَنَّها آيةٌ لما كُتِبَتْ في المصحف[٣] . ولمَّا شَرعَ الله تعالى قرَاءتَها لِنوحٍ عليه السلام ؛ لِتَسْلَمَ سَفِينَتُه ومن فيها من الطُّوفانِ، فَهِمَ أَهلُ الإِشاراتِ أَنَّ ما طَافَ في القُلوبِ من حُبِّ الدُّنيا هو كالطُّوفانِ يُخْشَى منه الغَرَقُ بالشكوكِ والأَوهامِ، فلما فهمواْ ذلك صنعواْ لها سفنًا من الفكرِ،

---

(١) هو سيدنا أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، القرشي الهاشمي، ابن عم النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم، إمام التفسير، حبر الأمة وترجمان القرآن، وفقيه العصر، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، كان آية في التفسير ببركة دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم له بقوله: «اللّهُمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التأويل»، روى (١٦٦٠)حديثا، وكان رضيَ اللهُ تعالى عنه يقول: سلوني عن التفسير فإن ربي وهب لي لسانا سؤولا وقلبا عقولا، توفي رضيَ اللهُ عنه بالطائف سنة (٦٨)هـ [أعلام النبلاء ٣/ ٣٣١].

(٢) انظر تفسير الإمام أبي السعود (١/ ٩) ، وتفسير الإمام النسفي (١/ ٤) ، وتفسير الإمام النيسابوري (١/ ٢٩) ، وتفسير الفاتحة الكبير للإمام ابن عجيبة ، صفحة :(١٥٨) .

(٣) واستدل من أثبتها آيةً من كلِّ سورة سوى برآءة بعدَّة أدلةٍ ، منها ما رواه مسلم برقم [٤٠٠] عن أنس رضيَ اللهُ عنه قال بينما رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا، إذ غفا إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً ، فقلنا له ما أضحكك يا نبيَّ الله ؟ فقال : أنزلت عليَّ سورة ؛ فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، ولإجماع الصحابة على إثباتها في المصحف بخط المصحف في أوائل السور سوى براءة ولم يثبتواْ الأعشار ولا تراجم السور ولا التعوُّذ ، فلو لم تكن البسملة آيةً من كلِّ سورة لما أجازواْ ذلك لأنه يحمل على اعتقاد ما ليس بقرآنٍ أَنَّه قرآن ، وردواْ على من قال أنها إنما كتبت للفصل ، بأنه يلزم من قوله هذا أن تكتب أول سورة براءة ، ولا تكتب أول سورة الفاتحة لأنه لا سورة قبلها والواقع خلاف ذلك!، وردواْ على من قال أنها ليست متواترة ، أن التواتر إنما يشترط فيما أثبت قرآناً قطعاً لا حكماً ، أما من حيث إثباتها آية في الفاتحة فقد أورد الإمام الفخر الرازي رحمَهُ اللهُ ست عشرة حجة أنها آية من الفاتحة يطول ذكرها فلتراجع في التفسير الكبير (١/ ١٧٣)للفائدة .

وشَرَعُواْ لها شِرَاعاً من الذِّكرِ، وأَقْلَعُواْ بها في بحَارِ العِلمِ والفَهمِ، فَحَطُّواْ في سَواحلِ القُربَةِ بعد أَنْ قطعواْ اللُّجةَ الرَّهيبةَ والفَلَوَاتِ البعيدة، فدنا منهم المدارُ واستقرَّ بهم القرارُ، فإذا كان نوحٌ عليه السَّلام حَصَلَ له النجاةُ من الطُّوفانِ بنصفِ هذه الآية الكريمة فكيف لا يَنْجُو من طوفانِ الدُّنيا من واظَبَ عليها!، وإنما لم يذكرْ نوحٌ عليه السلام كلمتي: "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" لأَنه فَهِمَ أَنَّه الهَلَاكُ، ولِلأَنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ آدابٌ يُلْهَمُونَها من رَبِّهم، ولِأَنَّ الحالَ حينئذٍ يقتضي الغضبَ، والعقوبة تقتضي الهلاكَ والعياذُ بالله تعالى.

❁ ❁ ❁

عَدَمِ كِتَابَةِ البَسْمَلَةِ فِي بَرَاءَة

لم تُكْتَبِ البسْملةُ في سُورةِ بَراءة لاشتمالها على القتَالِ ونَبْذِ عُهودِ المشركينَ وفضائحِ المنافقينَ ونبيُّ الله سليمانَ على نبينا وعليه أَفضلُ الصلاة والسلام أُمِرَ أَنْ يَكْتُبَ لِبلقيسَ فكتبَ «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، وكذلك المؤمن يُجْعَلُ له ببركتها خيرٌ كثيرٌ في الدنيا والآخرةِ، وسَمَّتْ بلقيسُ كتابَ سليمانَ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾[النمل: ٢٩] ، لِأَنَّ في أَولِهِ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، فكيفَ لا يَكونُ المؤْمنُ كريماً وهو يقولها في كلِّ يومٍ مراتٍ ومراتٍ حتى أَنَّه قد يقولُها في يومه أَلفَ مرةٍ وأَكثرَ! فإن أَخلصَ بها لا شَكَ أَنه كريمٌ، ولذلك جَرَتِ العَادةُ بكتابتها في المساجد وعلى أَبوابِ الغُرَفِ تبركاً بها ورجاءَ السَّلامةِ من الآفاتِ.

وَرُوِيَ أَنَّ فرعونَ كتبها على بابِ دَارِه فكان ذلك سبباً لِتَأَخر العقوبة عنه(١)، وقال بعضهم:" من قرأ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سبعمائة وسبعة وثمانون مرة – أي

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي (١/ ١٥٢) .

كعددها بالجُمَّلِ[١] - ثم صلى على النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم مائةً واثنينِ وثلاثينَ مرةً فإنَّهُ لا يَسألُ الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إيَّاه، وإن واظب على ذلك كان مُجابَ الدَّعوةِ، ومن ذكرها رُزِقَ الهيبة في العالم العُلْويّ والسُفْليّ"[٢]. اهـ.

أوّل نزُول البَسْمَلة

وأَوَّلُ ما نَزَلَت على سيدِنا آدمَ على نبينا وعليه الصّلاة والّسلام، ثُمَّ رُفِعَتْ بَعْدَه وأُنْزِلَتْ عَلى سَيِّدِنَا نوحٍ على نبينا وعليه الصّلاة والسّلام وأُمِرَ بقراءة شَطْرِهَا عند ركوب السفينة فبها جَرَتْ وَرَسَتْ وسَلِمَتْ وأهلها من الغَرَقِ، ثُمَّ رُفِعَتْ وأُنْزِلَتْ عَلى سَيّدنَا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقرأها وهو في كفة المَنْجَنِيقِ[٣]، فجعل

---

(١) وحساب البسملة بالجُمَّلِ على التفصيل هكذا :

ب	س	م	ا	ل	ل	ه	ا	ل	ر	ح	م	ا	ن	ا	ل	ر	ح	ي	م
٢	٦٠	٤٠	١	٣٠	٣٠	٥	١	٣٠	٢٠٠	٨	٤٠	١	٥٠	١	٣٠	٢٠٠	٨	١٠	٤٠

وعلى الإجمال هكذا : بِسْمِ + الله + الرَّحْمَنِ + الرَّحِيمِ ١٠٢ + ٦٦ + ٣٣٠ + ٢٨٩ = ٧٨٧

(٢) ذكر الإمام ابن عجيبة رحمَهُ اللهُ في تفسير الفاتحة الكبير ص: (١٦٦) حكاية عن الشيخ أبي بكر السراج أنه اجتمع ببعض الصالحين وحصلت له منهم إشارة أن يكتب بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم (٦٢٥) مرة ، ثم يحمل ذلك معه فإن الله تعالى يكسوه هيبة وجلالة ولا يقدر أحد أن يناله بسوء ، قال : وقد جُرِّبَ ذلك فَصَحَّ والله أعلم . اهـ . وقد سمعت من الشيخ المصنف نفعنا الله تعالى به يقول مرة : بأن الديون كثرت عليه عند شَقِّ الطَّريق، وأخذ الناس يطالبونه بها فاعتراه بسبب ذلك هَمٌّ عظيم، قال: فجلست بِفِنَاءِ المسجد وكررت البسملة مع لا حول ولا قوة إلا بالله (٧٨٧) مرة ، فلم يمضِ إلا وقت يسير حتى جاء من المال ما قضيت به الدين وزاد على ذلك.

(٣) المنجنيق : آلة قديمة من آلات الحرب والحصار توضع عليها أحجار ثقيلة ثم يرمى به على الأسوار والمنازل فتهدمها ، ذكر المفسرون أن أول من صنعها هو النمرود بإشارةٍ وأمرٍ من إبليس لأنهم عجزوا عن قذف إبراهيم عليه السلام في النار لأنها كانت تحرق كل من اقترب منها لقوتها وشدة حرارتها .

الله تعالى عليه النَّارَ برداً وسلاماً، ثُـمَّ رُفِعَـتْ بَعْـدَه وأُنْزِلَـتْ عَـلى سَـيِّدِنَا موسى عليـه السلام فبها قَهَرَ فرعُونَ وهَامَانَ وقـارُونَ، ثُـمَّ رُفِعَـتْ بَعْـدَه وأُنْزِلَـتْ عَـلى سَـيِّدِنَا سليمان عليه السلام فلم يقرأها على شيء إلا خضع له وبها قهرَ ملوك الأرض.

ثُمَّ رُفِعَتْ بَعْدَه وأُنْزِلَتْ عَلى سَيِّدِنَا عيسى عليه السلام فأوحى الله تعالى إليه: يَا ابنَ العَذْرَاءِ قد أَنزَلتُ عَليكَ آيةَ الأَمَانِ فأَكثر من قِرَاءتِها، ثُمَّ رُفِعَتْ بَعْدَه من صُدورِ من بَدَّلَ دينَه من النَّصَارى وبقيت في صُدُورِ من ثَبَتَ على الإِيمانِ ، كبَحِيرَا الرَّاهبِ وأَمثَالِه، حتَّى بعثَ الله تعالى نبينَا محمداً صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم فأَنزَلها عليه مع سُورَةِ الفَاتحةِ في مكةَ، وأَمرَ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بقرَاءتِها في أَوائلِ السُّورِ، وبكَتْبِها في صُدورِ الصُّحفِ والرَّسَائلِ.

وبها فتحَ اللهُ تعَالى مَكَّةَ لسيدِنا محمدٍ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، وقَرأَها يَومئذٍ بِمَدِّ صَوته أَيْ «بِسْمِ الله- وَيَمُدُّ-الرَّحْمَنِ-وَيَمُدُّ-الرَّحِيمِ» كما رَواه الشيخان(١)، وقِيلَ: أَنها أُنزِلتْ مرةً أُخرى بالمدينةِ وكَان نُزولها فَتحاً عَظيماً.

❁ ❁ ❁

(١) أَخرجَ البخاريُ في صحيحهِ [٦/ ١٩٥]برقم (٥٠٤٦) عَنْ قَتَادَةَ قَالَ سُئِلَ أَنَسٌ رضيَ اللهُ عَنْهُ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم فَقَالَ كَانَتْ مَدًّا ثُمَّ قَرَأَ «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» يَمُدُّ بِبِسْمِ الله وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ، وأخرجه بنفس اللفظ الحاكم في المستدرك (٨٥٢) والبيهقي في سننه (٢٣٩٢)، وابن حبان في صحيحه (٦٣١٧). أما ما قرأه النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم يَوم فتحِ مكةَ فقد أَخرجَ البخاريُ عن عَبْدَ الله بْنَ مُغَفَّلٍ يَقُولُ رَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَى نَاقَتِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ يُرَجِّعُ وَقَالَ لَوْلَا أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ حَوْلِي لَرَجَّعْتُ كَمَا رَجَّعَ .

حِكْمَةُ البَدْءِ بالبَسْمَلَة

منَ الحِكَمِ في ابتداءِ الأَعمالِ بها هو الإِعانَةُ على إِتمَامِهَا ووقوعِهَا على الوجهِ المطلوبِ وحصولِ البركةِ في ذلك العَمَلِ .

ومنَ الحِكْمةِ في ذلك أَيضاً أَنَّ البسملةَ تكونُ عَلامةً على أَنَّ العَملَ لله تعالى وإِلى الله سبحانَه حتَّى لا يطمَع فيه العَدُو، فهيَ كالنِّيَةِ للعَملِ، وفيه تنبيهٌ على أَنَّ مدارَ أَمْنِ العبادِ على سِرِّ الأُلُوهِيَّةِ والرحْمَانِيَّةِ والرَّحِيمِيَّةِ .

❁ ❁ ❁

بَرَكَاتُ البَسْمَلَة

من بركاتِ بسمِ الله: **الإيجاد** ، ومن بَرَكاتِ الرَّحمنِ: **التَّعلِيم** ، قالَ اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١-٢] . ومِن بركاتِ الرَّحيم : **القَبُولُ** و**العَطْفُ** ، فبالعطفِ والقَبولِ عدَّدَ الموجوداتِ وبسرِّ أَسمائِه فَطَرَ الوُجودَ أَجمَعَ على العملِ بطاعتِهِ والتسبيحِ له بالنسبةِ إِلى حالِ كلِّ شخصٍ ومقامِه، وبِسِرِّ البَسملةِ قامَ الوجودُ إِيجاداً واختراعاً وترتيباً وإِمداداً وتألهاً، فبِاسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وُجِدَ الخلقُ كلُّه من عَالَمَيْ الخلقِ والأَمرِ، فعالمُ الخلقِ هو عالمُ المُلْكِ والشَّهَادَةِ ، والمُلْكُ كلُّ موجودٍ ، كما قاله الزَّمَخْشَرِيُّ[1] . وعَالمُ الأَمرِ هوَ عَالمُ الغَيبِ ، وعَالمُ الملَكُوتِ أَعْظَمُ من

---

(١) هو الإمام العلامة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري المعتزلي ، إمام كبير في التفسير واللغة وعلم البيان ولد سنة (٤٦٧) هـ بقرية زَمَخْشَر من قرى خوارزم ، رحل في طلب العلم في بلاد خوارزم حتى سقطت إحدى رجليه من شدة الثلوج التي أصابته في الطريق ، برع في الآداب، وصنف التصانيف، وَرَدَ إلى العراق وخراسان، وما دخل بلدا إلا واجتمعوا عليه، وتتلمذوا له، وكان علامة نسابة ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى في خوارزم سنة ٥٣٨ هـ . [أعلام النبلاء(٢٠/ ١٥١)].

عالمِ المُلْكِ ، وتاءُه لِلْمُبَالَغَةِ ، وقيل: المُلْكُ عالمُ الشهادةِ، والمَلَكُوتُ عالمُ الغيبِ، فعالم الأمر هو عالم الموجودات؛ لأنّها وُجِدَتْ بمجرَّدِ الأَمرِ، الذي هو قول "كُنْ"، ومقابله عالمُ الجِسْمِيَّاتِ ، قالهُ الزَّرْكَشِيُّ[1]. وفرّق الغزاليّ[2] بين عالم الأمر وعالم الخلق ، وعالم الخلق إنَّما يقعُ عليه تقديرٌ ومساحةٌ ، وهي الأجسامُ من عالمِ الخلقِ ، والخلقُ هنا بمعنى التقدير لا بمعنى عالم الإيجاد وما لا كيفية له ولا تقدير . اهـ .

❁ ❁ ❁

مَبَادِئُ عِلْمِ التَّصَوفِ

مَوضُوعُنا هُنا أَولاً هو **«عِلمُ التَّصَوُّفِ»**، فَلنَتَعرَّفْ على مبادِئه العَشرةِ ، إِذْ أَنَّ أَيَّ علمٍ يجبُ على الدَّاخلِ فيه معرفةُ مبادئه العَشرَةِ، فعند الشّروع في أي علم يجب الشروع في مبادئه كما قيل : [من الرَّجَز]

إنَّ مَبَادِئ كُلِّ فَنٍّ عَشَرَة ... الحَدُّ والمَوضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَة

وَ فَضْلُه ونِسْبَةٌ والوَاضِعُ ... وَالاسْمُ الاسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارعُ

---

(١) هو الإمام العلامة بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، فقيه ومحدث، عالم بفقه الشافعية والأصول ، ولد في القاهرة سنة (٧٤٥) هـ ، اشتغل بالعلم من صغره حتى برع فيه ، وله تصانيف كثيرة في عدة فنون ، وهو أول من جمع الروضة للبلقيني، وشرح علوم الحديث لابن الصلاح، وجمع الجوامع للسبكي ، وتوفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٧٩٤) هـ . [الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣/ ٢٤١].

(٢) هو الإمام العالم حجة الإسلام ، زين الدين وبركة المسلمين الزاهد الصوفي المجتهد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزّالي الطوسي النيسابوري الشافعي الأشعري ، مجدد القرن الخامس الهجري، أحد أشهر علماء الإسلام ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط ولد سنة (٤٥٠)هـ بمدينة طوس من إقليم خراسان ، تفقه ببلده ثم رحل إلى نيسابور، لازم إمام الحرمين الجويني وأخذ عنه ، مهر في الجدل والفلسفة وبرع في علم الفقه والتصوف ، ولم يكن للشافعية في عصره مثله ، له أكثر من مائتي مصنف في فنون شتى من فنون العلم ومن أشهر مؤلفاته وأبركها على أهل الإسلام كتاب إحياء علوم الدين ، توفي رضيَ اللهُ تعالى عنه سنة (٥٠٥) هـ . [سير أعلام النبلاء(١٩/ ٣٢٢) ، وفيات الأعيان(٤/ ٥٨)].

مَسَـائِلٌ وَالـبَعْضُ بِـالبَعْضِ اكْتَفَـى وَمَـنْ دَرَى الجَمِيـعَ حَـازَ الشَّرَفَـا [١]

الأَوَلُ: حَدّه :- التَّصَوُّفُ : هو علمٌ يَبْحَثُ في تطبيق الكتاب والسنة والوقوف عند حدود الـشّريعَة . قال سيد الطائفة الجنيد[٢] رَضِيَ اللهُ عنه: "التَّصوفُ هو أن يُمِيتكَ الحقُّ عنكَ ويُحييكَ به " [٣] ، وقال سيدي الشيخُ زَروق [٤] رَضِيَ اللهُ عنه : " قد حُدَّ التَّصوفُ ورُسمَ وفُسرَ بوجوهٍ تبلغُ الألفين، ترجعُ كلُّها إلى صدقِ التوجه إلى الله تعالى أقوالاً وأفعالاً "[٥].

فمن له نصيبٌ من صدقِ التوجه كان له نصيبٌ من التصوف، فإنَّ تَصَوفَ كلِّ واحدٍ صدقُ توجهه، فافهم فهو إخلاصُ العبدِ لوجه الله تعالى مع التزامِ الآدابِ الـشَّرعية ظَاهراً وباطناً واتباعِ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم أقوالاً

---

(١) هذه الأبيات للإمام محمد بن علي الصبان ، في حاشيته على شرح الملوي للسلم ، ص: (٣٥) .

(٢) هو الإمام العارف بالله تعالى أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد ، شيخ الطائفة الصوفية ، أحد علماء أهل السنة والجماعة وإمام الدنيا في زمانه ، ولد ببغداد قبل سنة (٢٢٠) هـ ونشأ بها ، صحب جماعة من المشايخ، وأشتهر بصحبة خاله سري السقطي، والحارث المحاسبي، ودرس الفقه على أبي ثور، وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة ، ضبط علم التصوف بالكتاب والسنة ، ومكث أربعين سنة لا يأوي إلى فراش ، وبملازمته للتعبد فتح الله تعالى عليه في علوم كثيرة ، له عدة رسائل ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى ببغداد سنة (٢٩٧) هـ.[البداية والنهاية ٦/ ١٢١] .

(٣) الرسالة القشيرية ، ص : (٣٨).

(٤) هو الإمام الصوفي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد زروق الفاسي المالكي، ولد بمدينة فاس سنة (٨٤٦) هـ ، توفي أبوه ولم يكمل له سبع أيام ، فنشأ يتيماً ؛ تفقه في بلده ثم رحل إلى مصر وإلى المدينة، وقرأ بهما غلب عليه التصوف فتجرد وساح في البلاد له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير وانفرد بجودة التصنيف في علم التصوف، توفي رحمَهُ اللهُ في طرابلس سنة(٨٩٩)هـ.[الأعلام(١/ ٩١)].

(٥) كتاب "قواعد التصوف" للشيخ أحمد زروق، صفحة: (٢).

وأفعالاً وأَخلاقاً وأحوالاً، ولن يَتَحَقَّقَ ذلك للتَّابعِ حتى يَشهدَ المتبوعَ عندَ كلِّ قولٍ وعَملٍ ويُصَفِّيَ القلبَ ويُجَرِّدَه لله تعالى عن جميع المُلْكِيَّةِ والمَلَكُوتِيَّةِ ويُجانبَ الدعاوي النَّفسِيَّةِ ويُطهرَ القلبَ عن حُبِّ الدُّنيا وعنِ الكِبر والعُجْبِ والحِقدِ والغِلِّ والحَسَدِ، وسُوءِ الظنِّ وسُوءِ المُعْتَقَدِ، ويَحفظَ الحواسَ عن الخواطرِ السَّيئَةِ ويُرَاعِيَ الأَنْفَاسَ بذكرِ الله سبحانه وتعالى. ولا يبلغ السالك منازل القُرْبِ حتى يقطع في سيره سِتَّ عقباتٍ:

الأولى: فَطْمُ الجوارحِ عن المخالفاتِ الشَّرعيةِ.

الثّانية: فَطْمُ النَّفسِ عن المألوفاتِ .

الثّالثة: فَطْمُ القلبِ عن الرُّعوناتِ البشريةِ ، الدَّاعية إلى مَعصيةٍ توجبُ الغضبَ عليها من الله سبحانه وتعالى.

الرَّابعة: فَطْمُ السِّرِّ عن الكُدُورَاتِ الطبيعيّةِ ، لأنَّ حديثَ النفس السِّري يُكَدِّرُ صفوَ القربِ من الله تبارك وتعالى .

الخامسة: فَطْمُ الروحِ عن البخارات الحسيَّة ، أي: صُون الروح عن كل ما يغير صفو هَيْكَلِه النَّورَاني المَجْبُولةِ عليه منذُ أَنْ كانت وستبقى حتى يموت ؛ لأنها أحد الثمانية الباقية[1] ببقاء الله جَلَّتْ قُدْرَتُه وعَظُمَتْ مَمْلَكَتُه لا رَبَّ غيره ولا خيرَ إلا خَيرُه.

السّادسة: فَطْمُ العقلِ عن الخَيَالاتِ الوَهْمِيَّةِ، دون الخَيَالاتِ الرَّاقِيَّة به إلى مَرَاقِي الفَلاحِ، فهنالك يغيب بما يشاهده من اللَّطَائفِ الوهْبِيَّةِ عن الكَثَافاتِ الحِسِيَّة، وإذا أراده مولاه بخصُوصِ الإِصْطِفَائِيَّةِ ؛ سَقاه بِكَأسِ المحبةِ شربةً هنيَّةً مريئةً ، ويزدادُ

---

(١) أحد الثمانية الباقية ببقاء الله تعالى ، وهي : العرش ، والكرسي ، والجنة ، والنار ، وعجب الذنب ، والروح، واللوح المحفوظ، والقلم، وقد نظم ذلك الإمام السيوطي في بيتين فقال: [من الطويل]

ثمانيـــة حكـــم البقـــاء يعمهـــا ... مـــن الخلـــق والبـــاقون في حيـــز العـــدم

هـــي العـــرش والكـــرسي نـــار وجنـــة ... وعجـــب وأرواح كـــذا اللـــوح والقلـــم

بتلكَ الشَّرْبَةِ ظمأً وبالشَّوقِ ذوقاً ، وبالقربِ طلباً وبالسكون قَلَقَاً ، والأصلُ في ذلك حسنُ الرَّابِطَةِ بين الطَّالبِ والمَطْلُوبِ أَيْ بينَ المُرِيدِ والمُرَادِ وهو الشيخُ الكَاملُ بشَرْطِ الصُّحبةِ ودوامِ الاقتداءِ ، وإِنَّه ليسيرٌ على من يَسَّرَ الله تبارك وتعالى عليه .

الثّاني: مَوضُوعُه: أَمَّا موضوعه فهو الذَّاتُ العَلِيَّة باعتبار معرفتها، إِمَّا بالبُرهان أَو بالشهودِ والعِيَان، فالأول للطَّالبين والثاني للوَاصِلِينَ ويُقَال: موضوعه النفوس والقلوب والأرواح، لأنه يَبْحَثُ عن تَصْفِيَتِها وتَهذيبِها، وهو قريبٌ من الأولِ، لأَنَّ مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ[1].

الثّالثُ: ثَمَرَتُه: أما ثَمرته فهي تَهذِيبُ القلوب لمعرفة عَلَّام الغيوب .

الرَّابعُ: فَضْلُه: أما فضله فإنه من أفضل العلوم وأشرفها لتعلقه بمعرفة الحقِّ جلَّ وعَلا، وشرفُ المُتعلّق بشرفِ المتعلّق به.

الخامسُ: نِسْبَتُه إِلى العُلوم: نِسْبتهُ إِلى العُلومُ أَنه كليٌ لها وشَرطٌ فيها ، إِذْ لا علمَ ولا عملَ إِلا بِصدقِ التَّوجهِ والإِخلاصِ.

---

(١) يذكر البعض هذه العبارة على أنها من حديث النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، والصحيح أنها ليست كذلك ، وإنما هي من قول يحي بن معاذ الرازي رحمَهُ اللهُ تعالى ، ذكر هذا الحافظ السخاوي رحمَهُ اللهُ تعالى في كتابه المقاصد الحسنة صفحة (٤١٦) برقم(١١٤٩) حيث قال نقلا عن أبي المظفر السمعاني ، أنه قال في الكلام على التحسين والتقبيح : لا يعرف مرفوعا وإنما يحكى عن يحي بن معاذ الرازي يعني من قوله .اهـ . وقال الإمام النووي رحمَهُ اللهُ تعالى في فتاويه : ليس بثابت ولو ثبت كان معناه من عرف نفسه بالضعف والافتقار إلى الله تعالى والعبودية له عرف ربه بالقوة والقهر والربوبية والكمال المطلق والصفات العليا ، ومن عرف ربه بذلك كل لسانه عن بلوغ حقيقة شكره والثناء عليه كما ثبت في صحيح مسلم وغيره أنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قال :«سُبحانكَ لا أُحصي ثناء عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسك» . وقال الحافظ ابن حجر رحمَهُ اللهُ تعالى عندما سئل عن هذا الحديث هل هو حديث ؟ فقال : لا أصل له وإنما يحكى عن يحي بن معاذ الرازي الصوفي . وقال السمعاني رحمَهُ اللهُ تعالى : لا يُعرف مرفوعا ، ونسبه بعضهم إلى أبي سعيد الخراز. [انظر فتاوى الإمام النووي ، ص: (٥٠٤)].

السَّادِسُ: واضِعُه: واضعُ عِلم التّصوفِ، أَيْ عِلمُ تَصْفِيَةِ القلب الذي يترتب عليه الفتوحات الرَّبَّانِيَّة بالعلوم اللَّدنيَّة، هو النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم بِوحْيٍ من الله عزَّ وجَلَّ، وقد جاء في الكتاب آياتٌ تَدُلُّ على صدق التَّوجه والعمل بالإِخلاصِ، منها قَولُ الله تعالى :﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[الزمر: ٣٣]، وقَولُه سبحانه وتعالى:﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر:١١- ١٢]، وقول الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣] ، وقوله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: « أَلا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١]، فالتصوف علم إصلاح القلب وتصفيته .

السَّابِعُ: اسْمُه: أمَّا اسمه فهو علم التصوف ، واختلف في اشتقاقه ، فقيل من الصوف ، والأكثرون على أنه مشتق من الصفاء .

وفي هذا المعنى يقولُ أَبو الفَتحِ التَّلْمَساني[٢] رحمهُ اللهُ تعالى : [من البسيط]

تخالفَ النَّاسُ في الصُّوفي واختلفواْ جهلًا وظنُّوه مشتقًا من الصُّوفِ

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري برقم (٥٢) ، والإمام مسلم برقم (١٥٩٩) ، والإمام أحمد في مسنده برقم (١٨٣٦) ، وابن ماجة في سننه برقم (٣٩٨٤) ، والطبراني في المعجم الأوسط برقم (٢٢٨٥) ، وأبو داود برقم (٣٣٣٠) ، والنسائي برقم (٤٤٦٥)، وابن حبان في صحيحة برقم (٧١٩) ، عن النعمان بن بشير رضيَ اللهُ عنهما.

(٢) هو أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي ، صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس ، شاعر مشهور وكاتب مُجيد ولد في بلدة بست (قرب سجستان) وإليها نسبته. كان من كتَّاب الدولة السَّامانيَّة في خراسان، وارتفعت مكانته عند الأمراء له ديوان شعر صغير، فيه بعض شعره. وفي كتب الأدب الكثير من نظمه، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها: "زيادة المرء في دنياه نقصان"، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٤٠٠) هـ . [الأعلام (٤/ ٣٢٦) ، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٩)] .

ولستُ أَمنحُ هذا الاسمَ غيرَ فتىً صَفَا فَصُوفِيَ حتى سُمِيَ الصُّوفِي[١]

ورجَّحَ بعضُهم أنَّه مشتقٌ من صُفَّةِ مسجدِ رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، الذي كان منزلاً لأَهلِ الصُّفَّةِ ، وأَصْلُه صَفَاءٌ وهو الأَصل الذي يَرجع إليه كلُّ قولٍ فَخُفِّفَتْ تَشْدِيدَةُ الفَاءِ وأُشْبِعَتْ ضَمَّةُ الصَّادِ .

الثَّامن: اسْتِمْدَادُه : هو من الكتاب والسنة وإلهَامات الصديقين وفتوحات العارفين.

التَّاسعُ: حُكْمُ الشَّارِعِ فِيه : فإنه من فروض العين ، إذ لا يخلو أَحدٌ من عيبٍ أو داءٍ إلا الأنبياءَ المعصومين على نبينا وعليهم أَفضَلُ الصَّلاةِ وأَتَمُّ التَّسْلِيمِ ، فعِلمُ مداواة هذه الأدواء فرضُ عينٍ، لأنها من كبائرِ الذنوب المحبطة للأعمال بنص الأحاديث ؛ ولأنّ قَبُولَ العبادات يترتب على تطهيرِ القلبِ من الشِّركِ، والرِّياءِ، والعُجبِ، والكبرِ، والحسَدِ[٢]، قال ابن رسلان[٣] رحمهُ اللهُ تعالى : [من البسيط]

---

(١) البيتان في ديوانه، صفحة (٢٦٦)، وهما أيضا في كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر (١/ ٧٤)، وذكرهما أبن عطاء الله في لطائف المنن ص: (٢١٦) ، وقال هذا أحسن ما قيل في التصوف .

(٢) ـ **الشرك** : هو أن يجعل المخلوق لله ندا في ربوبيته وألوهيته ويشرك معه غيره في الطاعات والعبادات. ـ **الرياء** : هو إرادة العباد بطاعة الله تعالى وطلب الجاه والمنزلة عندهم . ـ **العجب** : هو تعظيم المرء نفسه بسبب علم أو عمل والنظر إليها بعين الرضا والكمال والافتخار بما عنده من النعم مع نسيان المنعم بها وردّ المنة إليه. ـ **الكبر** :هو بطر الحق أي دفعه ورده، وغمط الناس واحتقارهم وازدراؤهم والترفع عليهم وهو من نتائج العجب. ـ **الحسد** : هو كراهية وصول النعم إلى الغير وتمني زوالها عنهم أما تمني مثل ما للغير من النعم من دون تمنٍ لزوالها عنهم فتسمى غبطة والمؤمن يغبط .! والمنافق يحسد !.

(٣) هو الإمام العلامة أبو العباس شهاب الدين أحمد بن الحسين ابن أرسلان الرملي ، إمام صوفي مجتهد ، ولد بالرملة من فلسطين سنة (٧٧٣)هـ ، نشأ بها وحفظ القرآن الكريم في سن العاشرة واشتغل بطلب العلم من صباه ، حتى صار إماماً متقدماً في فنون كثيرة من فنون العلم وله عدة مصنفات في فنون مختلفة ، ومن أشهر مصنفاته منظومة (صفوة الزبد) في الفقه الشافعي ، وهي من أنفس كتبه وأعظمها نفعا وبركة ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى ببيت المقدس سنة (٨٤٤)هـ . [الضوء اللامع (١/ ٢٨٢) ، البدر الطالع (١/ ٤٩)] .

وَ عِلْـــمُ دَاءٍ لِلْقُـلُـوبِ مُفْسِـــدِ كَـالـعُـجْـبِ وَالـكِبْرِ وَدَاءِ الحَـسَدِ[1]

العَاشِرُ : مَسَائلُه : أي قضاياه التي يبحث عنها السَّالكُ في حال سيره ليعمل بِمُقْتَضَاهَا ، كَكَونِ الخشوعِ والخضوعِ والإخلاصِ شرطاً لقبولِ العملِ ، وكونِ الزُّهدِ رُكْناً في الطَّريقِ إلى الله تبارك وتعالى ، ومعرفة اصطلاحاتهم كالمَعرِفَةِ والفَنَاءِ والبَقَاءِ والحَالِ والوَارِدِ والمقَامِ وغيرِ ذلكَ ، وتَفْسِيرُهَا سَيأْتي إِنْ شَاءَ الله تعالى في كتابٍ آخرَ ؛ لِيَتَسَنَّى لِلْمُرِيدِ مَعرفةُ كلِّ ما غَابَ عنْ فِكْرِه ، وإلا فأهل هذا الشَّأن هو لديهم مَعروفٌ ومَعمولٌ به في كلِّ طبقاته ، رضوانُ الله تعالى عليهم أجمعين ، ولا يَجهلُ هذا إلا من شَذَّ عن سَوحِهِم ولم يخُالِطْهُم ولم يُلمَّ بأيِّ معرفةٍ بعلمِهم ، فمن لا يعرف الشَّيءَ يَجهَلْه ومنْ جَهِلَه حُرِمَ الوصُولَ إلى مَرَاقِي الفَلاحِ ولا بلاغَ إلا بالله العَليِّ العظيمِ .

❁ ❁ ❁

شُرُوطُ التَّصَوُّفِ

للتصوف شروط ينبغي التعرف عليها قبل الدخول إليه ، وهي ثمانيةُ شروطٍ :

١- قَصدٌ صَحيحٌ. ٢- قَصدٌ صَريحٌ. ٣- آدابٌ مَرْضِيَّةٌ . ٤- أَحْوَالٌ زَكيَّةٌ.

٥- حِفظُ الحُرمةِ. ٦-حُسْنُ الخِدْمَةِ. ٧-رَفعُ الهِمَّةِ. ٨-نُفُوذُ العَزمَةِ.

شَرْحُ شُرُوطِ التَّصَوُّفِ

❖ **أما القَصْدُ الصَّحيحُ :** فهو أن يكون صِدقُ السَّالكِ من أول قدمٍ يضعه في صحبةِ الدَّليلِ الهادي والمُرْشِدِ المرَبِّي نَائبِ الرَّسولِ الأَعظمِ سيدنا محمدٍ صلى الله عليه

(١) منظومة صفوة الزبد لابن رسلان ص: (٦٠) [طبعة دار المنهاج] .

وآلـه وسـلم؛ بتحقيـقِ العُبُودِيَّـة والقِيَـام بوظـائفِ الرُّبُوبِيَّـة، لا لِنَيْـلِ الكرامـاتِ ولا لِتحصيلِ المقاماتِ ولا ارتقاءِ الدَّرجاتِ ، ولا لطلبِ حظٍ من الحظُوظِ النَّفْسِيَّة .

❖ **وأما القَصْدُ الصَّريحُ** : فالمراد به التصـديق بِـسِرِّ الخصُوصيَّةِ في الشَّـيخِ المـربِّي، وهو أساس الطريق، فمن لا صِدْقَ له لا سَيرَ له ولو بقيَ في حوزةِ الشَّـيخِ ألـفَ عـامٍ، والصِّدقُ هو معرفة الـسِّرِّ فكـلُّ واحـدٍ يعـرفُ مـن سرِّ الشَّـيخِ المُـرَبِّي الـوارثِ لِلقَـدمِ المُحَمَّديِّ على قدرِ صِدْقِه.

❖ **وأما الآدابُ المرضيَّة** : فهـي مِفتـاح البـاب ، فمـن لا أدبَ لـه لا دخـولَ لـه ، ومن أساءَ الأَدبَ مع الأحباب طرد إلى الباب ثم إلى اسْطَبْلِ الدَّوابِ[1]، إن لم يتـدارك نفسه بالتوبة والاستغفار، والتَّوَدُّدِ إليهم والتَّقَرُّبِ بينَ يَدَيهِم .

شِعْراً : [من البسيط]

وَقُلْ عُبَيـدُكُـمُ أَولَى بِصَـفْحِكُـمُ فَسَامِحُواْ وخُذُواْ بِالرِّفْقِ يَا فُـقَرَا

هُـمْ بِالتَّفَضُّـلِ أَولَى وهُـوَ شِيمَتُهُـمْ فَـلَا تَـخَفْ دَرَكَاً مِنْهُـمْ وَلَا ضَـرَرَا[2]

❖ **وأما الأَحوالُ الزَّكِيَّةُ** : فهـي كـفُ الأَذَى عـنِ النَّـاسِ ، والافْتِقَـارُ والتَّوَاضُـعُ والانْكِسَارُ ، وشُهودُ التَّقصِيرِ وعَدَمُ الاغترارِ بما يَرِدُ عليه من المدحِ وغيره ، وغايتُها شهودُ المنَّةِ من ذي الفضل والمنَّة ، وأنَّ أعمالَـه وأحوالَـه مِنَّـةٌ مِـنَ الله تعـالى عليـه ، وأنْ يَزِنَ أَحوالَه كلَّها بميزانِ الـشَّريعةِ ، فيبادرَ إلى كـلِّ مـأمورٍ بـه ، ويبتعـدَ عـن كـلِّ منهـيٍ عنه ، فإنَّ الأحوالَ التي تخُالفُ الشَّريعةَ كلُّها ظلمةٌ فيه .

---

(١) هو الحظيرة أو المكان الذي تربط فيه الخيل والدواب .

(٢) البيتان لسيدنا شعيب بن أبي مدين التلمساني في قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:[من البسيط]

مـا لـذة العـيش إلا صـحبة الفقـراء هـم الـسـلاطين والـسادات والأمـراء

❖ **وأما حِفظُ الحُرْمَةِ** : فالتصديق بحرمةِ الشَّيخِ حَاضراً كان أو غائباً، حيَّاً كان أو مَيِّتاً، وحرمةِ الإِخوانِ، فيتحملُ منهم الأَذَى، ويَصبرُ على جَفَاهُم ، ويُعَظِّمُ كبيَرهم ، ويَرحَمُ صَغِيرَهم ، ويُصَدِّقُ بحرمةِ جميعِ المسلمينَ، وخصُوصاً العلماءَ والصَّالحينَ ، فلا يَنْتَقِدهم فإنَّ لحُومَهم مَسْمُومَةٌ ، ولهذا جعلوا ذلك في شروط التصوف .

❖ **وأمَّا حُسْنُ الخِدْمَةِ:** فَتَصِحُّ وتَصْدُقُ بخدمةِ الشَّيخِ والأُسْتَاذِ، وخدمةِ الإِخوانِ ومذاكرَتِهم والاستفادَةِ منهم، وسَيأتي ذلك في فصلٍ جامعٍ لِكُلِّ الآدابِ إنْ شَاءَ اللهُ.

❖ **وأمَّا رَفْعُ الهِمَّةِ:** فهوَ أَلا يَكونَ قَصدُه طلبَ الدُّنيا ولا الآخرَةِ ، بل يكونُ قَصْدُه وجهَ الله تعالى وحدَه ، ومعرفةَ مولَاه مُسْتَعِيناً بالله عزَّ وجَلَّ ، فإذا وجَّهَ المريدُ هِمَّتَه إلى مُولاه بَلَغَ مُنَاه ، قال سيدي ابنُ عَطَاءِ الله السَّكَنْدَرِيِّ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: " مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُه بِرَبِّكَ ولَا تَيَسَّرَ مَطْلَبٌ أَنْتَ طَالِبُه بِنَفْسِكَ "[2].

❖ **وأمَّا نُفُوذُ العَزْمَةِ:** فهو أن تكون عَزيمَتُه دَوَامَ السَّيرِ إلى تَحقيقِ العُبُودِيَّةِ له تعالى والوُصُولَ إلى مَعْرِفَةِ رَبِّ البَرية.

❁ ❁ ❁

---

(١) هو الإمام تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبدالكريم السكندري قطب العارفين، وترجمان الواصلين، ومرشد السالكين، أحد أركان الطريقة الشاذلية الصوفية، ولد في سنة (٦٥٨) هـ تقريبا ، بالإسكندرية ثم نشأ بها، تلقي منذ صباه العلوم الدينية والشرعية واللغوية، وكان فقيهاً صالحاً عالماً، يتكلم بجامع الأزهر ويحضر ميعاده خلق كثير وكان لوعظه تأثير في القلوب، توفي سنة(٧٠٩)هـ، [الدرر الكامنة(١/ ١٦٢)، البدر الطالع(١/ ١٠٧)].

(٢) شرح الحكم للشيخ عبد المجيد الشرنوبي رقم الحكمة: (٢٥) صفحة : (٩٢).

أركانُ التّصَوُّف

أَركَانُ التَّصَوفِ مُجَمَّعَةٌ في أَربعةِ أَشياء، وهي :

الأوّل: كفُّ الأَذَى. **الثّاني**: حَملُ الجَفاءِ.

الثّالث: شهودُ الصَّفاءِ. **الرّابع**: رَميُ الدنيا للقَفَا. (١)

❁ ❁ ❁

آدابُ الصّوفي

آدابُ الصّوفي من حيثُ الإِجمالِ خمسةُ آدابٍ وهي :

الأوّل: خلعُ العذارِ. **الثّاني** : الذُّلُ والانكسارُ. **الثّالث** : البَذلُ والإيثارُ.

الرّابع: صحبةُ العارفينَ الأَبرارِ. **الخامس**: بَذلُ المجهودِ في الطَّاعةِ والأَذكارِ.

❁ ❁ ❁

شَرْحُ آدابِ الصّوفي

❖ **أما خلعُ العذارِ**: فهو خلعُ الأَوصَافِ والأَخلاقِ المذمومَةِ وإِبدَالُها بالأوصَافِ المحمُودةِ ، فلابُدَّ للسَّالكِ أَنْ يَتَخَلى عن العيوبِ والأَخلاقِ الشَّيطَانِيَّةِ والنَّفسَانيَّةِ ، ويَتَحَلَّى بالأَخْلَاقِ النَّبويِّةِ، والأِوصافِ الرَّحمانِيَّة ، كالصِّدقِ في الأَقوالِ والأَفعالِ ، والوفاءِ، والأمانةِ، والمروءةِ ، والعِفَّةِ ، والمحبةِ، والأُلفَةِ ، والقنَاعَةِ ، والورعِ ، والإِيثارِ، والعفوِ ، والصَّفحِ ، والحِلمِ ، والسَّماحةِ ، والحياءِ ، والجودِ ، والسخاءِ ، والعدلِ ،

(١) انظر : " البحر المديد في تفسر القرآن المجيد " لابن عجيبة، تفسير سورة الحجرات، (٧ / ٢٤٣).

والإِنصَافِ ، والتَّواضعِ ، وسَلامةِ الصَّدرِ ، وبرِّ الوالدين ، وصلةِ الأَرحامِ ، وإِكرامِ الجيرانِ ، والرَّحمةِ ، والرَّأْفَةِ ، والشَّفقةِ ، والحنَانِ ، وزيارةِ الإِخوانِ ، وعيادةِ مرضَاهُم ، وتشييعِ مَوتَاهم ، وإِجابةِ دَعْوَتَهُم ، والنصيحةِ لكلِّ مُؤمنٍ ، والدعاءِ له بظهرِ الغيبِ ، وغير ذلك من الأَخلاقِ المحمودةِ ، ولا يَتِمُّ التَّخَلُّقُ بالأَخلاقِ الكَرِيمةِ حتى يَتَخَلَّى عن أَضْدَادِهَا من الأَوصَافِ الذَّمِيمَةِ .

❖ **وأما الذُّلُ والانكسارُ:** فهو الخضوعُ لله عزَّ وجَلَّ قلباً وقالباً، وعدمُ التَّعَزُّزِ والاسْتِكْبَارِ على عباد الله تعالى ، فلا يَتَحَقَّقُ الخُضُوعُ لله سبحانَه وتعالى إِلا بالخضوعِ لِعِبَادِه ، وما أَحْسَنَ ما قِيلَ في هذا المعنى : [من الوافر]

وَ مَا رُمْتُ الدُّخُولَ عَلِيهِ حَتَّى حَلَلْتُ مَحَلَّةَ العَبْدِ الذَّلِيلِ

وَأَغْمَضْتُ الجُفُونَ عَلَى قَذَاهَا وَ صُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قَالٍ وَقِيلِ

وَأَحْبَبْتُ العِبَادَ بِهِ وَفِيهِ وَ لَمْ أَغْتَرْ بِوَصْفٍ أَو بِحَالِ[1]

❖ **وأَمَّا البَذْلُ والإِيثَارُ :** فمرجعه إلى سَخَاوَةِ النَّفسِ ، وهو الشَّرطُ المهمُّ للسَّالكِ ، حيثُ قالوا :"مِنْ أَقْبَحِ القَبِيحِ صُوفِيٌّ شَحِيحٌ"[2] ، والشُّحُ من عَلامَةِ حبِّ

---

(١) الأبيات للسَّري السَّقطي، كما في زاد المسير لابن الجوزي [١/ ١٧٩]، وفي كتاب إيقاظ الهمم ص: (٣٠٤). وآخرها بدل البيت المذكور هنا بيت آخر، وهو الأنسب من حيث الوزن، والبيت هو: [من الوافر]

وذلُّ العبدِ للمَولى غِنَاه وغايتُه إلى العزّ الطّويل

(٢) هذه العبارة من قول أبي عبد الله بن أحمد بن عطاء الروذباري كما في الرسالة القشيرية صفحة (٨٧) ، والشح قبيح من كل إنسان فضلا عن الصوفي والواقع أنه لا يوجد أصلا صوفي شحيح إلا أن يكون مدعيا للتصوف ، لأن الصوفي في الحقيقة هو من صفا قلبه من الكدر واستوى عنده الذهب والمدر . **والشح:** هو البخل الشديد مع الجشع والطمع والحرص ، وقيل: هو منع الواجب في المال ، وقيل الشح هو : البخل بما في أيدي الغير وأمر غيره بالبخل بما في يده وهو أشد البخل . قال سيدنا عبد الله بن عمر رضيَ اللهُ عنهما : ليس الشح أن يضع الرجل ماله ولكن الشح أن تطمع عينه إلى ما ليس له .

الدُّنيَا ، وهو رأسُ كلِّ خِطيئَةٍ[١]، وأَصلُ كلِّ وصفٍ دنيءٍ ، وعلامةُ خُروجِ الدُّنيا منَ القَلبِ" بَذْلُهَا عندَ الوَجْدِ والصَّبرُ عنْهَا عِنْدَ الفَقْدِ"، وهذا باعتبارِ السَّالِكينَ ، وأَمَّا عندَ العَارِفينَ فإنهمْ "إِذَا وَجَدُواْ آثَرُواْ وَإِذَا فَقَدُواْ شَكَرُواْ"[٢].

❖ **وَأَمَّا صُحْبَةُ العَارِفِينَ الأَبْرَارِ:** فهيَ الأَسَاسُ الذي يُبْنَى عَليهِ سُلُوكُ المُرِيدِ ، وفي الأَثَرِ: «ابْدَأ بِالرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ» [٣]. وفي الخبرِ عن سَيِّدِ البَشَرِ سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « المَرْءُ على دِينِ خَلِيلِه فَلْيَنْظُر أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[٤]. وفي الحِكَمِ "لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهِضُكَ حَالُه ويَدُلُّكَ عَلى الله مَقَالُه "[٥].

ولَيسَتْ طَرِيقَةُ السُّلُوكِ بِطَرِيقِ العُزْلَةِ، بل هي بِطرِيقِ الصُّحْبَةِ والاجتِمَاعِ، والاسْتِمَاعِ والاتِّبَاعِ، فالجَمْعُ رَحْمَةٌ والفُرْقَةُ عَذَابٌ، وفي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ:« يَدُ الله مَعَ

---

(١) «حُبُّ الدُّنْيا رَأسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»، هذا قطعة من حديث شريف، أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان [٧/ ٣٣٨]، برقم: (١٠٥٠١) ، عن الحسن رضيَ اللهُ تعالى عنه ؛ مرسلاً.

(٢) ذكر الحافظ أبو نعيم في الحلية عن حذيفة المرعشي قال : دخلنا مكة مع إبراهيم بن أدهم فإذا شقيق البلخي قد حج في تلك السنة، فاجتمعنا في شقّ الطّوَاف، فقال إبراهيم لشقيق : على أي شيء أصّلتم أصلكم ؟، قال : أصَّلنا أصْلَنا على أنا إذا رزقنا أكلنا وإذا منعنا صبرنا ، فقال إبراهيم : هكذا تفعل كلاب بلخ !، فقال شقيق : فعلى ماذا أصلتم ؟ قال: أصلنا على أنا إذا رزقنا آثرنا وإذا منعنا شكرنا وحمدنا ، فقام شقيق فجلس بين يدي إبراهيم فقال : أنت أستاذنا ، [حلية الأولياء ، (٨/ ٣٧)] .

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي[٢/ ٣٥] برقم(١٧١٠)بلفظ: «ابتغ الرفيق قبل الطريق»، ورواه الطبراني في المعجم الكبير [٤/ ٢٦٨] برقم (٤٣٧٩)بلفظ: «التمسوا الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق»، وأبو الشيخ الأصفهاني في كتاب الأمثال [١/ ٢٧٣] برقم (٢٣٢) والهيثمي في مجمع الزوائد برقم(١٣٥٣٤)، وذكره الإمام العجلوني في كشف الخفا برقم (٥٣١)، وقال: طرقه كلها ضعيفة، ولكن بانضمام بعضها إلى بعض تقوى، فيكون حسنا لغيره .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٤١٧) ، والإمام أبو داود برقم (٤٨٣٣) ، والإمام الترمذي برقم (٢٣٧٨) ، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وإسناده جيد ورجاله ثقات .

(٥) شرح الحكم للشرنوبي صفحة (١٠٨) رقم الحكمة (٤٣).

الجَمَاعَةِ »[١] أَي العَارفينَ بالله تعالى الدَّالينَ عليهِ، وقَدْ جَاءَ وصْفُهمْ واتِّبَاعُهُم صَرِيحاً فِيمَا رَوَاه الإمام أَبُو دَاودَ[٢] وغيُره عنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ[٣] رَضِيَ اللهُ عنْه، ورَوَاه أيضاً الإمام التِّرمِذِي[٤]عنْ مُعَاذِ بنِ جبلٍ[٥]رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَرَوَاه البَغَوِيُّ[٦] بِسَنَدِه عَنْ أَبِي

---

(١) أخرجه الإمام الترمذي برقم (٢١٦٦) ،عن ابن عباس رضيَ اللهُ تعالى عنهما ، وقال : حسن غريب .

(٢) هو الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث بن شداد السجستاني ، مقدم الحفاظ وشيخ السنة ومحدث البصرة ، ولد سنة (٢٠٢) هـ ، رحل في طلب العلم إلى كثير من البلاد وجمع وصنف ، وكان يقول: كتبت خمسمائة ألف حيث انتخبت منها كتاب السنن ، وكان عالماً بالحديث وعِلَلِه ، ذا درجة عالية في الصلاح توفي رحمَهُ اللهُ سنة (٢٧٥) هـ [أعلام النبلاء (١٣/ ٢٠٣)، وفيات الأعيان (٢٠/ ٣٣٧)] .

(٣) سيدنا أمير المؤمنين أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، ثاني الخلفاء الراشدين، من أكابر الصحابة وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن علماء الصحابة وزهّادهم ، ولد رضيَ اللهُ عنه قبل الهجرة بأربعين سنة ، أسلم بعد أربعين رجلاً فظهر به الإسلام ، وكان معروفا بالقوة في أمر الله تعالى ، وهومن المُحَدَّثِينَ ، وافقه القرآن في ثمانية وعشرين موضعاً ، وكان الشيطان يفرق من ظله، شهد المشاهد كلها مع النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلم، وروى عنه (٥٣٧)حديثاً ، توفي رضيَ اللهُ تعالى عنه شهيداً سنة (٢٣)هـ . [تاريخ الخلفاء (٢٠٨) ، مرآة الجنان (١/ ٦٧)].

(٤) هو الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في علم الحديث ، حافظ مشهور ، ولد سنة (٢٠٩)هـ ، تتلمذ للبخاري ، وكان يضرب به المثل في قوة الحفظ ، وله كتابا الشمائل والسنن ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى في ترمذ سنة (٢٧٩)هـ. [وفيات الأعيان(٤/ ١٠٤)].

(٥) سيدنا أبو عبد الرحمن معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري، أعلم الأمة بالحلال والحرام، إمام فقيه عالم، أسلم رضيَ اللهُ تعالى عنه وهو ابن ثماني عشرة سنة، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع الرسول صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم ، وأردفه وراءه، وشيعه ماشيًا في مخرجه وهو راكب، وبعثه قاضيًا إلى الجند من ناحية تعز باليمن بعد غزوة تبوك وهو ابن ثمانٍ وعشرين سنة ليعلِّم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم، روى(١٥٧)حديثا، توفي رضيَ اللهُ عنه بطاعون عمواس سنة (١٨)هـ. [الإصابة (٦/ ١٣٦)].

(٦) هو الإمام الحافظ الفقيه المجتهد، المفسر أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي ، ركن الدين ومحيي السنة. خدم القرآن والسنة النبوية ، دراسة وتدريساً ، وتأليفاً ، ولد ببلدة: (بغَ) من بلاد خراسان بين مرو وهراة سنة (٤٣٣ هـ) رحل في طلب العلم إلى كثير من البلاد حتى صار إماما من أئمة الدين وعلما من أعلام الحق والهدى ، إماما في التفسير والحديث الشريف والفقه الشافعي ، له تصانيف كثيرة ، توفى رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٥١٦) هـ . [معجم المؤلفين (٤/ ٦١) ، معجم البلدان (٢/ ٣٦٩)].

مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ[١] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكلُّهُم يَرْوُونَه عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بِأَلفاظٍ مُتَقَارِبةٍ، أَنَّه قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، إِذْ قَالَ: «إِنَّ لله عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَالشُّهَدَاءُ بِقُرْبِهِمْ مِنَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فقَامَ فِي نَاحِيَةِ الْقَوْمِ أَعْرَابِيٌّ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَرَمَى بِيَدَيْهِ، فَقَالَ: حَدِّثْنَا يَا رَسُولَ الله عَنْهُمْ مَنْ هُمْ؟، قَالَ: فَرَأَيْتُ فِي وَجْهِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم الْبِشْرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه وسَلَّمَ: «هُمْ عِبَادٌ مِنْ عِبَادِ الله ، مِنْ بُلْدَانٍ شَتَّى ، وَقَبَائِلَ شَتَّى، مِنْ شعوبِ الْقَبَائِلِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ يَتَوَاصَلُونَ بِهَا ، وَلَا دُنْيَا يَتَبَاذَلُونَ بِهَا ، يَتَحَابُّونَ بِرُوحِ الله، يَجْعَلُ الله وُجُوهَهُمْ نُورًا، وَيَجْعَلُ لَهُمْ مَنَابِرَ مِنْ لُؤْلُؤٍ، يَفْزَعُ النَّاسُ وَلَا يَفْزَعُونَ، وَيَخَافُ النَّاسُ وَلَا يَخَافُونَ»[٢].

وَفِي الحَدِيثِ القُدُسِيّ قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ»[٣]. وَوَرَدَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ أيضا: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي ؟، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ

---

(١) سيدنا أبو مالك الحارث بن عاصم الأشعري نسبة إلى قبيلة باليمن يقال لها(أَشْعَر) صحابي جليل، قدم على النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم مع الأشعريين في السفينة، وروى عنه (٢٧) حديثا، سكن في الشام، وتوفي رضيَ اللهُ تعالى عنه فيها بسبب طاعون عمواس سنة (١٨)هـ، [تهذيب الكمال(٨/ ٤١٦)].

(٢) أصله صحيح، أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٨٩٤)، عن أبي مالك الأشعري رضيَ اللهُ تعالى عنه، ورجاله ثقات، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير [٣/ ٢٩٠] برقم(٣٤٣٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان [٦/ ٤٨٦] برقم (٩٠٠١)، والبغوي في شرح السنة [٦/ ٤٨٦] برقم (٣٣٥٨)، عن أبي مالك الأشعري رضيَ اللهُ عنه، وأخرجه أبوداود برقم (٣٥٢٧)، عن عمر رضيَ اللهُ عنه، وأخرجه ابن حبان برقم(٥٧٣)، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه، وأخرجه بطوله عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه برقم(٢٠٣٢٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٢٠٣٠) ، والبغوي في شرح السنة [٦/ ٤٥٥] برقم (٣٣٥٧)، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٣) ، عن معاذ بن جبل رضيَ اللهُ تعالى عنه، وهو حديث صحيح ورجاله ثقات .

ظِلِّي»[١]. وقَدْ تَحْكُم الظُّرُوفُ بِتَسَتُّرِهِم في بعضِ الأَمكِنَةِ والأَزْمِنَةِ فَيَسْتُرُهُمُ الله تَعالى بِمُقْتَضَى حِكْمَتِه البَالِغَةِ حتَّى لا يُرْشَدَ إِليهِم إِلَّا مَنْ سَبَقَتْ لَه العِنايةُ الأَزَلِيَةُ ، فَيَسُوقَهُم العَلِيّ القَدِيرُ إِليهِم فَلا يَهْتَدِي إِليهِم إِلَّا الأَفْرَاد ، وَقِيلَ شِعْرَاً : [من الخفيف]

اسْتِتَارُ الرِّجَالِ فِي كُلِّ عَصْرٍ تَحْتَ سِترِ الظُّنُونِ عِزٌّ جَلِيلُ

مَا يَضُرُّ الهِلَالَ فِي جِنْدِسِ اللَّيـ ـلِ سَوَادُ السَّحَابِ وَهوَ جَمِيلُ[٢]

وَلِهذَا يَقُولُ سَيِّدِي أَبو مَدْيَنَ[٣] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : [من البسيط]

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ القَومِ دَارِسَةٌ وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيهَا اليَومَ كَيفَ تَرَى؟

كِنَايَةً عَنْ عِزَّتِهِم وغَيرَةِ الحَقِّ جلَّ وعَلَا عَليهِم ، ولَا سِيَّما إِذا كَانَ أَهلُ الزَّمانِ مُعْرِضِينَ عَنِ الله تَبَارَكَ وتعالى ، مُؤثِرِينَ الدُّنيَا ، مُتَّبِعِينَ الأَهْواءِ .

وَفِي الحَدِيثِ عنْ أَنسِ بنِ مَالكٍ[٤] رَضِيَ اللهُ عنه عَنِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، عَن جبريلَ عليه السَّلام، عنِ الله عزَّ وجَلَّ، أَنَّه قَالَ: « مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً

---

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم (٢٥٦٦) والإمام أحمد في مسنده برقم (٧٢٣١) ، والإمام مالك في الموطأ (٢/ ٩٥٢) ، والدارمي في مسنده برقم (٢٧٥٧) ، وبن حبان في صحيحه برقم (٥٧٤) ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٨٩٩٠) ، والبغوي في شرح السنة برقم (٣٤٦٢)، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه.

(٢) البيتان لم أعثر على قائلهما ، وهما في الطبقات الكبرى للإمام الشعراني [١/ ٧].

(٣) هو الإمام الزاهد أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني ، شيخ أهل المغرب ، صوفي زاهد ، ولد سنة (٥١٤) هـ ، أصله من الأندلس، أقام بفاس وسكن- بِجَايَة - كان من مشاهير الصوفية وكبار الأولياء، كثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٥٩٣)هـ بتلمسان ، وكان آخر كلامه من الدنيا "الله الحي"، [طبقات الأولياء (٢٦٧) ، الأعلام(٣/ ١٦٦)] .

(٤) هو سيدنا أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي النجاري ،صاحب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآله وصحبه وسَلَّمَ ، وُلد بالمدينة المنورة قبل الهجرة بعشر سنوات ، أسلم لما قدم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآله وصحبه وسَلَّمَ المدينة المنورة مهاجراً، وخدمه حتى قبض، وروى عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلم (٢٢٨٦)حديثًا، قدم إلى دمشق ، ثم رحل إلى البصرة ، وتوفي رضيَ اللهُ تعالى عنه بها وهو آخر من مات من الصحابة في البصرة سنة (٩٣) هـ . [الأعلام(٢/ ٢٤)].

فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وإِنِّي لَأَغضَبُ لِأَولِيَائِي كَمَا يَغْضَبُ اللَّيثُ الحَرِدُ[١]، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي المؤْمِنُ بِمثلِ مَا افْتَرَضْتُه عَليهِ ومَا يَزَالُ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فَإِذا أَحبَبْتُه كُنْتُ لَه سَمْعَاً وبَصَراً ولِسَاناً ويَداً ومُؤَيِّداً، إِنَّ دَعَاني أَجبتُه وإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيتُه، ومَا تَرَدَّدتُ فِي شَيءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ عَبدِيَ الْمُؤْمِنِ، يَكرَه المَوتَ وأَنا أَكرَه مُسَاءَتَه ، ولابُدَّ لَه مِنْه ، وإِنَّ مِن عِبَادِي المؤمنينَ لَمَنْ يَسْأَلُنِي باباً مِن أَبوابِ العِبَادِةِ فَأَكُفَّه عَنه أَلَّا يَدْخُلَه عُجبٌ فَيُفسِدَه ذَلكَ ، وإِنَّ مِنْ عِبَادي المؤمنينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَه إِلَّا الغِنَى ولَو أَفْقَرْتُه لَأَفْسَدَه ذَلكَ ، وإِنَّ مِن عِبَادِي المؤمِنينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَه إِلَّا الفَقْرُ ولَو أَغنَيتُه لَأَفسَدَه ذَلكَ ، وإِنَّ مِن عِبَادِي المؤمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَه إِلَّا الصِّحَةُ ولَئِن أَسْقَمْتُه لَأَفسَدَه ذَلكَ ، وإِنَّ مِن عِبَادِي الْمُؤمِنينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَه إلا السَّقَمُ ولَو أَصْحَحْتُه لَأَفسَدَه ذَلكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ أَمْرَ عِبَادِي بِعِلمِي بِقُلُوبِهِم ، إِنِّي عَليمٌ خَبِيرٌ» [٢].

وَرَدَ هَذا الحَدِيثُ فِي تَفْسِيرِ قَولِ الله تبارك وتَعَالَى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[الشورى:٢٧]،مِنْ تَفْسِيرِ الخَازِن[٣].

وَقَد كَثُرَ مِن أَهْلِ هَذا الزَّمَانِ الإِنْكَارُ لِخَصَائصِ الأَولياءِ والصِّديقينَ ، فكانَ مُرَادُ الله تعالى فِي إِخْفَائِهِم ، ولذَلكَ قَالُوا :" أَولياءُ الله تَعالَى عَرَائس، وَلَا يَرَى العَرَائسَ الْمُجْرِمُونَ"، ولَا يَدُلُّ هَذا عَلى انقِطَاعِهِم فَفِي كُلِّ زَمَانٍ رِجَالٌ يَرحَمُ الله بِهِم عَبَادَه ،

---

(١) يقال حَردَ عليه حردا : أي غضب عليه غضبا شديدا ، واغتاظ فتحرش بالذي أغاظه وهم به ، والمعنى هنا : أني أغار وأغضب لأوليائي كما يغضب الأسد على من أغضبه وتعرض له .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير [٨/ ٢٢١]برقم(٧٨٨٠)، عن أبي أمامة رضيَ اللهُ عنه؛ مختصرا، وأخرجه في الأوسط [٢/ ١١٩]برقم(٦٢٠)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد [٢/ ٢٩٣] برقم(٣٥٠٠)، وقال في سنده علي بن يزيد وهو ضعيف، وأورده بطوله الحافظ السيوطي في الجامع الكبير برقم (٢٣٤٥)، والبغوي في شرح السنة [٣/ ٧٠] برقم(١٢٤٢)، وأبو نعيم في الحلية [٨/ ٣١٨] عن أنس رضيَ اللهُ عنه، وقال: غريب من حديث أنس !.

(٣) انظر تفسير الخازن [٥/ ٣٦٥].

وَهُم مَحَلُّ نَظَرِ الله مِنْ خَلْقِه ، بِبَرَكَتِهِم تُمطِرُ السَّماءُ وبِبَرَكَتِهِم تُنْبِتُ الأرضُ وبِبَرَكَتِهِم يُدْفَعُ البَلاءُ ، فَلابُدَّ أَنْ يَكونَ مِنْهُم فِي كُلِّ وَقتٍ أَئمةٌ ظَاهِرُونَ قَائمُونَ بِالحُجَّةِ سَالِكُونَ المَحَجَّةِ ، لِقَولِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليهِ وَآلِه وَصَحْبِه وَسَلَّمَ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ » [١] أَو كَما قَالَ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَآلِه وَصَحْبِه وَسَلَّمَ.

❖ **وَأَمَّا بَذلُ المَجْهُودِ فِي الطَّاعَةِ وَالأَذكَارِ:** فهيَ صَرفُ أَوقاتِه كَلِّها في الطَّاعةِ، وحضورِ الجُمَعِ والجَمَاعاتِ، وحُضُورِ مجَالسِ الذِّكرِ والعِلْمِ النَّافعِ، لَا عِلمَ سَفَاسِفِ[٢] العِلمِ كَعِلْمِ بعضِ مُتَحَذْلِقِي[٣] هَذَا العَصْرِ، وهم الَّذين جَعَلوا العلمَ لِلمُكَابَرَةِ والتَّحْرِيفِ والتَّأويلاتِ الخَارجةِ عن نطَاقِ العِلمِ الحقِيقِي، بلْ جعَلوه عَلى حَسَبِ نَزَوَاتِ النَّفسِ ورَغَبَاتِهَا، أَو عَلى حَسَبِ الأَهواءِ، وأَخَذُوا العِلمَ ممنْ وَتَرُوهُم، وَهُمْ أَعْدَاءُ الدِّينَ الَّذِين نَقَشُوا فِي قُلُوبِ مَنْ عَلَّمُوهُمْ كُرْهَ الذِّكْرِ وَكُرْهَ الصَّلاةِ والسَّلامِ عَلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليهِ وَآلِه وَصَحْبِه وَسَلَّمَ، ومُحارَبَةِ أَهْلِ التَّقْوَى الحَقِيقِي، والعِياذُ بالله سُبحانَه وتَعالى.

❁ ❁ ❁

---

(١) حديث صحيح ،أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، برقم (٣٦٤٠) ، وأخرجه الإمام مسلم برقم (١٩٢٠) ، عن ثوبان رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير [٨/ ١٤٥] ، برقم (٧٦٤٣) ، عن أبي أمامة رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وأخرجه الحاكم في المستدرك [٤/ ٤٤٩] ، عن عمر رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وقال صحيح الإسناد ، وأخرجه أحمد في مسنده ، برقم (١٩٢٩٠)، عن زيد بن أرقم رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه [٨/ ٢٨٩] برقم (٦٧٨٠) عن جابر رضيَ اللهُ تعالى عنه .

(٢) السفاسف : جمع سفساف وهو الرديء الحقير من كل شيء سواء أكان علم أو عمل أو غير ذلك.

(٣) المُتَحَذْلِقِين : جمع متحذلق وهو من يتظاهر بالظرافة والكياسة ، ويدعي أكثر مما عنده من الحذق ، والحذق : هو المهارة في كل شيء.

أصُولُ التَّصَوُّفِ

أُصُولُ التَّصَوُّفِ خَمَسَةٌ وهيَ:

الأول: تَقْوَى الله تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَّةِ. **الثاني:** اتِّبَاعُ السُّنَةِ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ. **الثالث:** الإِعْرَاضُ عَنِ الخَلْقِ فِي الإِقْبَالِ وَالإِدْبَارِ. **الرابع:** الرِّضَا عَنِ الله تَعَالَى فِي القَلِيلِ وَالكَثِيرِ. **الخامس:** الرُّجُوعُ إِلَى الله تَعَالَى فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

تَحقِيقُ أصُولِ التَّصَوُّفِ

لأُصُولِ التَّصَوُّفِ السَّابقَةِ خَمْسَةُ تَحْقِيقَاتٍ ، وهيَ:

الأول: تَحقِيقُ التَّقْوَى، ويَكُونُ بِالوَرعِ والاسْتِقَامَةِ. **الثاني:** تَحقِيقُ السُّنةِ، ويَكُونُ بِالتَّحَفُّظِ وحُسْنِ الخُلُقِ. **الثالث:** تَحقِيقُ الإِعْرَاضِ عنِ الخَلقِ، ويَكُونُ بِالصَّبرِ والتَّوَكُلِ. **الرابع:** تَحقِيقُ الرِّضَا عنِ الله تَعَالى، يَكُونُ بِالقَنَاعةِ والتَّفويضِ. **الخامس:** تَحقِيقُ الرُّجُوعِ إِلى الله تَعَالَى، ويَكُونُ بِالحمْدِ والشُّكرِ له فِي السَّراءِ واللُّجُوءِ إِليهِ عَزَّ وَجَلَّ في الضَّراءِ .

وَلَهَا خَمسَةُ أُصُولٍ أُخْرَى لا تَتِمُّ الأُولى إِلَّا بِهَا وَهيَ:

١-عُلُو الهِمَّةِ. ٢-حِفظُ الحُرمَةِ. ٣-حُسنُ الخِدْمَةِ. ٤-نُفُوذُ العَزْمَةِ. ٥- شُكْرُ النِّعْمَةِ.

فَمَنْ عَلَتْ هِمَّته ارتَفعتْ رُتبتُه، ومَن حَفظَ الله تبارك وتعالى حفظَ الله تعالى حُرمَتَه، ومَن أَحسنَ خِدمتَه اسْتَوجَبَ كَرامتَه، ومَن نَفَذَتْ عَزيمتُه دَامتْ هِدايتُه، ومَن عرفَ النِّعمةَ شَكَرَهَا، ومن شَكرَهَا اسْتَوجَبَ المزيدَ عليها منه سبحانه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

شَرْحُ الأُصُولِ وتَحقِيقَاتِهَا

الأَصْلُ الأَوَّلُ، وتَحْقِيقُ التَّقْوَى

للتَّقوى ثَلاثُ مَراتبَ وهيَ :-

١-التَّوَقِّي مِنَ العَذابِ المُخَلِّدِ صَاحِبَه في النَّارِ: وذلكَ يكون بِالتَّبَرِّي منَ الكُفرِ والشركِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الفتح: ٢٦]، فإنَّ المرادَ بكلمةِ التَّقوى هنا شهادة أن لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ وأنّ محمّداً رسولُ الله صَلَّى الله تعَالى عَليه وعَلى آله وصَحبِه وسَلَّم .

٢-التَّجَنُّبُ لِكُلِّ مَا فِيه لَومٌ: حتى الصَّغائر من الذنوب عندَ قومٍ، وهذا المَعْنَى هو المَعْنِيُّ بقولِ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[المائدة: ٦٥] .

٣-أَن يَتَنَزَّه العبدُ عن كُلِّ مَا يُشغِلُ سِرَّه عنِ الحَقِّ: وهو المعَنى المُرَادُ بقول الله تَعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ١٠٢] ، فتقوى الله مطلوبةٌ من العبد في كل حال، في جميع الأقوال والأفعال والحركات والسكنات، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[النساء: ١٣١] .

ثمَّ اعلَم أَنَّ التَّقوى كلمةٌ جَامعةٌ للخَيراتِ ومانِعةٌ للسَّيئاتِ وبها تُنالُ السَّعادةُ الدُّنيَويَّةُ والأخرويَّةُ .

ثَمَرَاتُ التَّقْوَى وَفَوائدُهَا

وَرَدَتْ في التَّقوى خصالٌ وآثارٌ كثيرةٌ ، وفَوائدُ عَظيمَةٌ ؛ فمِنْ ذلكَ :

١-المدحُ منَ الله عزَّ جلَّ والثَّناءُ: قَالَ سُبحَانَه وتَعَالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٢-الحفظُ والوقايةُ منْ كَيدِ الأَعداءِ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٣-النَّصرُ والتَّأييدُ: قالَ اللهُ تبارك وتعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل :١٢٨].

٤-النَّجَاةُ منَ الشَّدائدِ، وَالرِّزق من الحَلالِ: قالَ اللهُ تبارك وتعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢ - ٣] .

٥-إِصْلاحُ العَمَلِ وَغُفْرَانَ الذُّنُوبِ: قالَ اللهُ تبارك وتعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[الأحزاب: ٧٠ - ٧١] .

٦-الفَوزُ بِمَحَبَةِ الله تَعالى: قالَ اللهُ سبحانه:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٧].

٧-القَبولُ منَ الله تعالى: قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[المائدة: ٢٧].

٨-الإِكرَامُ والإِعزازُ: قالَ اللهُ تبارك وتعالى :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ، فجعل تعالى الكرامة عنده بالتقوى ، لا بالأحساب والأنساب ، ولا بالأموال ولا بشيء آخر.

٩-التَّيسِيرُ في الأُمُورِ: قالَ اللهُ تعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٤].

١٠-البِشَارةُ بِكلِّ خَيرٍ في الدُّنيَا والآخِرَةِ: قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[يونس: ٦٣ - ٦٤].

١١-النَّجَاةُ منَ النَّارِ : قالَ اللهُ تبارك وتعالى :﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾[مريم: ٧١ -٧٢] .

١٢-الخُلودُ في الجنَّةِ: قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٣] ، وقالَ اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾[آل عمران: ١٩٨][(١)] .

نسأَلُ الله تعالى أَنْ يَجعَلَنا مِنَ المُتَّقينَ وأَنْ يُدْخِلَنا في عِبَادِه الصَّالحينَ مَعَ الذينَ أَنعمَ الله عَليهم منَ النَّبيينَ والصِّدِّيقين والشُّهَدَاءِ والصَّالحينَ، قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[الزمر: ٧٣] ، وسِيقَ: أي إسراعاً بهم إلى دارِ الكرامةِ، وقيلَ: وسِيقَتْ مَرَاكِبُهم إِذْ لَا يُذهَبْ بِهم إِلَّا رَاكبينَ .

قالَ الإمام البَيْضَاوِي [(٢)] رحمهُ اللهُ تعالى : زُمَراً أَيْ جمَاعَاتٍ في تَفْرِقَةٍ ، وأَفْوَاجاً مُتَفَرِّقَةً بَعضُهَا في إِثرِ بَعضٍ عَلى تَفاوتِ مَراتِبهم في الشَّرفِ وعُلُو الطَّبَقَةِ ، وهو الجَمْعُ

---

(١) ذكر هذه الخصال الإمام الغزالي رضيَ اللهُ عنه في كتابه منهاج العابدين صفحة (٩٧-٩٨).

(٢) هو الإمام ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي عالم بالعربية والحديث، مفسر وفقيه، ولد بالبيضاء – قرية بفارس قرب شيراز – له مصنفات كثيرة في التفسير والأصول والفقه الشافعي، امتاز بتصانيفه البديعة المشهورة التي تنوعت فنونها، ومن أبرزها التفسير المسمى بـ « أنوار التنزيل وأسرار التأويل» الذي اشتهر وبهر ، وتلقاه العلماء بالقبول، وليَ قضاء شيراز مدة ثم صُرف عنه فرحل إلى تبريز، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى فيها سنة (٦٥٨)هـ [معجم المؤلفين (٦/ ٩٧) ، الأعلام(٤/ ١١٠)].

القليلُ ، جَمعُ زُمْرَةٍ ، واشْتِقَاقِهَا منَ الزَّمْرِ وَهوَ القُوةُ إِذِ الجَمَاعةُ لَا يخلونَ عنها ، أَو مِنْ قَولِهم : شَاةٌ زِمِرَةٌ؛ أي قَلِيلَةُ الشَّعرِ ، وَرَجلٌ زَمِرٌ أَيْ قَلِيلُ المُرُوءَةِ [١].

وقالَ اللهُ تبارك وتعالى منوهاً بشرفِ التقوى وفضلها:﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف: ١٠٩]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠]، وقالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾[يوسف: ٥٧] ، وَقالَ اللهُ تبَارَكَ وتَعَالَى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الشعراء: ٩٠]. وقالَ اللهُ سبحانه وتَعَالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ ﴾ [الرعد: ٣٥]، وَقالَ اللهُ تبارك وتَعَالَى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣١]. وهذه من الآياتِ الدَّالةِ على فَضِيلةِ التَّقوى أي هَكذَا يَكونُ جَزاءُ المتَّقينَ ثُمَّ عادَ سُبحانَه وتَعالى إلى وصْفِ المتَّقينَ في الآيةِ الكَرِيمَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢]، يَعْنِي فِي الدُّنيَا مِنَ الأَعمَالِ الصَّالحةِ. وقالَ الإمامُ البَيضَاوِي رحمهُ اللهُ تعالى: "ادخُلُوا الجَنَّةَ حينَ تُبعَثُونَ فإنَّها مُعَدَّةٌ لَكم عَلى أَعمَالِكم"[٢]. وقِيلَ: إنما هَذا في المتوفَّى وفَاةَ الحَشْرِ لِأَنَّ الأَمرَ بِالدُّخُولِ إنَّما يكونُ حِينَئِذٍ.

وقَالَ الإمام الخَازِنُ رحمهُ اللهُ [٣]: "إِنْ قُلتَ كيفَ يُجمَعُ بينَ قولِه تَعالى :﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢]، وبَينَ قَولِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليهِ وَآلِه وَصَحْبِه

---

(١) تفسير البيضاوي [٧/ ٣٥٣] .

(٢) تفسير البيضاوي [٥/ ٣٢٧] .

(٣) الإمام العلامة أبو الحسين علاء الدين علي بن محمد بن ابراهيم الشيحي، فقيه ومفسر صوفي، محدث ومؤرخ، ولد ببغداد سنة (٦٧٨)هـ، قدم إلى دمشق ووليَ خزانة الكتب، فسمي الخازن لتوليه ذلك، له تصانيف كثيرة ، أشهرها وأبرزها التفسير المسمى بـ «التأويل لمعالم التنزيل»، وكان حسن السمت والبشر والتودد ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بحلب سنة (٧٤١)هـ. [الدرر الكامنة (٣/ ٥٨)، معجم المؤلفين (٧١٧٨)].

وَسَلَّمَ: «لَنْ يَدخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الجنَّةَ بِعَمَلِه، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ : وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلِه ورَحْمَتِه»(١) أَخرَجَاه في الصَّحِيحين.

وقَالَ الشَّيخُ محُيِي الدِّينِ النَّوَوي رحمهُ اللهُ تعالى في شَرحِ صَحِيحِ مُسلمٍ رحمهُ اللهُ تعالى: " اعْلَم أَنَّ مَذهَبَ أَهلِ السُّنَةِ أَنَّه لَا يَثْبُتُ بِالعَقْلِ ثَوابٌ وَلَا عِقَابٌ ولَا إِيجابٌ وَلَا تحَرِيمٌ وَلَا غَيرُ ذَلكَ مِنْ أَنوَاعِ التَّكلِيفِ عَليه بِشَيءٍ سُبحَانه وتعالى ، بَل العَالمُ كُلُّه مُلكَه ، وَالدَّنيَا والآخِرَة في سُلطَانِه ؛ يَفْعَلُ فيهَا كَيفَ مَا يَشَاءُ ، فَلَو عَذَّبَ المطِيعِينَ وَالصَّالحِينَ وأَدخَلَهُم النَّارَ ؛ كَانَ ذَلكَ عَدلاً مِنْهُ سُبحَانه وتعالى وإِذَا أَكرَمَهُم ورَحِمَهُم وأَدْخَلَهُم الجَنَّةَ فَهُو فَضْلٌ مِنْهُ عزَّ وجَلَّ ، ولَو نَعَّمَ الكَافِرينَ وأَدخَلَهُم الجَنَّةَ كَانَ ذَلكَ لَه ، ولَكنَّه تَعَالى أَخْبَر - وخَبَرُه صدق - أَنَّه لَا يَفْعَلُ هَذا بَلْ يَغفِرُ لِلمؤمِنينَ ، ويُدخِلُهُم الجَنَّةَ بِرحمتِه ، ويُعذِّبُ الكَافرينَ ويُدخِلُهُم النَّارَ عَدلاً مِنهُ. وأَمَّا المُعْتَزِلَةُ(٢)

---

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤٦٣) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) عن أَبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، وأخرجه أيضا الإمام أحمد في مسنده برقم (٢٤٩٤١) ، عن عائشة رضيَ اللهُ تعالى عنها بسند صحيح.

(٢) **المعتزلة** : هي فرقة كلامية ظهرت في أواخر العصر الأموي ، ثم ازدهرت في العصر العباسي ، اعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم ، وقدموا العقل على النقل ، وقالوا : أن العقل والفطرة السليمة قادران على تمييز الحلال من الحرام بشكل تلقائي، ويعتقد أن اول ظهور لهم كان في البصرة من أرض العراق ثم انتشرت أفكارهم في مختلف مناطق الدولة الاسلامية آنذاك .. وقد انطوى تراث المعتزلة قرونا عدة ولم يعرف عنه سوى كتابات ممن أشاروا إليهم عبورا أو ممن عارضوهم وفندوا أراءهم إلى أن اكتشف مصادفة قبل بضعة عقود في اليمن أهم كتاب في مذهب المعتزلة وهو كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل" للقاضي عبد الجبار. والسبب في تسميتهم بالمعتزلة نسبة إلى عمرو بن عبيدة لأنه اعتزل مجلس الحسن البصري رحمَهُ اللهُ تعالى مع جماعة له فسمو بذلك المعتزلة ، وقيل سموا معتزلة لأن المسلمين لما اختلفوا في أهل الكبائر، فقالت الخوارج: هم كفار مشركون. وقالت المرجية: إنهم مؤمنون لإقرارهم بالله ورسوله وبكتابه، وبما جاء به رسوله، وإن لم يعملوا به. وقالت المعتزلة: إنهم فساق؛ فاعتزلوا القولين وقالوا بالمنزلة بين المنزلتين، فسموا المعتزلة لذلك. ومن الناس من يقول: سموا معتزلة لاعتزالهم علي بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنه في حروبه، ويذكر البعضُ أسباباً أخرى لتسميتهم.

فَيُثبتُونَ الأَحكَامَ بِالعَقلِ ويُوجِبُونَ صَوابَ الأَعمالِ ويُوجِبُونَ الأَصْلَحَ في خطأٍ طَويلٍ لهَم، تَعالَى الله سُبحَانَه عَنْ اخْتِرَاعَاتِهم البَاطِلةِ النَّابِذَةِ لِنُصُوصِ الشَّرْعِ، وَفِي ظَاهِرِ الأَحَادِيثِ دَلَالَةٌ لِأَهْلِ الحَقِّ أَنَّه لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ الثَّوَابَ والجنَّةَ بِطَاعَةٍ "[1].

وأَمَّا قُولُه تَعَالَى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢]، وقُولُه تَعَالَى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٢]، ونَحْوهَا مِنَ الآياتِ التِي تَدُلُّ عَلى أَنَّ الأَعمَالَ يُدخَلُ بِهَا الجنةَ، فَلا تعَارُضَ بَينَها وبَينَ هَذا الحَديثِ، بَلْ معنى الآياتِ دُخُولُ الجنَّةِ بِسَببِ الأَعمَالِ، ثُمَّ التَّوفِيقُ لِلأَعمَالِ والهِدَايَةِ ولِلإِخْلاصِ فيهَا وقَبُولُها بِرحمَةِ الله تَعالى وفَضْلِه، فَيُصْبِحُ أَنَّه لمْ يُدْخَلِ الجنَّةَ بِمُجَرَّدِ العَمَلِ، وهو مُرَادُ الحَدِيثِ، ويَصِحُّ أَنَّه دَخَلَ بِالأَعمَالِ؛ أَيْ بِسَبَبِهَا وهيَ مِنَ الرَّحمَةِ والفَضْلِ، والله سُبحَانَه وتَعَالى أَعْلَم[2].

وَبِالجُمْلَةِ فَالتَّقْوَى مُنْتَهَى دَرَجَاتِ السَّالِكِينَ، وَوَصِيَّةُ الله لِلأَوَلِينَ وَالآخِرِينَ، وَعَن سَيِّدِنَا عَلِيٍّ[3] كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ورَضِيَ عَنه عَن رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليهِ وَآلِه وَسَلَّمَ

---

(١) تفسير الخازن (٥/ ٣٦٥)، وشرح صحيح مسلم للإمام النووي (٩/ ١٧٩).

(٢) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التأويل (٣/ ٧٥).

(٣) هو سيدنا أمير المؤمنين أبو الحسن الإمام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي رضيَ اللهُ تعالى عنه وكرم وجهه، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة والسابقين إلى الإسلام، ابن عم النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، وزوج ابنته فاطمة الزهراء رضيَ اللهُ تعالى عنها، باب مدينة العلم، أحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين، ولد قبل البعثة بعشر سنين وشهد المشاهد كلها إلا تبوك فإن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم استخلفه فيها على المدينة، حمل اللواء في مواطن كثيرة وله فيها آثار مشهورة في الشجاعة، كان معروفاً بالقضاء وسعة العلم، وفضائله أكثر من أن تحصر، روى (٥٣٧) حديثاً، توفي رضيَ اللهُ تعالى شهيداً، قتله أشقى الآخرين ابن ملجم، بمسجد الكوفة في شهر رمضان سنة (٤٠)هـ.[تاريخ الخلفاء، ص(٢٨٢)].

أَنَّه قَالَ: «مَنِ اتَّقَى الله عَاشَ قَوِّيَاً وَسَارَ فِي بِلَادِ الله آمِنَاً» [١] ، والكَلَامُ فِي التَّقْوَى كَثِيرٌ، يَقُولُ ابنُ الوَرْدِي[٢] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: [من الوافر]

يُرِيدُ المَرءُ أَن يُعطَى مُنَاهُ ... وَيَأْبَى الله إِلّا مَا أَرَادَه
يَقُولُ المَرءُ فَائِدَتِي وَمَالِي ... وَتَقوى الله أَفضَلُ مَا اسْتَفَادَه[٣]

وقَالَ ابنُ الجَوزِي[٤] رحمهُ اللهُ: قال بعضُ العُلماءِ لِبعضِ الأَشْرَافِ: "شَرَفُكَ يحتَاجُ إِلى تَقْوى وصَاحِبُ التَّقوى لَا يَحتَاجُ إِلى شَرَفِك"[٥]، وما أحسن ما قيل:[من الرجز]

مَنْ عَرَفَ اللهَ فَلَمْ تُغْنِه ... مَعرِفَةُ الله فَذَاكَ الشَّقِي[٦]
مَا ضَرَّ ذَا الطَّاعَةِ مَا نَالَه ... فِي خِدْمَةِ المَولَى وَمَاذَا لَقِي
مَا يَصْنَعُ الْعَبدُ بِعِزِّ الْغِنَى ... وَالْعِزُّ كُلُّ العِزِّ لِلمُتَّقِي

---

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء [٢/ ١٧٥] ، عن سيدنا علي بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنه. وذكره السخاوي في المقاصد برقم(٣٤٣)، بلفظ: «مَنِ اتَّقَى الله عَاشَ قَوِّيَاً وَسَارَ فِي بِلَادِ عَدُوِّه آمِنَاً»، وعزاه للعسكري، وذكره العجلوني في كشف الخفاء[١/ ٢٧٩]رقم(١٠٠٥) بنفس اللفظ والعزو السابق.

(٢) هو الإمام زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن الوردي المعري الكندي ، شاعر وأديب ، مؤرخ وفقيه ، ولد في معرة النعمان - بسوريا - سنة (٦٩١)هـ ، تفنن في العلوم وأجاد في المنثور والمنظوم ، كان من فضلاء عصره وفقهائهم ، ولي القضاء وله مصنفات كثيرة في عدة فنون ، ومن أشهر مصنفاته منظومة "البهجة الوردية في الفقه الشافعي " ، وشرح ألفية ابن مالك ، ومنظومة منطق الطير في التصوف ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى مطعوناً سنة (٧٤٩)هـ. [الأعلام (٥/ ٦٧) ، فوات الوفيات (٣/ ١٥٧)].

(٣) البيتان للإمام الشافعي وهما في ديوانه ص : (١٨٩).

(٤) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الحنبلي المعروف بابن الجوزي إمام حافظ واعظ ومحدث، ولد سنة (٥١٠) هـ بفَرَضَةِ الجوز ببغداد، له نحواً من ثلاثمائة مصنف في عدة فنون، كان له مجلس وعظ يحضره الملوك والوزراء وربما حضره مائة ألف، توفي رحمَهُ اللهُ سنة(٥٩٧)هـ، [البداية والنهاية(١٣/ ٣١)].

(٥) انظر كتاب تنوير الغبش في فضل السودان والحبش ، لجمال الدين ابن الجوزي، (١/ ٥٦) .

(٦) الأبيات لسيدنا الإمام الحسين بن علي رضيَ اللهُ عنهما، كما في كتاب " الاحتجاج "ص: (٣١٧).

ومَا أَلطَفَ مَا قَالَه بُعْضُهُم ، فِي مَدْحِ المتَّقِينَ ، وذَمِّ الغَافِلِينَ: [من الطويل]

تَشَاغَلَ فِي الدُّنْيَا أُنَاسٌ فَأَصْبَحُوا ... عَنِ البَابِ مَحْجُوبِينَ قَد مُنعُوا القُرْبَا

وأهلُ التُّقى لله تَسْرِي نُفُوسُهُم ... إلى غَايَةٍ نَالُوا بِهَا المشْرَبَ العَذْبَا

فَجَالوْا بنُورِ العِلمِ في رَوضةِ البَقَا ... بها أَنفُسُ الأبْرَارِ قَد مُلِئَتْ حُبَّا

هُمُواْ قَطَعُوا الدُّنيَا بخوفٍ وعِيدِهِم ... فَذِكْرُهُمُ لِلموتِ أَورَثَهم كَربَا(١)

وقال الآخر : [من الطويل]

ولا عيشَ إلا مَعْ رجَالٍ قلوبُهُم ... تَحِنُّ إلى التَّقْوى وتَرتَاحُ للذِّكرِ(٢)

وقال سَيدي حُجَّةُ الإسلامِ الغَزالي رحمهُ اللهُ تعالى: "اعلمْ أنَّ التَّقوى كنزٌ عزيزٌ ، فلئنْ ظفرتَ به فكم تَجِدُ فيه من جوهرٍ شَريفٍ ، وعلوٍّ وعلمٍ جسيمٍ ، وملكٍ عظيمٍ ، فكأَنَّ خيراتِ الدنيا والآخرةِ جُمعتْ في هذهِ الخَصلَةِ التَّي هيَ التَّقوَى ، وتَأَمَّل ما في القُرآنِ الكريم كَمْ عَلَّقَ بها من خير، وكم وَعَدَ عَليها منْ ثوابٍ وكم أضافَ إليها من سَعَادةٍ ".اهـ(٣). وقالَ بعضُ العَارفينَ: "مَنْ أَخرَجَه الله من ذُلِّ المعصيةِ بِعِزِّ التَّقوى، أَغْنَاهُ بلا مالٍ وأَعَزَّه بلا جاهٍ ولا عَشيرةٍ، وآنسه بلا أَنيسٍ"(٤) .

---

(١) الأبيات لم أعثر على قائلها، وقد ذكرها الإمام محمد بن عمر (بحرق) في كتابه [الحديقة الأنيقة شرح العروة الوثيقة ، ص: (٤٦)] .

(٢) البيت لذي النون المصري وبعده يقول : [من الطويل]

سكون إلى روح اليقين وطيبه ... كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر

فأجسامهم أرضية وقلوبهم ... سماوية تسري إلى معدن الذكر

كما نسبها له الإمام القشيري في الرسالة القشيرية ، ص : (١٧٣) .

(٣) انظر كتاب "منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين"، للإمام الغزالي ص : (٩٧).

(٤) من كلام الإمام العارف بالله جعفر بن محمد ، انظر كتاب شعب الإيمان (٧٢٤١) [٥/ ٤٥٠].

ويقول سيدي وولي أمري الحبيب عبد الله بن علوي الحداد[١] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه ونفعنا به وبعلومه في الدارين آمين : [من الكامل]

والقَصـــدُ ذِكـــرُ نصـــيحةٍ وَوَصـــيَّةٍ ... للـــنَّفسِ والإِخـــوانِ إنْ كـــانواْ مَعِـــي
تَقـــوى إلـــهِ العَـالمـــينَ فإِنَّـــها ... عـــزٌ وحِـــرْزٌ في الدُّنـــا والمـــَرجِعِ
فيهَـا غِنَـى الـدَّارينِ فَاسْتَمْسِـكْ بهَـا ... والْـزَمْ تَنَـلْ مَـا تَشْتَهِيـهِ وتَـدَّعِي[٢]

ويقول رَضِيَ اللهُ تعالى عنه : [من الطويل]

عَـليـكَ بِتَـقْوى الله في الـسِّرِّ والـعَـلَـنْ ... وقَلبكَ نَظِّفـهُ مـنَ الـرِّجسِ والـدَّرَنْ[٣]
وخَالفْ هوى النَّفسِ التِي ليسَ قَصْدُها ... سِوى الجمعِ للـدَّارِ التِي حَشـوُهَا المِحَـنْ

---

(١) هو الإمام العلامة، العالم الرباني الزاهد الورع، قطب الدعوة والإرشاد، المجدد المجتهد، القطب عبدالله بن علوي بن محمد بن أحمد الحداد باعلوي، الحسيني، التريمي، الشافعي، محيي السنة، ومقدم أهل التوحيد، وكبير مشايخ الإسلام، ولد بمنطقة السبير من ضواحي مدينة تريم بحضرموت، في ليلة الاثنين الخامس من شهر صفر، سنة (١٠٤٤)هـ، حفظ القرآن الكريم واشتغل بطلب العلم من صباه، وصحب أكابر العلماء وأخذ عنهم، كفّ بصره وهو في سن الرابعة من العمر فأبدله الله سبحانه نورا في البصيرة ، كان يتنفل في بعض المساجد بعد خروجه من المعلامة في صباه فيصلي فيها مائة أو مائتين ركعة، عاش ملازماً لِلْجِّدِ والاجتهاد جامعاً بين العلم والعمل، وتخرج على يديه الكثير من الأئمة، وله مؤلفات عديدة نافعة ترجم الكثير منها إلى عدة لغات، وله ديوان عظيم المقدار وتردد قصائده في كثير من الأقطار، شيوخه كثيرون وتلامذته أكثر، وقد أفردت عدة مصنفات في ترجمته مع أنه أشهر من يترجم له، وتوفي رحمَهُ اللهُ تعالى بالحاوي في تريم، ليلة الثلاثاء في السابع من شهر ذي القعدة سنة (١١٣٢)هـ، عن عمر قارب التسعين عاما قضاه في نشر العلوم الإسلامية والدعوة إلى الله تعالى ودفن بمقبرة زنبل وقبره يزار [سلك الدرر (٣/ ٩١)، تاريخ الشعراء (٢/ ٢٤)].

(٢) ديوان الإمام الحداد ، ص: (٣٦٤).

(٣) ديوان الإمام الحداد ، ص: (٥٠٤).

وهَاتانِ البَيتَانِ منْ قَصِيدَةٍ كبيرةٍ شَرحَهَا سيدُنَا الإمامُ العَارفُ بالله تعالى أحمد بن زين الحبشي[١] نفع الله تعالى به، شرحاً عَجِيباً وسماه "سَبيلَ الرُّشدِ والهِدَايةِ "، وخمسَّهَا سَيدُنَا العَلاَّمَةُ الصُّوفي ، الدَّاعي إلى الله تعالى في عصره ، وأكملُ المرشدينَ إلى الله تعالى في سِرِّه وجَهْرِه ، القطب أحمد بن عمر بن زين بن سميط[٢] نفعنا الله تعالى به وبسائر الصَّالحين ، ولنُورِدها بِرِمَّتِهَا معَ التَّخميسِ تكميلاً للفائدةِ .

قال أَذَاقَنا الله تعالى من حلاوة مشربه ، ونفعنا به : [من الطويل]

أُخَيَّ إذا شِئْتَ الهِدَايةَ والمنَنْ وَتُكفَى جَميعَ الشَّرِّ والضُّرِّ والمِحَنْ
فَخُذْ قولَ حدَّادِ القلوبِ أَبي الحسَنْ عَليكَ بِتَقْوى الله في السِّرِّ والعَلَنْ
وقَلبكَ نَظِّفهُ منَ الرِّجسِ والدَّرَنْ

وجَاهدْ هوى الشيطانِ والنَّفسَ صُدَّهَا عنِ البَغيِ وارْدَعهَا إذا رُمتَ رُشْدَها
وشَهَواتِهَا امْنعهَا ولا تَكُ عَبْدَهَا وخَالفْ هوى النَّفسِ التِي ليسَ قَصْدُها

---

(١) هو الإمام العلامة العارف بالله تعالى أحمد بن زين بن علوي بن أحمد الحبشي العلوي ، إمام فاضل ، صوفي وفقيه ، ولد في مدينة الغُرفة من بلاد حضرموت سنة (١٠٦٩) هـ ونشأ بها ، حفظ القرآن الكريم وجد في طلب العلوم ، كان كثير التنقل في بلدان حضرموت ، وله عدة مؤلفات، ومن أشهر مؤلفاته السفينة الكبرى في عشرين مجلد ، وشرح العينية ، بنى أكثر من عشرة مساجد في نواحي حضرموت ، وتوفي رحمَهُ اللهُ تعالى بالحوطة سنة (١١٤٥)هـ ، [الأعلام ، (١/ ١٢٩) ، معجم المؤلفين(١/ ٢٢٨)].

(٢) هو الإمام العلامة الحبيب الداعية أحمد بن عمر بن زين بن علوي بن سميط العلوي الحسيني، من أساطين الأئمة الربانين وشيوخ الإسلام المرشدين، ولد بمدينة شبام بحضرموت سنة (١١٨٣)هـ ونشأ بها، تلقى الكثير من العلوم على أبيه وعلى غيره من الشيوخ، كان كثير المثابرة في السعي إلى الإصلاح بين الناس والدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وكان لمواعظه التأثير العميق في النفوس، له ديوان عظيم النفع، ولم يكن مكثرا من التأليف والكتب، وذلك لانشغاله بتأليف القلوب، توفي رحمَهُ اللهُ في مدينة شبام سنة (١٢٥٧) هـ . [تاريخ الشعراء الحضرميين (٣/ ٩٧)].

سِوى الجمعِ لِلدَّارِ التي حَشوُهَا المِحَنْ

وكُنْ للرِّجَالِ العَارِفِيـن مُسَـوِّدَا بِصُحبَتِهِمْ تَنْجُو وتُحْمَى مِنَ الرَّدَى
كَكَلبِ أُهيلِ الكهفِ إِذْ صَارَ أَسعَدَا واصْحَبْ ذَوي المعروفِ والعِلمِ والهُدى

وَ جَانِبْ ولا تِصحبْ هُدِيتَ مَن افتَتَنْ

وإِنْ شِئتَ أَنْ تُضحِي وتُمسِي مُكَرَّمَا فَلا تَحسَدَنْ مَنْ ذُو الجَلَالَةِ أَكرَمَا
وسَل رَبَّكَ الرَّحمَنَ فَضْلاً مُعَظَّما وإِنْ تَرْضَ بِالمقْسُومِ عِشْتَ مُنَعَّما

و إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرضَى بهِ عِشتَ في حَزَنْ

أَرَى الزُّهدَ في الدُّنيا أَجَلُّ الوسَائلِ لأَهلِ التُّقى والعِلمِ من كُلِّ فَاضِلِ
بِه قَدْ أَقَامُواْ لِلصَّلاة وسَائلِ وصَلِّ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ غَيرِ غَافِلِ

ولا تَلْهُ عنْ ذِكْرِ المقَابِرِ وَالكَفَن

وإِن رُمتَ فِي الأَخرى عَظيمَ كَرَامةٍ فَما رُمْتَ فِي الدُّنيا فكنْ ذَا اسْتِقامَةٍ
وصَبْرَاً عَلى العَيشِ الشَّديدِ وفَاقَةٍ ومَا هَذِه الدُّنيا بِدَارِ إِقامَةٍ

وَ مَا هِيَ إِلا كَالطَّريقِ إلى الوَطَنْ

وفَارِقْ قَرِينَ الحِرصِ دُمتَ مُوَفَّقا ورَافِقْ قَرينَ العِلمِ والزُّهدِ والتُّقَى
تَنَلْ رَاحةَ الدُّنيا وتَنجُو منَ الشَّقا ومَا الدَّارُ إِلا جَنَّةٌ لمنِ اتَّقَى

و نَارٌ لمنْ لم يَتَّقِ الله فاسْمَعَنْ

سَأَلتُكَ يَا رَبِّي رضَاكَ بِلا عَنا وجَنَّتَكَ الفِردَوسَ حَاليةَ الجنَا
لنَا ولمنْ فِيكَ إِلهي أَحبَّنا فَيا رَبِّ عَاملنَا بِلطْفِكَ واكْفِنا

بِجُودِكَ واعْصِمْنا مِنَ الزَّيغِ والفِتَنْ

إِلهي وسَخِّرْ وَالياً عَادِلاً لَنا لِتُصْلَحَ دُنيَانا ويُحفظَ دِينُنا

بِفَضْـلِكَ أَلهمْنَـا الـذِي فِيـه رُشْـدُنا وَوَفِّـقْ وسَـدِّدْ واصْـلِحِ الكُـلَّ واهْـدِنا
لِسُنَّـةِ خَيرِ الخَـلقِ والسَّيـدِ الحسَنْ

و بَلِّـغْ عُبَيـدَ السُّـوءِ فَضْـلاً مَرَامَـه فَقَـدْ بَـاءَ بِالعِصْـيَانِ والعَفْـوَ رَامَـه
بأَحمَـدٍ المحْمُـودِ حَقَّـاً مَقَامَـه عَلَيـهِ صَـلَاةُ الله تَتْلُـو سَـلَامَه
صَلاةً وتَسْلِيماً إِلى آخِرِ الزَّمَنْ[1]

وقد ذكرَ العَلاَّمَةُ المحققُ محمدُ بنُ عمر بحرق الحضرمي[2] نفعَ الله تعالى به في كتابه "الحديقةُ الأَنيقةُ" ما حاصِله أَنَّ جميعَ المقاماتِ مُندَرِجَةٌ في اسمِ التَّقوى ، قال: "

---

(١) وهناك تخميس آخر للحبيب جعفر الجفري المتوفى: سنة (١٢٣٩) هـ ، ومطلع تخميسه : [من الطويل]

إذا شئت أن تحيا سعيدا مدى الزمن وتدخل جنات النعيم وتخلدن
فقد قال سيدنا القطب أبو الحسن عليك بتقوى الله في السر والعلن
وقلبك نظفه من الرجس والدرن

و خمسها أيضا الحبيب الحسن بن صالح البحر المتوفي سنة : (١٢٧٣) هـ ، ومطلع تخمسيه : [من الطويل]

إذا شئت أن تدعى حميدا ومؤتمن و تنبو بعز في العشيرة والخدن
وتسكن في جنات عدن وتخلدن عليك بتقوى الله في السر والعلن
وقلبك نظفه من الرجس والدرن

وله أيضا تخميس آخر مطلعه : [من الطويل]

إذا شئت ملكا سرمديا بلا ظعن بجنات عدن سعد من هي له وطن
وتدعى عظيما في الوجود ومؤتمن عليك بتقوى الله في السر والعلن
وقلبك نظفه من الرجس والدرن

(٢) هو العلامة الأديب المحقق محمد بن عمر بن مبارك، الحضرمي، الشافعي، علَّامَة اليمن الشهير بـ(بَحْرَق)، فقيه وصوفي وباحث، ولد بحضرموت سنة(٧٦٩)هـ ونشأ بها، حفظ القرآن الكريم واشتغل بطلب العلم حتى صار من العلماء الراسخين والأئمة المتبحرين كان حسن النظم وجيز العبارة له نحو من ثلاثين مصنفاً في كثير من الفنون ، تولى قضاء الشحر مدة ثم عزل نفسه ورحل إلى الهند فأكرمه سلطانها وبقي هناك إلى أن توفي بها سنة (٩٣٠)هـ، [الأعلام (٦/ ٣١٥)، النور السافر، ص: (١٣٣)].

وقَريبٌ من معنى التقوى، لفظة البرِّ، إلا أنَّ دلالةَ البرِّ بالمطَابقةِ على فعلِ المأموراتِ الشَّرعيةِ كلِّها ، وعلى ترك المنهيَّاتِ بالملازمةِ "[1] اهـ .

وهو غير ظاهر، ولعلَّ الصواب كما يظهر؛ أنَّ دَلالةَ التَّقوى على فعلِ المأموراتِ بحيثُ يَلزمُ من تَصَورِ الملزُومِ واللَّازمِ وجودُ اللزُومِ بينهما عقلاً ، ولو قلنا بِدَلالةِ التَّقوى على تركِ المنهياتِ والالتزامِ ، فأَيُّ لزومٍ عقلاً بينَ تركِ المنهيَّاتِ والامتثالِ عقلاً حتى يَحكمَ العقلُ بلزومِ الامتثالِ كتركِ المنهيَّاتِ .

ومما تَقَرَّرَ يُعلمُ أنَّ: التقوى عبارةٌ عنِ الامتثَالِ والتَّركِ، ومفهومُ التَّقوى مُركبٌ منهما، قال سَيدي عبدُ الله بنُ عَلوي الحدَّاد رَضِيَ اللهُ تعالى عنه : " والتَّقوى عبارةٌ عنِ امتثالِ أَوامرِ الله ، واجتنابِ محارمِهِ ظاهراً وباطناً ، مع استشعارِ التَّعظيمِ لله ، والهيبةِ والخشيَةِ والرَّهبَةِ"[2].

وقال بعضُهُم هيَ أَربعةٌ : "إِقامةُ التَّفويضِ ، واجتنابُ المحَارِمِ ، واتباعُ السُّنةِ ، ولزُومُ البَابِ " ، وقالَ بعضُهم : " لو لمْ يَكنْ في التَّقوى سِوى قولِ الله تبارك وتَعَالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[يونس: ٦٣ - ٦٤] لَكَفَتْ ".

وقال سيدي الإمامُ الغَزالي رحمهُ اللهُ : " أَليسَ الله سُبحانَه وتعالى أَعلَمَ بصلاحِ العبدِ ، وأَنصَحَ له وأَرحَمَ من كُلِّ أَحدٍ، ولو كَانتْ في العَالمِ خَصْلةٌ هيَ أَصلَحُ للعبدِ ، وأَجمعُ للخيرِ وأَعظمُ للأَجرِ ، وأَجَلُّ في العُبُوديَّةِ منْ هذه الخَصلةِ التِي هيَ التَّقوى لأَوصَى بهَا عِبادَه لكمالِ حِكمتِه وسِعةِ رَحمتِه ، فَلمَّا جمعَ الله عزَّ وجلَّ في هَذه الخصْلَةِ

(١) الحديقة الأنيقة بشرح العروة الوثيقة ، صفحة : (٤٩).

(٢) النصائح الدينية والوصايا الإيمانية ، صفحة (١٢).

الأَولينَ والآخرِينَ، واقْتَصَرَ عَليها عُلِمَ أَنَّها الغَايةُ التي لا يُتَجَاوَزُ عنْهَا، وأَنه تعَالى قد جمعَ كُلَّ نُصْحٍ وإِرشادٍ وتَأدِيبٍ وتَعلِيمٍ في هذه الوَصِيَّةِ الوَاحِدَةِ كَما يَليقُ بِحكمَتِهِ"[١].اهـ.

❁ ❁ ❁

حَقِيقَةُ الوَرَع

أمَّا الورعُ فقد وردَ فيه ؛ ما فيه الكفَايةُ ، ففي الحديثِ عنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ» [٢] وفي الحديثِ أَيضاً « لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأْسٌ» [٣]. فتركُ الرِّيبةِ في العبَاداتِ والمعَاملاتِ وسائرِ أَبوابِ الأَحكامِ على يقينِ الحِلِّ ؛ هو الورعُ المحمودُ ، العَمِيمُ النَّفعِ ، العَظيمُ الجَدْوَى في الدنيا والآخرةِ ، ثم إنَّ الورعَ عَامٌّ وخاصٌّ ، فالعامُّ هو التَّورعُ عما يوجبُ الفِسقَ ، وذلكَ ما يحرمه الفقهاءُ شرعا.

وأَما الورعُ الخاصُّ ، فهو على ثلاثِ درجاتٍ :

الأولى: ورعُ الصالحينَ، المشَارُ إِليه بقوله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم: « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ» وهو الحذرُ عما يَطرقُ إليه احتمالُ التَّحريمِ، وإِنْ أَفتى المفتي بحله بناءً على الظَّاهرِ، لأَنَّ مَطْمَعُ الفقيهِ إِلى ظاهرِ الأَمرِ، كمن أَساءَ مُعاشرةَ زوجتِهِ حتى تُبرئَه منَ المهْرِ فَيُفتي الفقيهُ أَنَّ الإِبراءَ صحيحٌ ، مع أَنه لا يحلُّ للمُبرَئ المهرُ بينه وبينَ الله تعالى.

---

(١) منهاج العابدين للإمام الغزالي ، صفحة (١٠٠).

(٢) حديث صحيح أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣٩٩) ، عن وابصة بن معبد رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وأخرجه الترمذي (٢٥١٨) ، والنسائي (٥٧٢٧)عن الحسن بن علي رضيَ اللهُ تعالى عنهما .

(٣) أخرجه الإمام الحاكم في مستدركه [٤/ ٣١٩] ، وابن ماجة في سننه (٤٢١٥) ، والترمذي (٢٤٥١) ، عن عطية السعدي رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وقال الترمذي حديث حسن .

الثانية: ورعُ المتقينَ ، المشارُ إليه بقوله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: « لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأْسٌ».

قال الإمام المناوي[١]رحمهُ اللهُ تبارك وتعالى: "أَنْ يتركَ فُضُولَ الحلالِ حذراً منَ الوقوعِ في الحرامِ"[٢]، ويَكُون من هذا القَبِيلِ تَركُ النَّظرِ إلى التَجَمُّلِ من أهلِ الدنيا، فإنه يَجرُّ داعيةَ الرَّغبةِ فيها.

الثالثة: ورعُ الصِّديقينَ ، وهوَ صحةُ اليقينِ وكمالُ التَّعلقِ بربِّ العَالمينَ وعُكُوفُ الهمَّةِ عليه ، وهذه رُتبةُ قومٍ عَدَّوْا كلَّ ما لم يكنْ لله تعالى حراماً ، فاجتنبواْ كلَّ ما لا يُرادُ بتناولِه القوةُ على طاعةِ الله تعالى، وهؤلاءِ قد ذهبَ مُعظَمُهم بَلْ ولا يَكَادُ يُوجدُ أَحدٌ منهم، فالفالحُ في زَمانِنَا من كانَ ورعُه ورعَ العُدولِ غيرَ مُشَدِّدٍ على نفسه ، فيقُولُ أَموالُ الدنيا كُلُّها حرامٌ ، لكثرةِ الأَيدي الغَاصبةِ والمعاملاتِ الفاسِدةِ ، بل يُراجعُ القلبَ مُسترشداً بقوله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ» [٣] ، إذِ الإنسانُ غيرُ مُتَعَبَّدٍ في نفسِ الأَمر بما هو حلالٌ ، بل

---

(١) هو الإمام العلامة زين الدين عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي زين العابدين الحدادي المناوي الشافعي، إمام فاضل، حجة وثبت، قدوة وعَلَمٌ عظيم، ولد سنة (٩٥٢)هـ، حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه، ثم حفظ البهجة وغيرها من متون الشافعية، اشتغل بشتى فنون العلم وأخذها عن علماء عصره، وله مصنفات عديدة متداولة وكثيرة النفع، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بالقاهرة سنة(١٠٣١)هـ،[خلاصة الأثر(٢/ ٤١٢)، معجم المؤلفين(٥/ ٢٢٠)].

(٢) انظر فيض القدير [٦/ ٥٧٣].

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده [٢٩/ ٥٣٣] برقم (٢٤٩٤١) ، والدارمي في مسنده [٢/ ٢٤٦] برقم (٢٥٧٥) ، عن وابصة بن معبد رضيَ اللهُ تعالى عنه ، بإسناد حسن .

بما هو في اعتقادِه أَنَّه حلالٌ ، ما لم يَبِنْ له شيءٌ ظاهرٌ في تحريمهِ ، وهذا بابٌ واسعٌ ، وقد أجابَ عنه بالتوسيعِ الإمامُ الغزالي رحمهُ اللهُ تعالى ، فاطلبه في مؤلفاته[١] .

وقد وردَ عن أبي ذرٍ[٢] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه، أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ»[٣]، وقال بعضُ مشايخنا رَضِيَ اللهُ عنهم: " أَمَّا الوَرعُ فَتركُ الشُّبهَاتِ "، ولقد قال سيدي الإمامُ الزاهدُ إبراهيمُ بن أدهم[٤] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه " الوَرعُ تركُ كلِّ شبهةٍ ، وتركُ ما لا يَعنِيكَ ،

---

(١) انظر كتاب الحلال والحرام في ربع العادات من كتاب إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٣).

(٢) سيدنا أبو ذر جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد الغفاري، صحابي جليل أحد السابقين إلى الإسلام، أسلم والنبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم بمكة أول الإسلام فكان رابع أربعة، وهو أول من حيا رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم بتحية الإسلام ولما أسلم رجع إلى بلاد قومه فأقام بها حتى هاجر النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم فأتاه إلى المدينة، وصحبه إلى أن مات وبايع النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم على أن لا تأخذه في الله لومة لائم وعلى أن يقول الحق وإن كان مرا، كان رأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل، قوالاً بالحق، قَالَ فيه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم: «مَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ وَلاَ أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرٍ»، فكان يضرب به المثل في الصدق، روى(٢٨١)حديثاً، توفي رضيَ اللهُ عنه سنة(٣٢)هـ، [أعلام النبلاء(٢/ ٤٦)].

(٣) حديث حسن ، أخرجه الترمذي برقم (٢٣١٧) ، وابن ماجة (٣٩٧٦) ، وابن حبان (٢٢٩) ، عن سيدنا أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وأخرجه الإمام أحمد [٣/ ٢٥٩] برقم (١٧٣٧) ، والطبراني في المعجم الكبير [٣/ ١٢٨] برقم (٢٨٨٦)، وفي المعجم الصغير (١٠٨٠)عن علي بن الحسين عن أبيه رضيَ اللهُ تعالى عنهم ، مرفوعا ، ورواه الإمام مالك في الموطأ(١٦٠٤) والترمذي(٢٣١٨) ، عن علي بن الحسين رضيَ اللهُ تعالى عنهما ، مرسلا ، قال الترمذي هذا أصح عندنا من حديث أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه .

(٤) هو الإمام الزاهد الناسك أبو إسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور التيمي البلخي ، أحد الزهاد المشهورين والأولياء المعدودين ، كان من أبناء الملوك ، خرج يصطاد فهتف به هاتف أيقظه من غفلته ، فآثر الزهد والورع وكان لا يأكل إلا من عمل يده ، صاحب سفيان الثوري والفضيل بن عياض ، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار ، ولكن الزهد والعبادة شغلته عن الرواية وأخباره في ذلك مشهورة ، فقد كان ملازماً للصوم في الإقامة والسفر ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (١٦١)هـ ، [طبقات الصوفية(١/ ٣٥)] .

وهو تركُ الفَضَلاتِ "[١] . وقال أبو بكر الصديق [٢] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه : " كنَّا ندعُ تسعينَ باباً منَ الحلالِ ، مخافةَ أَنْ نقعَ في الحَرَامِ "[٣] ، وقال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم لأبي هريرة[٤] رَضِيَ اللهُ عنه : « كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ »[٥].

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ، صفحة: (٣٩١).

(٢) هو سيدنا أبو بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي، أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن برسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم من الرجال، وأحد عظماء العرب، ولد بمكة قبل النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بسنتين ونصف ونشأ بها، كان سيدا من سادات قريش، وعالما بأنساب القبائل وأخبارها، وكانت العرب تلقبه بعالم قريش. حرم على نفسه الخمر في الجاهلية، فلم يشربها، ثم كانت له في عصر النبوة مواقف كبيرة ، فشهد الحروب، واحتمل الشدائد، وبذل الاموال، بويع بالخلافة بعد وفاة النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، فحارب المرتدين والممتنعين عن دفع الزكاة ، وافتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق وكان موصوفاً بالحلم والرأفة بالعامة، خطيباً لسنا، وشجاعاً بطلا، روى(١٤٢)حديثا، توفي رضيَ اللهُ عنه في المدينة سنة (١٣) هـ، [تاريخ الخلفاء ص: (٩٩)، الأعلام ٤/ ١٠٢] .

(٣) الرسالة القشيرية ، صفحة (١٧٧).

(٤) هو سيدنا أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني ، صحابي جليل ، ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ونشأ في الجاهلية يتيما، قدم على النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم عام خيبر فأسلم ولزم صحبته، كان من أكثر الصحابة حفظا للحديث الشريف لملازمته لرسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، حيث روى عنه (٥٣٧٤) حديثاً، نقلها عن أبي هريرة أكثر من (٨٠٠) رجل بين صحابي وتابعي ، تولى إمارة المدينة مدة ، واستعمله عمر رضيَ اللهُ تعالى عنه على البحرين ثم عزله لانشغاله بالعبادة ، ثم أراده للعمل بعد زمنٍ فأبى ، توفي رضيَ اللهُ تعالى عنه سنة (٥٩)هـ . [الأعلام ٣/ ٣٠٨].

(٥) أخرجه ابن ماجة برقم (٤٢١٧)وأبو يعلى في مسنده برقم (٥٨٦٥) والحافظ أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٦٥) ، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجة(٣/ ٢٢٩) : أن اسناده حسن، وتمام الحديث « وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحْسِنْ مُجَاوَرَةَ مَنْ جَاوَرَكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَأَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ ».

وقال صاحبُ الرِّسالةِ القُشَيريةِ[1] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: "سمعتُ الشيخَ أبي عبدِ الرحمن السُّلَمي يقولُ : سمعتُ أَبي العبّاس البغدادي يقول : سمعتُ جعفرَ بنِ محمدٍ يقول : سمعتُ الجنيدَ يقولُ :سمعتُ السَّري يقولُ : "كانَ أَهلُ الورعِ في أَوقَاتِهم أَربعةٌ : حذيفةُ المرْعشِي ، ويوسفُ بنُ أَسباط ، وإِبراهيمُ بنُ أَدهم ، وسليمانُ الخواص ، فنظروا في الورعِ فلما ضَاقتْ عليهم الأُمورُ فزعواْ إلى التَّقلل ".

وقال أحمد بن الحواري: "الورعُ في المنطقِ أَشَدُّ منه في الذَّهبِ والفضةِ ، والزهدُ في الرياسةِ أشدُّ منه في الذَّهب والفضَّة ، لأَنك تَبذُلهَا في طلب الرياسةِ ". وقال سليمان الدَّاراني:" الورعُ أَولُ الزُّهدِ ، كما أنَّ القناعةَ طرفُ الرِّضَاءِ " وقال أبو عثمان: "الوَرعُ خفةُ الحسَابِ " وقال يحي بن معاذ: " الورعُ الوقوفُ على حَدِّ العِلمِ منْ غيرِ تأْويلٍ"، وقالواْ : الورعُ على وجهينِ : ورعُ الظاهر: وهو ألا يتحرك إلا لله سبحانه وتعالى ، وورع الباطن : هو ألا يَدخلَ قلبكَ سواه سبحانه تعالى ، وقال يحي بن معاذ : " منْ لم ينظرْ في الدقيقِ من الورعِ ، لم يَصلْ إلى الجليلِ من العطاءِ"، وقيل : " من دَقَّ في الدينِ نظره جَلَّ في القيامةِ خَطَرُه " ، وقال ابنُ الجلالِ : " منْ لم يصحبْه التُّقى في فقرِه أَكلَ

(١) هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري الملقب بـ "زين الإسلام"، إمام الصوفية، ومن كبار العلماء في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر، ولد بقرية تدعى "إستوا" من قرى "نيسابور" سنة (٣٤٦)هـ. توفي أبوه وهو صغير، فتعلم الأدب، والعربية، ثم رحل من "إستوا" إلى نيسابور، قاصداً تعلم الحساب لحماية أهل قريته من ظلم عمال الخراج، حضر حلقة الإمام أبي علي الدقاق الذي كان لسان عصره في التصوف، وعلوم الشريعة، فقبله في حلقته بشرط أن يكتسب الشريعة، ويتقن علومها، فعكف على دراسة الفقه عند أئمته، ولما انتهى منه حضر عند الإمام أبي بكر بن فورك ليتعلم الأصول، فبرع في الفقه والأصول معاً، وصار من أحسن تلاميذه، كان صاحب فراسة وفروسية، ومن الوعاظ المشهورين، صنف العديد من الكتب، ومن أهمها كتاب "الرسالة القشيرية "توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بنيسابور سنة(٤٦٥ هـ)، [طبقات الأولياء (١/ ٤٣)].

الحرامَ" ، وقال يونسُ بنُ عبيدِ الله : " الورعُ الخروجُ منْ كلِّ شبهةٍ ، ومحاسبةُ النفسِ في كلِّ طَرْفةٍ" . وقال سفيان الثوري رَضِيَ اللهُ تعالى عنه : " ما رأَيتُ أسهلَ منَ الوَرعِ مَا حاكَ في نفسكَ تَركتَه " وقال معروفٌ الكَرَخِي رَضِيَ اللهُ تعالى عنه : " الورعُ أنْ تحفظَ لسَانكَ من المدحِ كما تحفظُه من الذَّمِّ" وقال بِشرُ بن الحَارثِ : " أَشدُّ الأَعمالِ ثلاثةٌ : الجودُ في القِلَّةِ ، والورعُ في الخلوةِ ، وكلمةُ الحَقِّ عندَ منْ يُخافُ منه ويُرجَى ".

وقِيلَ: جاءتْ أختُ بشرٍ الحَافي إلى الإمامِ أحمدَ بن حَنبلَ رَضِيَ اللهُ عنه، فقالت له: "إنَّا نَغزلُ على سُطوحِ بيوتِنا فَتمرُّ بنا مَشَاعِلُ الظَّاهِريَّة فيَقعُ الشُّعَاعُ علينا، أَفيجوزُ لنا الغزلُ في شُعَاعِهَا؟ " ، فقالَ: " من أنتِ عافاكِ الله " فقالتْ: " أَنَا أُختُ بِشرٍ الحَافي " فَبكى الإِمامُ أحمدُ، وقالَ: " مِنْ بَيْتِكُنَّ يَخرُجُ الوَرعُ الصَّادقُ ، فَلا تَغْزِلي فِي شُعَاعِها "، وقال عليٌّ العَطَّارُ : " مرَرْتُ بالبصرةِ في بعضِ الشَّوارعِ، فإذا مشايخُ قعودٌ، وصبيانُ يلعبونَ ، فقلتُ لهم : أَمَا تستحيونَ من هؤلاءِ المشايخ ، فقالَ صبيٌّ من بينهم : هؤلاءِ المشايخُ قلَّ ورعُهم فقلَّتْ هيبتُهم " انتهت مقالة القشيري رَضِيَ اللهُ تعالى عنه [1].

فانظرْ يا أَخي بعين البَصرِ والبصيرةِ إلى صفاتِ هؤلاءِ القومِ وورعِهم ، وتعلَّم منهمُ الورعَ إِن كنتَ تريدُ أن تكونَ من أهلِ الورعِ ، أسأَلُ الله تبارك وتعالى أن يُلهمَنا رُشدَنا ، وأَن يُعلِّمنَا من لدنه ورعَ النفوسِ ، وأَن يَحفظنَا من الزَّيغِ والزَّللِ ، وأَن يَكتُبَنا في خِيارِ عبادِه الصَّالحينَ الصَّادقينَ المخلِصينَ ، وأَن لا يجعلنا من أهلِ المظَاهرِ الظَّاهرةِ والقلوبُ خَرِبَةٌ فَاسِدةٌ ، إِنه على ما يشاءُ قديرٌ وبالإِجابةِ جديرٌ .. آمين.

❁ ❁ ❁

(١) المقالة في الرسالة القشيرية ، صفحة (١٧٧ – ١٨٣) ، وهؤلاء الأعلام المذكورون في المقالة هم من رجال الرسالة القشيرية ، وهم أشهر من أن يترجم لهم ، لذا فإني لم أترجم لهم ؛ استغناءً بشهرتهم عن التعريف ، وخشيةً من تطويل الحاشية على التأليف ، فلتراجع تراجمهم في الكتب الخاصة بهذا التصنيف .

حَقِيقَةُ الاسْتِقَامَة

أَما الاستقامةُ فهيَ: الاستقامةُ على الجَادَّةِ التي أَمركَ الله وحثَّكَ عليها، فقد قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] ، وقال في سورةِ الفاتحةِ معلماً لنا كيفَ ندعوهُ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] .

والمعنى إذا عرفنَا الصِّراطَ المستقيمَ الذي يَهدي إِلى الطَّريقِ القويمِ ، أَيْ الطَّريقِ بهدايتِكَ أَن نَصلَ إِليها لِنستقيمَ يا ربِّ عليها ونقفَ في صِراطِها لا نَحِيدُ ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[الأحقاف: ١٣].

ووردَ عنِ الأَعْمَشِ[١] عنْ سَالمِ بنِ الجَعْدِ[٢] عنْ ثوبانَ[٣] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه مولى النَّبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قال: «اسْتَقِيمُواْ وَلَنْ تُحصُواْ ، وَاعْلَمُواْ

---

(١) هو الإمام الحافظ المقرئ أبو محمّد سليمان بن مهران الأسدي الكوفي، أحد الأئمة الأعلام في الحديث والقرآن، تابعي مشهور وُلد بالكوفة سنة(٦١)هـ ونشأ بها، كان عالما بالقرآن والحديث والفرائض، يروي نحو(١٣٠٠) حديث، قال السخاوي: قيل: لم يُرَ السلاطين والملوك والاغنياء في مجلس أحقر منهم في مجلس الاعمش مع شدة فقره، توفي رحمَهُ اللهُ بالكوفة سنة (١٤٨)هـ. [الوافي بالوفيات ، (٥/ ١٤١)].

(٢) هو التابعي الجليل سالم بن أبي الجعد رافع الأشجعي الكوفي، أحد الثقات، روى عن أبيه رافع، وعن ثوبان وجابر وابن عباس وجماعة من الصحابة رضيَ اللهُ عنهم، وكان يكتب في طلبه للعلم، فكان إذا حدث أكثر، قال العجلي ثقة تابعي، وقال إبراهيم الحربي مجمع على ثقته ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (١٠٠) هـ، وله من العمر مائة وخمس عشرة سنة.[أعلام النبلاء(٥/ ١٠٨)، تهذيب التهذيب(٣/ ٤٣٢)].

(٣) هو سيدنا أبو عبد الله ثوبان بن بجدد مولى رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم، أصله من أرض حمير باليمن وقيل من أهل السراة-بلدة بين مكة واليمن-، اشتراه النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم ثم أعتقه، وخيره بين أن يلحق بأهله أو يبقى عنده، فآثر البقاء عنده، فلم يَزل يخدمه ولا يفارقه سفرا ولا حضرا إلى أنْ مات، روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم (١٢٨) حديثا، خرج إلى الشام فنزل الرملة ثم انتقل إلى حمص فابتنى بها داراً ، توفي رضيَ اللهُ تعالى عنه بحمص سنة (٥٤)هـ ، [أسد الغابة (١/ ١٥٨)].

أَنَّ خَيرَ دِينِكُمْ الصَّلاةُ ، وَلَنْ يُحَافِظَ عَلى الوُضُوءِ إِلَّا مُؤمِنٌ» (١). وقالَ السَّلفُ الصَّالحُ رِضوانُ الله عليهم: "الاستقامةُ دَرَجةٌ بها كمالُ الأُمورِ وتمامُها، وبوجودِها حصولُ الخيرَاتِ والبَركاتِ، فجَادَّةُ الاستقامةِ لا تُنَالُ إلا بتهذيبِ النفسِ وكفِّها عنْ الرُّعُونَةِ، ولا يَتِمُّ ذلكَ إلا بنكرانِ الذاتِيَّةِ ، والخوفِ من هولِ يومِ المطَّلعِ ، فمن عرفَ الله خافَه، ومن خَافَه استقامَ مَرْعُوباً مُرَاعاً منْ أَنْ يَحيدَ عنْ الطُّرُقِ فيَخْرُجَ إِلى جَادَّةٍ غيرِ مَرضِيَّةٍ لله تعالى، ولا يَكونُ مُسْتَقيماً منْ في قلبِه جَذْوَةُ كِبْرٍ".

ولقد سألتُ بَعضَ مشَايخي رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم(٢): متى أَكونُ مُستقيماً؟ قال: متى تَرى هَواكَ ونفسكَ ودنياكَ في يدِكَ قابضاً عليهم، وترى إبليسَ لا دخولَ له عليكَ من لدَيهم ولا من بابهم ، فإنهم همُ السبيلُ له إليكَ، ثم قلت: يا سيدي ومتى يكون المريدُ مُريداً؟، قال: حيثُ لا يكونُ مُريداً، أي لا يكونُ يَرى لنفسهِ حيثيةً أو ركوناً إليها في أي تَصرفٍ ، فتكونُ في يَدِ الشَّيخِ كالميتِ في يدِ مُغسِّله ، قلتُ : فأكون مستقيماً إذا فعلتُ ذلك؟، قال: نعم ، فالمريدُ لا يكونُ مريداً حتى يكونَ قلبُه مُستقيماً .

واعلمْ أنَّ الاستقامةَ هيَ الأدبُ الحَقيقِيُّ الموصِلُ إِلى الله ورسولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم وإِلى الشيخِ المُرَبي، فمنْ ادَّعى الوصولَ ولمْ يتأَدبْ ولمْ يَستقِمْ فهوَ دَعِيٌّ جَهولٌ مَغرورٌ بِدعوى فَحوَاها العجزُ وعدمُ الأَهليةِ لنورِ الاستقَامَةِ الأَدبيةِ

(١) أخرجه أحمد في مسنده[٣٧/ ٦٠] برقم(٢٢٣٧٨)، والبغوي في شرح السنة[١/ ٢٥٥]برقم(١٥٥)، والطيالسي في مسنده برقم (٩٩٦) ، والدارمي في مسنده برقم (٦٥٥)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (٤٥٧) ، والطبراني في المعجم الأوسط برقم (٧٠١٥) ، وفي المعجم الصغير برقم (١٠١١) ، وأخرجه الحاكم في مستدركة [١/ ١٣٠]، وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة .

(٢) هو الإمام العارف بالله تعالى ، شيخ الطريقة الشاذلية في وقته ، الشيخ محمد بن محمد بن حسان بن سنان ، ولد سنة (١٢٩٩) هـ، في منطقة (الصَّراهِم) بناحية تعز، وتوفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (١٣٦٦) هـ .

المحْضَةِ ، وهذَا لا يَتِمُّ إلا بأَنْ تكونَ مُطْلَقَ الإرادةِ بينَ يديْ الله ورسولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، كما قالَ الشَّاعرُ: [من الطويل]

وكُنْ عبدَه مُلقِى القِيَادِ لِحكْمِه ... وإِيَّاكَ تَدبيُّر فما هُو نَافعُ

فَتركُ إِراداتٍ ومحوُ مشيئَةٍ ... هوَ الغَرضُ الأَسنى فهلْ أَنتَ سَامعُ(١)

ولقدْ سأَلتُ والدِي سيدِي الشَّيخَ الصَّفِي الشَّيخَ أَحمدَ الجنيدَ عبدَ الله، رحمهُ اللهُ: متى أَكونُ مُستقيماً يا أَبتي؟، فقالَ لي- بالحرفِ الواحدِ-: لا تكونُ مستقيماً حتى تعرفَ معنى هذهِ الكلماتِ الخمسِ، بعدَ تَكريرِكَ إِيَّاها ذِكْراً بِبرهةٍ طَويلةٍ مُستغرقاً في ذِكْرِها، فعندَ ذلكَ ستَعرفُ منْ خِلالِها بعينِ العِلمِ معنَى الاستقامَةِ، فقلتُ ما هي؟ فقال: قل" الله رَبِّي، الله حَسْبِي، الله كَسْبِي، الله عَونِي، الله مُعِينِي" وهيَ يا ولدي أَولُ تلقينٍ للمريدِ الذي يَحصلُ عليه منْ شَيخِه، فإِنَّكَ عندما تُكثرُ تَكريرَهَا، تَبرقُ لكَ بارقةُ المعرفةِ، مَعرفةٍ لَدُنِّيَّةٍ ممنْ تَذْكُره، فمثلاً إِنكَ إِذا قلتَ: الله ربي، هنا تَحتاجُ أَن تعرفَ مقامَ الرُّبُوبيةِ ، ولا تعرفُ هَذا المقامَ حتَّى تُحسَّ به في سُويداءِ قَلبك وعقلِك وفكرِك وجودَ المعيَّةِ، فتَعلمَ أَن ربكَ مَعكَ لقَولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤]، وقالَ بعضُ الرِّجَالِ رَضِيَ اللهُ عنهم: [مجزوء الكامل]

أَعْطِ المعِيَّةَ حَقَّهَا ... و الْزَمْ لَهُ حُسْنَ الأَدَبْ(٢)

واعْلَمْ بِأَنَّكَ عَبْدُه ... فِي كُلِّ حَالٍ وهُوَ رَبْ

---

(١) البيتان لابن عطاء الله السكندري وهما في كتابه التنوير في اسقاط التدبير ، (ص: ٢٢) .

(٢) البيتان للشيخ عمر بن عبد الله بامخرمة رحمَهُ اللهُ تعالى ، ويحكى أنها آخر ما قاله من الشعر، انظر كتاب "تاريخ الشعراء الحضرميين (١/ ١٣٥) "، وكتاب "النور السافر في أخبار القرن العاشر (٣٥)"، وذكر صاحب كتاب "حلية البشر في تأريخ القرن الثالث عشر(٢/ ٦٦) " أن هذين البيتين مما رقم على ضريح الولي الصالح الشيخ محمد بن محفوظ بن منفاخ الدمشقي الصالحي المعروف بأبي تفالة.

فإذا علمتَ حقيقةَ مَعِيَّتِه تَعالى مَعَكَ ، فكيفَ يتَسَنَّى لكَ أَنْ تَعْصِيه؟! كيفَ تسيءُ الأَدبَ معه؟! كيفَ تَسعَى فيما يُغْضِبُه ؟! كيفَ تَنْتَهِكُ محَارِمَه؟! كيفَ تُخالفُ أَوَامِرَه ؟! كيفَ تُسيءُ الأَدبَ معَ رسولِه؟! كيفَ تُسيءُ الأَدبَ معَ كتَابِه؟! فإذا لزِمتَ اسْتَقَمْتَ . ثمَّ إنكَ يا ولدي إذا قلتَ: اللهُ حَسْبِي، هنا وجبَ عليكَ أن تعرفَ معنى قولِ: «حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ» فحسبيَ اللهُ، يعني أنَّه الوكيلُ الكافي الكفيلُ.

فعندَ قولِكَ: «حَسْبِيَ الله ونعمَ الوَكيلُ»، تحتاج أن تعرف ما معنى حسبي، أي دِرْعِي مانِعِي كافِيني كَفِيلي وَكِيلي، فإذا عرفتها حقَّ المعرفةِ فكيفَ بعد ذلك تخافُ غيرَه؟ كيفَ تخافُ مخلوقَه؟ كيفَ تخافُ الفقرَ؟!كيف ترجو الغِنَى؟ هذا عجزٌ ظاهرٌ وسوءُ أَدبٍ معَ الله، فعندما تقولُ: حسبيَ اللهُ، كفاكَ به أنَّه حسبُك، وعندما تقول: وكيلي، كفاك به أنَّه وكيلُك وكفيلك، هُنَا استقمتَ.

ثمَّ إنَّك يا ولدي إذا قلت: اللهُ كَسبِي، هنا لزِمَ عليك أن تعلم أنك بذكرك له الدائم تعلم أنك قد كسبْتَ رضَاه وهدَاه وعطَاه وبرَّه ورحمتَه وجودَه وإحسانَه، كونك قد عرفت معنى" اللهُ كسبي"، فمن علمَ معنى" اللهُ كسبي" صارَ محاطاً بنعمِه وفضلِه ولا يتمُّ لكَ ذلكَ إلا بالجِدِّيَةِ المطْلَقة ، أنك حُزْتَ على عطفِه وحنانِه ورعايتِه . فلا مالَ ولا كسبَ ولا جاهَ ولا دنيا ولا أهلَ ولا ولدَ إلا بحيازةِ نظره الشَّريفِ ، لا ربَّ غيرُه ولا خيرَ إلا خيرُه ، أوجدَ وغذَّى وكسَا ورَعى وهَدى ، فله الحمدُ تعالى على كلِّ شيءٍ حمداً لا نِهايةَ لَه ولا عدَّ ، فإذا عرفتَ اسْتَقَمْتَ .

ثم إنكَ إذا قلتَ: الله عَونِي، اعلم أَنك إن استعنتَ به كان لك عوناً على عقباتِك الكؤودةِ التي أنت مارٌ بها، فإنك مُضطرٌ إلى عَونِه على كلِّ صِعابِ الحيَاةِ والمماتِ، وعلى حَربِ نفسِك وشيطانِك وهواك ودنياك، هذه العواملُ تحتاجُ إلى عونِ قَادرٍ مُقتدرٍ،

فعندما يعلمُ صِدقَ مقالِكَ وقولِكَ :"الله عوني"، اكتَنَفَك بكنفِه الشَّريف، فكان عوناً يداً ومؤيداً، وناهيك به أنَّه قالَ جلَّ وعَلا في الحديثِ القُدُسِي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أَحَبَّ إِليَّ مِمَّا افترضتُ عَليهِ ، ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ ، فإذا أَحْبَبْتُهُ ، كُنتُ لَه سَمْعاً وبَصَراً ويَداً ومُؤَيِّداً» (١).

وفي حديثٍ آخرَ يقولُ جلَّ شأْنُه: «كُنتُ سَمعَهُ الّذي يَسمَعُ بهِ، وبَصَرَهُ الّذي يُبْصِرُ بهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطُشُ بها، ورِجْلَهُ الّتي يَمشي بِها، ولَئِنْ سأَلني لأُعطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ» (٢) .

ثم إنك يا ولدي إذا قلتَ: الله مُعِيني، فاعلمْ حقَّ العِلمِ أن ما تقوم به من طاعةٍ ومن صلاةٍ وتَعَلُّمٍ وتَعليمٍ ومعْرفةٍ وحَركَةٍ لا يَتَمُّ إلا بِمعُونَتِه، وليسَ في فَهمي فَارقٌ بينَ العَونِ والمُعينِ ، إلا أَنَّ العَونَ على شَيءٍ وَردَ عليكَ دَاهِماً يُريدُ طَمْسَ ما قَد حَصَلْتَ عليه من علمٍ ومعرفةٍ له تعالى، فيكونُ عوناً لك على دَفعِه وطَردِه عنكَ .

أَما المعِينُ فهوَ المعينُ على أَداءِ ما وفَّقَك إليه من أَداءِ فرائضَ وسُننٍ ، ونوافلَ وواجباتٍ ، وجِدٍ واجتهادٍ وعِلمٍ وعمَلٍ، وذلكَ من حَقه جَلَّ شأْنُه أَن يكونَ مع خُلَّصِ عبادِه الواقفينَ ببابِه. نسأَلُه تعالى أَن يكونَ عنْد حُسن ظَنِّنا به رَباً وحَسباً وكَسباً ومُعيناً " فقلتُ آمين .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية [٨/ ٣١٩]، والبغوي في شرح السنة [٣/ ٧٠] برقم (١٢٤٢) عن أنس رضيَ اللهُ تعالى عنه بهذا اللفظ، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط(١١٤٠٨) عن عائشة رضيَ اللهُ تعالى عنها، وله أيضا شواهد في صحيح البخاري.

(٢) حديث صحيح ، رواه الإمام البخاري برقم (٦٥٠٢) عن ابي هريرة رضيَ اللهُ عنه ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير [٨/ ٢٢١] برقم (٧٨٨٠) عن أبي أمامة رضيَ اللهُ تعالى عنه .

فانظرْ يا أَخي إِلى كلاءَةِ وحضَانةِ أُولئكَ الرِّجالِ الوَاصلينَ إلى من قَصَدهم كيفَ يُربوه فِكراً وعقلاً، لِكي يُنْتِجُوه بينَ يَدَي مَولاه بَرَّاً عفيفاً نظيفاً شَريفاً، فهمُ -والله- القومُ الذينَ قالَ فيهم جلَّ شَأنُه في الحديث: «هُمْ القَوْمُ لا يَشْقى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»(١).

ولِلاستقامَةِ معانٍ جَليلةٌ لا يعرفُها إلا ذِو لُبٍّ ثَاقبٍ، ولمولاه مُصَاحبٌ، فإذا مَلكت معرفَةَ ما قالَه رحمهُ اللهُ تعالى، تَعْرِف أَنَّ هذه أُسُسُ الاستقامةِ وهيَ الخَوفُ والوُقوفُ عندَ حدودِه وأَوامِره ، وقد قالَ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]، وقال جلَّ شَأنُه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[الجن: ١٦].

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري برقم (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، وابن حبان (٨٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١)، والطبراني في العجم الأوسط (١٠٧٤)، وفي كتاب الدعاء (١٨٩٦)، وأبو نعيم في الحلية [٨/ ١١٧] ، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه ، ورواه الترمذي (٣٩٤٩)، عن أبي سعيد الخدري رضيَ اللهُ عنه .

الأَصْلُ الثَّانِي: وتحقيقُ السُّنَّة

السُّنةُ في اللغة: السِّيرةُ حَسنةً كانت أو قَبيحةً، وفي الحديثِ عنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[(١)] .

وقد تكرَّرتْ في الحديثِ كلمةُ السُّنة ، والأَصلُ فيها الطَّريقُ والسِّيرةُ ، ففي الحديث: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ أَوْ ذِرَاعاً بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قالُوا: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قالَ فَمَنْ؟!»[(٢)]، أي لتَتبِعُنَّ طَريقَتَهم.

أمَّا السُّنةُ شَرْعاً: فقد اختلفَ العلماءُ في معنى السُّنةِ، كذلك تَعدَّدت تعاريفُها، والسَّببُ في ذلك اختلافُ مقاصدِ العلومِ وموضوعَاتِها التي تبحَثُ فيها.

فعند علماءِ الحديثِ: أن السُّنةَ كُلَّما أُضيفَ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، أو إلى الصحابي، أو إلى من دونه، قَولاً أو فعلاً أو تَقريراً أو صفةً .

---

(١) رواه مسلم برقم (١٠١٧)، والنسائي في سننه (٢٥٥٤)، والإمام أحمد (١٩١٥٦) والبزار (٩٨٦٦)، والبغوي في شرح السنة [٦/ ١٦٠] ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥٩) والطبراني في المعجم الكبير (٢٤٤٥) وفي الأوسط (٨٩٤٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩٨٩٦) وابن حبان في صحيحه (٣٣٧٧) عن جرير ابن عبدالله رضيَ اللهُ عنه بهذا اللفظ، ورواه الحاكم في المستدرك برقم (٣٩٠٦) عن حذيفة رضيَ اللهُ عنه بمعناه، وقال: حديث صحيح.

(٢) حديث صحيح ، رواه البخاري برقم (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩)، وأحمد في مسنده برقم (٩٨١٩)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٥٩٤٣) وابن ماجة (٣٩٩٤)، والبزار (٨٤١١)، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٨٥٣١) عن أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه .

وعند عُلماءِ أُصُولِ الفِقْهِ: أَنَّ السُّنةَ هيَ كلُّ ما صدرَ عن النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، غيرَ القرآنِ الكريمِ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ مما يصلحُ أن يكونَ حكماً شرعيّاً، لأنهم يبحثونَ عن الأَدلةِ الشَّرعيةِ من فرضٍ وواجبٍ ومندوبٍ وحرامٍ ومكروهٍ ، ومعرفة إِفرادِ كلِّ حكمٍ.

وعند علماء الوعظ والإرشاد : يعرفون السُّنةَ بأنها ما قابل البدعةَ ، لأنهم يهتمون بكلِّ ما أَمرَ به الشَّرعُ أَو نهى عنه. واعلمْ أن السُّنةَ على تعريفِ علماءِ الحديثِ هيَ مُرادفةٌ للحديثِ النَّبوي عندَهم ، وهو الحديثُ الذي يشتملُ على صِفاتِ النَّبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، الخَلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ ، وسِيرتِه ومَغازِيه ، وبعضِ أَخبارِه قبلَ البِعثَةِ ، لِذلك يعتني المحدثونَ في كتبهم بهذا الجانبِ اعتناءً شديداً .

حُجِّيَّةُ السُّنةِ : هيَ الأصلُ الثاني للتَّشريعِ الإِسلامي، لذلك وجبَ اتباعُها والرجوعُ إليها والاعتمادُ عليها بأَمرِ الحقِّ جلَّ وعَلا وبأَمرِ الشَّارعِ الأَعظمِ سيدِنا محمدٍ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾[المائدة: ٩٢]، وقال تعالى:﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول سبحانه:﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، ويقول جلَّ شأنه:﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ويقول تعالى:﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ٣١]. ويقولُ المصطفى صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّواْ بَعْدِي كِتَابَ الله وَسُنَّتِي» (١).

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠١٢٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه(٣٠٧٠٠)، والحاكم في المستدرك [١/ ١٧١]، والإمام مالك في الموطأ (٣٣٣٨) بهذا اللفظ، ورواه الترمذي (٣٧٨٦)، والنسائي (٨٤٦٤) والبزار في مسنده(٨٦٤)، وأحمد (١١٥٦١)، بلفظ:«كِتَابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي».وهو صحيح.

تحقيقُ السُّنةِ: أما تحقيقُها، فقد قال سيدي الإِمَامُ النَّوَوِي: " تَحقيقها بالتَّحَفُّظِ وحُسْنِ الخُلقِ"، إذْ لا يصلحُ حفظُ سُنَّةٍ إلا بحسنِ الخلقِ .

❁ ❁ ❁

حَقِيقَةُ التَّحَفُّظ

حَقِيقَةُ التَّحَفُّظِ أَن نَعْلمَ أنَّ السُّنَّةَ هيَ ما أَمَرنا به رسولُنا صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، وهيَ تأْتي قبلَ كلِّ فَرضٍ، وداخِلَةٌ فيه وخَارجَةٌ بعدَه، ومنها مُؤَكَّدَةٌ وَوَاجبةٌ[1] ومُسْتَحَبَّةٌ ونَافلةٌ، وعمَلُها ينَقسمُ ، منها ما يُثابُ على فعلِها ويعاقبُ على تركها استهتَاراً بسنتهِ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم وهي المؤَكَّدةُ ، ومنها ما يُثابُ على فعلها ولا يُعاقبُ على تَركها وهي مَعروفةٌ .

والوجوب والمستحبُّ والنَّدبُ والنَّفلُ كلُّها يُثابُ عليها المرءُ ويؤْجرُ، وبها تَكونُ مُوجبةً لمحبةِ الله تعالى لعبدِه وتُسمَّى قربةً مُوصلةً إِلى الله تعالى حباً فيكونُ لَه يَداً

---

(١) هذا الاصطلاح مطابقٌ لقواعد مذهب الحنفية من التفريق بين الفرض والواجب خلافا للشافعية ومن وافقهم من الجمهور ، من قولهم بالترادف بينهما فعندهم الفرض والواجب والحتم واللازم والمكتوب شيءٌ واحدٌ ، إلا في بعض المواضع كالحج ، أما الحنفية فيفرقون بين الفرض والواجب بالظن والقطع ، فإن كان ما ذكر ثبت بقطعي ففرض ، وإن ثبت بظني فهو الواجب ، والسنة عند هم بالمعنى الفقهي نوعان :سنن الهدى :وهي ما تكون إقامتها تكميلا للدين ، وتتعلق بتركها كراهة أو إساءة ، وهي ما واظب عليها النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم على سبيل العبادة ، كالرواتب، والسنن الزوائد: وهي التي لا يتعلق بتركها كراهة ولا إساءة ، وهي ما فعله النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم على سبيل العادة، فإقامتها حسنة ، كسِيرة النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم في لباسه وقيامه ، وقعوده وأكله ، ونحو ذلك ، والشيخ حفظه الله حنفي ، وضليع بمذهب الشافعي ، فليُعلم ذلك .

ومُؤيداً، فرسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم يقول: «إنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(١)، إذِ القصدُ من سنتِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم التفسيرُ لما وَردَ في الكتَابِ، وكلُّ ما قاله رسولُ الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إنما هو عن أمرٍ من ربه، آمراً به أُمَّتَه ليوصلهم لرضا ربهم، وكلُّ السُّنة خيرٌ أَرادَه الله ورسولُه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، فالعملُ بها طاعةٌ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، وطاعته هي أُسُّ طاعةِ الله تعالى، والله جلَّ شأنُه يقولُ في كتابِه العزيزِ آمراً لِرسولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فيجبُ على كلِّ مؤمنٍ مكلفٍ حرٍ وعبدٍ اتباعُ السُّنةِ أقوالاً وأَفعالاً، لا مُجرَّدُ التَّعرفِ عليها وبدونِ عمَلٍ، فإن ذلك سوءُ أَدبٍ معَ الله تعالى ومع رسولِهِ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يقولُ في الحديثِ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّواْ بَعْدِي كِتَابَ الله وَسُنَّتِي»، وتعددت في هذا عدةُ أحاديث، ومنها: «كِتَابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي».

أقولُ وحبُّها أي السُّنة واجبٌ على كل امرئٍ أَن يحفظها قلباً وقالباً، وذلكَ من أَوجبِ الوجوبِ، إذ لا يَحسُن التَّعرفُ على العبادِة ومعرفةُ معناها إلا بالإلمامِ بها جِدّاً وجُهْداً دَؤُوبينِ، ولا يَنالُ عِزَّ السُّنة وشَرفَها إلا من حَفِظَها وعملَ بها، وهي في الحقيقةِ كُنه الفقهِ، وما الفقهُ إلا آتٍ من السُّنةِ المطَهرةِ، فاقْتَبَسَ منها أَئمتُنا الميامين أهل

(١) إسناده صحيح ورجاله ثقات، أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم (١٧١٧٤)، والخطيب في الكفاية (١/ ٨)، والطبراني في مسند الشاميين (١٠٦١)، والآجري في كتاب الشريعة (٩٧)، والمروزي في كتاب السنة (٢٤٤)، عن المقدام رضيَ اللهُ تعالى عنه.

المذاهبِ الأَربعة وغيرُهم ، فصَارتْ هيَ المَنَارُ الشَّارحُ لعَويصِ مَسائلِ الـشَّرعِ الآتي بـه صاحبُ الشَّريعةِ محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولله دَرُّ الشَّاعرِ حيثُ قال: [من الوافر]

إذَا مـــا اعتَـــزَّ ذُو عِلـــمٍ بعلـــمٍ فعلـــمُ الفقـــهِ أَولى بـــاعتِزَازِ

فَكـــمْ طيـــبٍ يفـــوحُ ولا كَمِســـكٍ وكَـــم طـــيرٍ يطـــيرُ ولا كَبَـــازِ[1]

❁ ❁ ❁

حَقِيقَةُ حُسْنِ الخُلُق

إِنَّ سَادَتنا الصُّوفيةَ رضوانُ الله تعالى عليهم جَعلوا تَحَفُّظَ السُّنةِ وجَعلوا حُسنَ الخلقِ معها، إذ لا تتمُّ سنةٌ إلا بالعملِ بها وحسنِ الخلقِ مع النَّاسِ ليأخذوا منه السُّنةَ وحسنَ الخلقِ، ولَعَمْرِي إن حسنَ الخلقِ ما هُو إلا كُنْه السُّنةِ، لأَنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم يقول: «أَتَيتُ مُتَمِّماً لِمَكَارِمِ الأَخلاقِ»[2]، وحسنُ الخلقِ أَولُ ما يُوضَعُ في كَفَّةِ صاحبِه بعدَ الشهادتين سِيَما ونحنُ في زمنٍ قلَّ فيهِ حسنُ الأَخلاقِ، وقلَّ التَّعرفُ على السُّنةِ، وأُتينا بعلمٍ يعلمُ الله أَنَّ ما هوَ إلا نَماذجَ وأَوائلَ لعلمٍ وتمارينَ ، فيا تُرى أَينَ العلمُ البَاحثُ عنِ السُّنةِ المجمَلةِ الوَاسعةِ التي سَهِرَ منْ أَجلِها الرِّجالُ وأَلفوا وأَزْبَرُوا[3] لنا في أيامٍ صعبةِ الخطُوطِ ، أما الآنَ فقدْ يَسَّرَ اللهُ العسِيرَ بالمطابعِ، وعلَّمُونَا

---

(١) البيتان أوردهما الإمام الدميري في كتابه حياة الحيوان الكبرى (١/ ١٠٩) ، ولم أعثر على قائلهما.

والباز: نوع من أنواع الصقور، هو من أشدها تكبراً وأضيقها خلقا ، خفيف الجناح سريع الطيران، شديد الانحطاط من الجو، يستخدم في الصيد لأنه من أذكى الطيور وأحدها بصرا وأقدرها على الخطف السريع.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٢٠٧٨٢) ، والبزار في مسنده (٨٩٤٩) ، والشهاب القضاعي في مسنده (١١٦٥) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٤٢٢١) وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٣) أَزْبَرُوا : أي كتبوا وصنفوا ، والزَّبْرُ : الكتابة . يقال : زَبَرَ يَزْبُرُ ويَزْبِرُ . قال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : أنا أَعْرِفُ تَزْبِرَتي ، أي خَطِّي وكتابتي . والمِزْبَرُ : القلمُ . والزَّبُورُ : الكتاب والجمع زُبُرٌ .

كيفَ حُسنَ الأَخلاقِ، فلقد صارتْ الآن في هذا الزّمنِ الأَخلاقُ عزِيزةً، وما هيَ إلا مَظاهِرُ ظَاهِرةٌ وتَصَنُّعاتٌ زائدةٌ، فمتى نعودُ إلى رُشْدِنَا؟!.

ولقد دَعَتني الحاجةُ الملحةُ إلى أَن قُلتُ في الأَخلاقِ مُتَسائلاً شعراً: [مجزوء الرمل]

أَيُّهـــا الأَخـــلاقُ مَالِـــكْ ... قَـــدْ ذهبْـــتِ مـــنْ رِجَالِـــكْ

لسْـــتُ أَدْرِي مَـــا دَهَـــاكِ ... قَـــدْ نَفَـــرْتِي مـــنْ عِيَالِـــكْ

هَـــلْ جَـــرَى مِـــنْهمُ شَيءٌ ... اقْتَـــضَى قَطْـــعَ وَصَـــالِكْ

كُنْتِـــي فِي الأَوْجَـــاهِ نُـــوراً ... والمـــــسَرَّاتُ خِصَـــــالِكْ

كَـــمْ عَمَـــرتِي في قلـــوبٍ ... مِـــنْ قُصـــورٍ ومَالِـــكْ

كَـــمْ زَرَعْـــتِ الـــرُّوضَ كَرْمَـــاً ... وَكَسَـــيتِيهِ جَمَالِـــكْ

مَـــا لِنُـــورِكْ قَـــد تبَـــدَّى ... صُـــبْحُهُ مُظْلِـــمُ حَالِـــكْ

فَنَـــرَى البَســـمَاتِ وَلَّـــتْ ... تَتَـــوَارَى عـــنْ قَهَالِـــكْ

كُنْتِـــي بَســـماتٍ عَلَتْهَـــا ... سُـــحُبٌ تَسْـــقِي غِلَالِـــكْ

خَبِّرِينَـــا اصْـــدِقِينَا ... مَـــا الـــذِي غَـــيَّر حَالِـــكْ

هَـــلْ ثَـــرَاءُ المـــالُ أَبـــدَى ... طَمَعـــاً أَوهَـــى نَوَالِـــكْ

أَو أَصـــابَ الكِـــبرُ مِنْـــكِ ... مِعْطَفـــاً أَضْـــنَى هِلَالِـــكْ

أَوَّلٌ فِي الـــوَزْنِ أَنْـــتِ ... كُـــلُّ مَـــنْ خَـــفَّ فَهَالِـــكْ

احْـــذَرِي الخَـــفَّ وإِلا ... فَاصْـــنَعِي مَـــاذا بَـــدَالِكْ

إِنَّ هَـــذَا مَحْـــضُ نُصْـــحِي ... فَـــاجْعَلِي العَقـــلَ عِقَالِـــكْ

وَصـــلاةُ الله تَغْشَـــى ... مَـــن سَـــلَكْ خَـــيرَ المسَـــالِكْ

أَحمـــدَ المخْتـــارَ طَـــه ... مَـــا تَغَنَّـــى فِي تِلالِـــكْ

طَـــــائرٌ أَشْـــــجَى طَرُوبـــــاً أَو حَـــــدَا حَـــــادِي جَمَالِـــــكْ

هذا وحسنُ الخُلقِ هو عينُ الجَمالِ ، فمكارمُ الأَخلاقِ غايةُ عينِ كَمالِ السُّنةِ، إِذْ لا يَصلحُ علمٌ إِلا بخُلُقٍ وحِلمٍ، أسألُ الله تعالى أَن يَجعلنَا خَيرَ مَنْ اتَّبَعَ سنةَ رسولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم وتخلَّقَ بأَخلاقِه، وقد قِيل: أَنه التَقَى ابنَا الخَالة، من الأَنبياءِ وهما سَيدُنا عيسى عليه وعلى نبينِا أَفضلُ الصلاةِ والتَّسليمِ ويحيى بنُ زكريا عليهما وعلى نبينا أَفضَلُ الصَّلاة والتَّسليم في طَريقٍ، فأَعبَسَ يَحيى وَجْهَه وضَحِكَ عيسى، فقَالَ يحيى عليه السلام لِعيسى: لَعَلَّكَ آمِنٌ، فقالَ لَه عيسى عليه السّلام لعَلَّكَ آيسٌ ، ثمَّ قالا : لا نبرحُ منْ هنا حتَّى ينزلَ فينا وحيٌ ، فأَوحى الله تعالى إِليْهِما : «أَفْضَلُكُم عِندِي أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً» (١) .

❁ ❁ ❁

(١) أورده الإمام القرطبي في كتابه التذكرة في أحوال الآخرة ص: (٢٧)، بلفظ: « إن أحبكما إلي أحسنكما ظنا بي »، وعزاه للطبري .

الأَصْلُ الثَّالِثُ؛ وتَحقِيقُ الإعْرَاضِ عَنِ الخَلْقِ

قالَ الإمام النَّوَوِي رَضِيَ اللهُ عنه:" تَحقيقُ الإعراضِ عنِ الخلقِ بالصَّبرِ والتَّوكُلِ".

* * *

حَقِيقَةُ الصَّبرِ

أقولُ وبالله التَّوفيقُ: إنَّ على سَالكِ طَرِيقِ أَهلِ الحقيقَةِ وغَيرِهم مِمن يَنْجَرُّ في سِلْكِهِمْ الذَّهبي الصَّافي النَّقي أَن يَتَحلَّى بالصَّبرِ والإعراضِ عن الخلْقِ ، والإعراضُ هو رَمْيُ الخلْقِ –من دُنيا وأهلها– وراء الظَّهرِ بالكُليَّة، صَابراً على قلَّةِ ذاتِ اليَدِ، بعدَ هجرِ كلّ ما كان يعتادُه من التَّشوف لعطَاء الخلق، ومن الاتكال على الكدِّ والجُهدِ، قالَ اللهُ تعالى:﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[فصلت: ٣٥] .

وقالَ اللهُ تبارك وتعالى:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[العصر:٣] ، ولمْ يُجَازِ الله سبحانه وتعالى أَحداً بأَجرينِ إلا الصَّابرينَ ، قالَ تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾[القصص: ٥٤] ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[الإنسان: ١٢]، وقالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

وبالجمْلةِ فالصَّبرُ مَقامٌ عظيمٌ من مَقاماتِ الدِّينِ، وقد ذكَره الله تعالى في كتَابِه العَزيزِ في نيفٍ وسبعينَ مَوضِعاً، وأَضافَ أكثَر الدرجاتِ إليه.

والصَّبرُ: هُو حَبسُ النَّفسِ عنِ الجَزَعِ، وقال الجنيدُ رحمهُ اللهُ تعالى: "الصَّبرُ تَجَرُّعُ المَرارَةِ من غيرِ تَعبيسٍ"[1].

---

(١) كتاب الرسالة القشيرية ، صفحة (٢١٩).

وقال الإمام الصَّاوِي[١] : "الصَّبرُ هو تَحَمُّلُ المكارِه في طَاعةِ الله تعالى"، وإذا أُسْنِدَ إلى المولى جَلَّ وعَلا بأَنْ قيلَ : (صَبُورٌ) ، فمعناه الذي لا يُعَجِّلُ العقوبةَ ، فهو بمعنَى الحَليمِ.

وقد أَطنبَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم في الصَّبر، فَعنْ أَبي سعيدٍ الخُدرِي[٢]رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٣]، وعنه أيضاً قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ ، وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ ، وَلاَ حَزَنٍ ، وَلاَ أَذىً، وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ» [٤].

---

(١) هو الإمام أحمد بن محمد الصاوي الأزهري الخلوتي المالكي، أحد أبرز علماء أهل السنة، ولد في (صاء الحجر) بمصر، سنة(١١٧٥)هـ، له العديد من المصنفات منها، بلغة السالك في الفقه المالكي، وحاشية على جوهرة التوحيد وحاشية على تفسير الجلالين، توفي رحمَهُ اللهُ سنة (١٢٤١)هـ.[الأعلام، (١/ ٢٤٦)].

(٢) هو سيدنا أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري الخزرجي، من أفاضل الأنصار، ومن كبار علماء الصحابة وفقهائهم، من أهل الصفة، وممن شهد بيعة الشجرة، ومن أكثرهم حديثاً، روى عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم (١١٧٠)حديثا ، توفي رضيَ اللهُ عنه سنة (٧٤) هـ . [تذكرة الحفاظ ، (١/ ٤٤)].

(٣) حديث صحيح ، رواه البخاري برقم (١٤٦٩) ، ومسلم برقم (١٠٥٣) ، والترمذي برقم (٢٠٢٤) وأبو برقم داود (١٦٤٤) ، والنسائي برقم (٢٥٨٨) ، ومالك في الموطأ برقم (٨٩٨) وأحمد في مسنده برقم (١١٨٩٠) ، والطبراني في مسند الشاميين برقم (٣٠٧٤) ، وابن حبان في صحيحه برقم (٣٣٩٩) ، والحافظ أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٠) ، وأبو يعلى في مسنده برقم (١٠٣٨) عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه .

(٤) حديث صحيح، رواه البخاري برقم (٥٦٤١)، ومسلم برقم (٢٥٧٣) ، والترمذي برقم (٣٠٣٨)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٧٤٤٣) ، وأحمد في مسنده برقم (٨٠٢٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٣٧١) ، والبغوي في شرح السنة برقم (١٤٢١) ، وابن حبان في صحيحه برقم (٢٩٠٥) ، وأبو يعلى في مسنده برقم (١٢٣٧) ، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضيَ اللهُ تعالى عنهما ، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٢٢٤٠) ، عن عائشة رضيَ اللهُ تعالى عنها .

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»(١). ويَكفي اللَّبيبِ في عظيمِ مقامِ الصَّبرِ قولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر:١-٣].

قالَ المفَسِّرُونَ: أَيْ عنِ المعَاصِي، وعلى الطَّاعاتِ، وعلى ما يَبتَلي الله تعالى به عبادَه منَ الأَمراضِ وغيرِها، وَوَرَدَ «الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ»(٢)، وقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما: " الصَّبرُ في القرآنِ على ثَلاثةِ أَوجُهٍ: الصَّبرُ على فرائضِ الله فله ثَلاثُمائةِ دَرجةٍ ، والصَّبرُ على محَارمِ الله وله سِتُّمائةِ دَرجةٍ ، والصَّبرُ على المصيبةِ – عند الصَّدمةِ الأُولى – فله تِسعُمائةِ دَرجةٍ"(٣)، وقال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «بِالصَّبرِ يُتَوَقَّعُ الفَرَجُ»(٤)، وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ تعالى وجهَه: "الصَّبرُ مَطِيَّةٌ لا تَكبُو، وسَيفٌ لا

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري برقم (١٢٨٣)، ومسلم برقم (٩٢٦)، وأبو داود برقم (٣١٢٤)، وابن ماجة برقم (١٥٩٦)، والبيهقي في الآداب برقم (٧٢٢) وابن أبي شيبة في المصنف (١٢٠٩٠)، عن أنس رضيَ اللهُ عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٧١٦) وفي كتاب الآداب برقم (٧٥٧) ، عن ابن مسعود رضيَ اللهُ عنه مرفوعا وموقوفا، وقال الموقوف أصح ، وأخرجه الإمام الحاكم في المستدرك [٢/ ٤٨٤] برقم (٣٦٦٦) من قول عبدالله بن مسعود ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد برقم (١٨٨)، والشهاب في مسنده برقم (١٥٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٧٥)، وتكملة الحديث: « ..وَالْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ».

(٣) قوت القلوب [١/ ٣٩٩] ، وإحياء علوم الدين [٧/ ٢٤٦].

(٤) أورده الإمام الطرطوشي في كتابه سراج الملوك صفحة (٢٦٩) ، والماوردي في أدب الدنيا والدين صفحة (٤٤٦) ، وتمام الحديث «.. ومن يدمن قرع الأبواب يلج »، وروى شطره الأخير الإمام البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٥٣٠) ، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٢٩٧٨٥) ، عن أبي الدرداء رضيَ اللهُ تعالى عنه ، موقوفا عليه ، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد برقم (٣٥٥١)، وقال رجاله رجال الصحيح .

يَنبُو"[١]، وقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما: "أَفضَلُ العُدَّةِ الصَّبرُ عندَ الشِّدَّةِ"[٢] وفي بعضِ الأَخبارِ: «انْتِظَارُ الفَرَجِ عندَ الشِّدَّةِ عِبَادَةٌ »[٣]. قالَ الشَّاعرُ: [من البسيط]

الصَّبرُ كالصَّبرِ مُرٌّ فِي مَذَاقَتِه ... لَكِنْ عَوَاقِبُه أَحْلَى مِنَ العَسَلِ[٤]

وقالَ آخرٌ: [من البسيط]

وقَلَّ مَن جَدَّ فِي أَمرٍ يحاولُه ... واسْتَعمَلَ الصَّبرَ إلا فَازَ بالظَّفَرِ[٥]

وقد أَثنى الله سبحانَه وتعَالى على عبْده أَيوبَ على نبينا وعليه أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام بالصَّبر، فقالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]، ولم تَزَل الرَّجالُ الكُمَّلُ يُوصُون مُريدِيهم بالصَّبرِ لما فيه من الثَّوابِ، وكفَى به أَنه من أَخلاقِ الأَنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين .

قال سيدُنا الشَّيخُ عبدُ الله بن علوي بن محمد الحداد رَضِيَ اللهُ عنه ونفعنا به وبعلومه في الدارين آمين:" يحتاجُ العبدُ إلى الصَّبرِ عندَ نُزولِ البلاءِ، كمثلِ موتِ الأَحبةِ، وأَذى الخَلقِ، وقلَّةِ ذاتِ اليدِ، والأَمراضِ، بأَنْ لا يَجزعَ، ولا يشكوَ إلى الخلقِ،

---

(١) أورده الطرطوشي في سراج الملوك ، ص (٢٦٩) والقشيري في الرسالة (٢٢٠).

(٢) أورده الإمام الطرطوشي في كتابه [سراج الملوك ، ص : (٢٦٩)] .

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٧١)، والبزار في مسنده برقم (٦٢٩٧)، والطبراني في الدعاء برقم (٢٢)، وفي المعجم الأوسط برقم (٥١٦٩)، وفي المعجم الكبير برقم (١٠٠٨٨)، والقضاعي في مسنده برقم (١٢٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠٨٦)، بلفظ «أفضل العبادة انتظار الفرَج»، والحديث مروي عن ابن عباس وأنس وابن عمر وابن مسعود رضيَ اللهُ عنهم ،من عدة طرق، وحسنه الحافظ ابن حجر، وضعفه الحافظ العراقي.

(٤) البيت لم أعثر على قائله، ذكره ابن الجوزي في اللطائف (ص: ٧٧) وهو في مجاني الأدب (ص:٣٦٤).

(٥) البيت لسيدنا الإمام علي بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنه وهو في ديوانه (ص: ٦٥) .

بَل يرجعُ إلى الله تعالى، بحُسنِ ظنِّه، ودعائه له، وتضرُّعِه إليه، ويَعتقدُ أَنَّه أَرحمُ به من نفسِه وأَنَّ في ذلكَ خيرَه ، وله فيه خيرٌ وفيرٌ كثيرٌ منَ الثَّوابِ العظيمِ، كما وردَ في الحديثِ: « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ ، وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ ، وَلاَ حَزَنٍ ، وَلاَ أَذىً ، وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلاَّ كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »(١).

ويحتاجُ المؤمنُ إلى الصَّبرِ، وكفِّ نفسِه عن المعاصي والمحرماتِ، فيصبرُ عنها وعن ذكرِها بباطنِه، والميلِ إليها ، ويحتاجُ المؤمنُ إلى الصَّبرِ عن الشَّهواتِ ، وعن المبَاحَاتِ ، بقصدِ التَّمتعِ والتَّلذذِ ، فإن الاسْتِطرَادَ في ذلكَ يجرُّ إلى الشُّبُهاتِ والمحرَّماتِ ، ويُهيجُ الحرصَ على الدنيا والإيثارَ لها، ونسيانَ الآخرةِ "(٢). اهـ

وقد رُويَ عن سيدِنا عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجْهَهُ ورضيَ عنه ، أَنَّه قال: [من البسيط]

اصْبرْ على مَضَضِ الإدْلَاجِ في السَّحَرِ ... وفي الرَّواحِ على الطَّاعاتِ في البُكَرِ
إني رأيتُ وفي الأَيامِ تجربةٌ ... للصَّبرِ عاقبةً محمودَةَ الأَثَرِ
وقلَّ منْ جَدَّ في أَمرٍ يُؤَمِّلُه ... واستعملَ الصَّبر إلا فازَ بالظَّفَرِ(٣)

وما أحسنَ ما قيلَ: [من الطويل]

صبرتُ على بعضِ الأَذى خوفَ كلِّه ... ودافعتُ عنْ نَفسي بنفسِي فعزَّتِ
وجَرَّعتُها المكروهَ حتَّى تَدَرَّبتْ ... ولو لمْ أُجَرِّعْهَا إذاً لاشْمَأَزَّتِ
ألا رُبَّ ذُلٍ سَاقَ للنَّفسِ عِزَّةً ... و يا رُبَّ نَفسٍ بالتَّذَلُّلِ عَزَّتِ

---

(١) تقدم تخريجه ص:(٩٦).

(٢) انظر النصائح الدينية والوصايا الإيمانية ، ص:(٣٦٨).

(٣) الأبيات لسيدنا علي رضيَ اللهُ عنه في ديوانه ص:(٦٥)وتنسب لابن يسير الرياشي في ديوانه ص:(٨).

إذا مَـا مَـدَدتُ الكـفَّ أَلـتَمِسُ الغِنـى ... إلى غـيرِ مـنْ قـالَ اسـألُونِي فَشُـلَّتِ
سَأَصْـبرُ جَهـدِي إِنَّ في الصَّـبرِ عِـزَّةً ... وأَرضَى بِـدُنيَايَ وإِنْ هـيَ قَلَّـتِ
ومَـا الـنَّفسُ إلا حيـثُ يَجعَلُهـا الفَتـى ... فـإِنْ أُطْعِمَـتْ تَاقَـتْ وإِلَّا تَسَـلَّتِ[1]

وقال بعضُ الأدباءِ : [من الطويل]

إذا مَـا أتـاكَ الـدَّهرُ يومـاً بنكبَـةٍ ... فـأفرغْ لهـا صَـبراً وأَوسِـعْ لهـا صَـدْرَا
فـإِنَّ تصَـاريفَ الزَّمـانِ عجيبـةٌ ... فيوماً ترى يُسراً ويوماً ترى عُسْـرَا[2]

ومن مواعظِ سيدِي وولي أَمري عبدالله بن علوي الحداد رَضِيَ اللهُ عنه: [من الكامل]

أيـا صَـابراً أبشـرْ وبشـرْ مـن صَـبرْ ... بالنَّصـرِ والفَـرَجِ القريـبِ وبـالظَّفَرْ
نَـالَ الصَّـبُورُ بصَـبرِه مَـا يَرتجِـي ... وصَفَتْ له الأَوقاتُ مـنْ بعدِ الكَدَرْ[3]

ومما يَحملُ على الصَّبر التَّأسِّي بمنْ أصابتهُم المحنُ ، فأُوذُواْ وصَبرواْ ، ففَازواْ وظفَرواْ برضاءِ الله تعالى ، ولا سِيَما الكُمَّل ، لأَنَّ في ذلك تسكينُ النفسِ على جُلِّ الأُمورِ الشَّاقةِ لِتَنالَ الأجرَ الموعودَ به للصَّابرينَ ، وما أَحسَنَ ما قالَه بعضُ الفُضَلاءِ مُخبراً عنْ شِدَّةِ صَبرِه على مَشَاقِّ الدَّهرِ، فقال: [من الطويل]

تَنكَّـرَ لي دَهْـرِي ولمْ يَـدْرِ أَنَّنِـي ... أَعَـزُّ وأَحْـدَاثُ الزَّمـانِ تَهُـونُ[4]
وبَـاتَ يُرِينِـي الخطْـبُ كيـفَ اعْتِدَائِـه ... وبِـتُّ أُرِيـه الصَّـبرَ كيـفَ يكـونُ

---

(١) الأبيات لسيدنا إبراهيم الخواص، كما أوردها ابن الملقن في طبقات الأولياء ص:(١١).

(٢) البيتان في المستطرف ص:(٤٨٦)، وذكر ابن عجيبة في كتابه: إيقاظ الهمم ص:(٤٨١) قصة عن الولي الصالح قاسم بن صبيح أن بعض الحكام قصد أذيته ففر منه وقصد ضريح الإمام الغزالي فَمُدَّ له من القبر بعود من الريحان مكتوب عليه بمداد لم يجف خطه هاتان البيتان. وانظر في (نزهة الأبصار) ص:(٨٠٨).

(٣) ديوان الإمام الحداد ، ص : (٢٩٩) .

(٤) البيتان لسيدنا الإمام علي رضيَ اللهُ عنه وهما في ديوانه ص : (١٣٦).

وقال آخر: [من الطويل]

عـلى قَـدْرِ فَضْـلِ المـرْءِ تَـأْتِي خُطُوبُـه ويُحمَـدُ منـه الصَّـبرُ مِمـا يُصِـيبُه
فَمـنْ قـلَّ فِـيما يَحتشِـيهِ اصْـطِبَارُه فقـدْ قـلَّ فِـيما يَرتَجِيـهِ نَصِـيبُه(١)

وبالجُملةِ فالصَّبرُ قطبُ مدارِ الإسلامِ والإيمانِ فهو الدينُ كلُّه، ومعناه: "حَبسُ النَّفسِ وقَهْرِهَا على التِزَامِ مُقْتَضَى الشَّرْعِ"، وهو أخُو الشُّكرِ من وجهٍ وعينُه من وجهٍ آخر، فإن الشُّكرَ لا يكملُ إلا بالصبرِ ومن صبرَ فقد شكرَ نِعمةَ الله تعالى عليه، فإذا تعارضَ أمرٌ نفسيٌّ ودينيٌّ وقدَّمتَ أَمرَ الدينِ على أمرِ النفسِ فقد تحَقَّقتَ بمقامِ الصَّبرِ في ذلكَ الأمرِ، وقد ذكرَ الله تعالى الصَّبرَ في كتابِه العزيزِ، وأثنى عليهِ وعلى أهلِه، وكرَّرَ ذلك كثيراً، وكذلك أَطْنَبَ فيه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم وسَائرُ أَهلِ الله تعالى .

والصَّبرُ يَتَنَوَّعُ باعتبارِ تفَاصِيلِه، فصبرٌ على المعصيةِ والشَّهوةِ، وصبرٌ على الطَّاعةِ، وصبرٌ في المصيبةِ، وصبرٌ عن الشَّكوى إلى الخلقِ وأمَّا الشَّكوى إلى خالقِه فهو محمودٌ، قالَ اللهُ تعالى عن عبده أيوبَ عليه السَّلامُ :﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٣] ، معَ مدحِه سبحانَه له وثنائِه عليهِ بقولِه:﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[ص: ٤٤]، فإنَّ الله تعالى ما ابتلى عبادَه إلا ليَتَضَرَّعُواْ إليه، ويسأَلوه رفعَ البلاءِ عنهم والإعانة على فعلِ ما طلبَه منهم من فِعلٍ أو وترٍكٍ ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[النحل: ١٢٧] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ١٥٣]، ويقالُ في الصَّبرِ: صَبَرَ في الله، إذا أوذيَ فيه تعالى، والصَّبرُ بالله إذا شَهِدَ صبرَه به سبحانَه لا بنفسه، والصَّبرُ عن الله أي آخذاً عنه ومستمداً منه الصبرَ.

---

(١) البيتان لأبي عبد الله محمد بن ظفر المكي ، نسبهما له ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ، ص: (١٧٥٤)، وابن الكاتب في خريدة القصر، ص:(١٧٦٥)، وهما أيضا في كتاب المستطرف، ص: (٤٨٧).

وللصبرِ فوائدُ وثمراتٌ، وله فضَائلُ في الأخبارِ والآياتِ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ، فليسَ لثوابِ الصبرِ تقديرٌ ولا حِسابٌ ، وجزاؤه بأحسنِ ما يكونُ، كما قالَ اللهُ سبحانه تعالى:﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: ٩٦]، وأهلُ الصَّبرِ همُ الأئمةُ الهادونَ، قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ﴾ [السجدة: ٢]. وقد ذكرَ الله سبحانه الصبرَ في كتابه فيما يزيدُ على سبعينَ موضعاً كما قُلنا آنفاً ، قال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «الصَّبرُ نِصْفُ الإِيمَانِ»، وقال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «منْ أُعْطِيَ حَظَّهُ منَ اليَقِينِ والصَّبرِ لمْ يُبَالِ بِما فَاتَه مِنْ قِيامِ اللَّيلِ وصِيَامِ النَّهارِ»(١).

والصبر كنز من كنوز الآخرة، ولما سئل صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم عن الإيمان قال: «هوَ الصَّبرُ والسَّماحَةُ» (٢).

❁ ❁ ❁

(١) لم أجد تخريجه فيما بين يدي من المصادر والمراجع ؛ وإنما المشهور عنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قوله: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ»، وهذا الحديث رواه البيهقي في الآداب برقم (١٥٥)، وفي السنن الكبرى برقم (٢٠٥٨٧)، وفي شعب الإيمان برقم (٨٠٠٢)، عن أبي الدرداء رضيَ اللهُ عنه، ورواه الترمذي في السنن برقم(٢٠١٣)، وأبو يعلى في مسنده برقم(٤٥٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٤٦٤)، والإمام أحمد في مسنده برقم (٢٥٢٩٨)، عن عائشة رضيَ اللهُ عنها، وهو صحيح ورجاله ثقات.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق برقم (٦١) ، وأبو يعلى في مسنده برقم (١٨٤٩) البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٣٨٠) ، عن جابر رضيَ اللهُ عنه ، ورواه الإمام أحمد في كتاب الزهد برقم (٥٣) عن الحسن رضيَ اللهُ عنه ، وفي المسند [٤/ ٣٨٥] برقم (١٩٤٥٤) ، عن عمرو بن عبسة رضيَ اللهُ عنه ، وهو حديث صحيح لغيره .

الأَخلَاقُ المحْمُوْدَةُ

قال سيدِي الإمامُ الغَزالي رحمهُ اللهُ تعالى:" حُصِرَت الأَخلاقُ المحْمودَةُ في التَّوبةِ والخَوفِ والزُّهدِ والصَّبرِ والشُّكرِ والإِخلاصِ والتَّوكلِ والمحبَّةِ والرِّضى وذكرِ الموتِ". وقدْ أَشْبَعَ الكلامَ عليها في إحياءِ علومِ الدينِ(١)، وذكرَ حدُودَها وحقَائقَها وأسبابَها التي بها تُجْتَلَبُ، وثمرتَها التي منها تُسْتَفَادُ، وعلاماتِها التي بها تُعرفُ، وفضيلتَها التي لأَجلِها فيهَا تُرْغَبُ. والعشرُ الخصالُ التي أوردَها الإمامُ الغزالي نذكر بعضها فنقولُ:

أَوَّلاً التَّوبَةُ: وهيَ عبارةٌ عنْ معنىً يَنْتَظِمُ منْ ثلاثةِ أُمورٍ: عِلْمٌ وحَالٌ وفِعْلٌ. فأَمَّا العلمُ فهو وُجِدَتْ هذِه المعْرِفةُ ثارَ منها حالٌ، وهو التَّألمُ بخوفِ فواتِ المحبوبِ، وهو النَّدمُ، معرفةُ ضرَرِ الذُّنوبِ، وكونِها حِجاباً بينَ العبدِ وبينَ كلِّ محبُوبٍ، فإذا وباستيلائِه تثورُ إرادةُ التَّوبةِ وتَلافِي مَا مَضى وهذا هو الفعل، وهيَ واجبةٌ منَ الصَّغائرِ ومنَ الكبائرِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[التحريم: ٨] الآيةَ. وعنْ أبي مُوسى الأَشعري(٢)

---

(١) انظر ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين ، الجزء (٧-٨).

(٢) هو سيدنا أبو موسى عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري من قحطان صحابي جليل، من الشجعان المشهورين والولاة الفاتحين، وأحد الحكمين اللَّذَين رضيَ بهما علي ومعاوية بعد حرب صفين. ولد قبل الهجرة بـ(٢١)سنة، في زبيد (باليمن) وقدم مكة عند ظهور الاسلام ، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة، وكان أحسن الصحابة صوتا في التلاوة، وروى(٣٦٠)حديثا، استعمله رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم على قضاء زبيد وعدن، وقال عنه: «سيِّدُ الفَوَارِسِ أَبُو مُوسَى »، وولاه عمر بن الخطاب البصرةَ سنة(١٧)هـ ، فافتتح أصبهان والأهواز، ولما ولي عثمان عزله، ثم ولاه على الكوفة، فأقام بها إلى أن قتل عثمان، ثم أقره علي، وفي وقعة الجمل أرسل علي يدعو أهل الكوفة لينصروه ، فأمرهم أبو موسى بالقعود في الفتنة، فعزله علي ، فأقام إلى أن كان التحكيم وخدعه عمرو بن العاص ، فرجع إلى الكوفة ، فتوفي رضيَ اللهُ عنه فيها، سنة (٤٤)هـ، [تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٥٤٥)].

رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبي صَلَّى اللهُ عَليه وعلى آلِه وصَحْبِه وسَلَّم قال: «إِنَّ الله يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(١). وعن أَنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: « كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطّائِينَ التَوَّابُونَ»(٢).

وبالجُملةِ فالتَّوبةُ أَساسُ الخيراتِ، لأنَّها مفتاحُ العبَاداتِ، وأجَلُّ أسبابِ الفتُوحَاتِ، قالَ الإمامُ الغَزَالي رحمهُ اللهُ تعالى: "مِنْ تركَ المبَادَرةَ إلى التَّوبةِ بالتَّسويفِ كانَ بينَ خَطَرينِ عظيمينِ ، أَحَدِهما : أنْ تَتَراكمَ الظُّلمةُ على قلبِه منَ المعَاصي حتى تصيرَ رَيناً وطَبعاً فلا يقبلُ المحْوَ ، الثَّاني: أَنْ يُعاجِلَه المرَضُ أوِ الموتُ فلا يجدُ مُهْلَةً للاشتغالِ بالمحوِ، ولذلكَ وَرَدَ في الخبَرِ «أَنَّ أَكثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ منْ التَّسْويفِ ، وأَنَّ أكثَرَ صُرَاخِهِمْ : يَا أُفٍّ لِلمُسَوِّفِ » (٣)، فَما هَلَكَ منْ هَلَكَ؛ إلا بالتَّسويفِ ، فيكونُ تَسْويدُ القَلبِ نَقدَاً ، واجلاؤُه بالطَّاعةِ نَسِيئةً إلى أَنْ يختَطِفَه الأَجلُ ، فيأتيَ الله بقلبٍ غيرِ سليمٍ ، ولا يَنْجُو إلا منْ أَتى الله بقلبٍ سَليمٍ "(٤).

---

(١) حديث صحيح ، رواه مسلم برقم (٢٧٥٩) والبيهقي في السنن [٢/ ٣٥٣] برقم (١٦٩٤٦) وفي شعب الإيمان [٩/ ٢٩٠] برقم (٦٧٧٣) ، وفي كتاب الآداب برقم (٨٤٦)، ورواه أحمد برقم (١٩٥٢٩) ، الطيالسي في مسنده برقم (٤٩٢) ، والبزار في مسنده برقم (٣٠٢١) ، عن أبي موسى رضيَ اللهُ تعالى عنه .

(٢) رواه الترمذي برقم(٢٤٩٩)، وابن ماجة برقم(٤٣٩٢)، والحاكم في المستدرك برقم (٧٦١٧)، وقال صحيح الإسناد، ورواه أحمد برقم(١٣٠٤٩)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٤٢١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٦٩)، وأبو يعلى في مسنده برقم (٢٨٥٤)، والدارمي في مسنده برقم (٢٧٢٧).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل (٢٠٩) عن عبدالله بن المبارك ، بلفظ : "بلغني أن أكثر تلاقع أهل النار: أُفٍ لسوف؛ أُفٍ لسوف". وأُف : كلمة تدل على التأفف والضيق وعدم الاحتمال .

(٤) انظر كتاب إحياء علوم الدين (٧/ ٤٤) .

ثانياً الخوف: وهو تَوَجُّعُ القلبِ وتألُّمه لِانتِظَارِ مكرُوهٍ في المُستَقبلِ ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠ - ٤١]، وعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال :" لَمَّا أَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] تَلَاهَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ- أَوْ قَالَ: يَوْمٍ - فَخَرَّ فَتًى مَغْشِيًّا عَلَيْهِ فَوَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ فَإِذَا هُوَ يَتَحَرَّكُ فَقَالَ: يَا فَتَى، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَالَهَا فَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ الله، أَمِنْ بَيْنِنَا ؟! فَقَالَ لهم: أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الله تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم: ١٤] "[(١)] .

وقال صَلى الله عَليه وآلِه وصَحبِه وسَلم: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يَخْرُجُ مِنْ عَينِه الدَّمْعُ ، وإِنْ كانَ مثلَ رأْسِ الذُّبَابَةِ منْ خَشيَةِ الله، ثمَّ يُصِيبُ شَيئاً وَقتَ خُرُوجِه، إلا حَرَّمَهُ الله تعَالى عَلى النَّارِ»[(٢)]. وَعَنْ عَائِشَةَ[(٣)] رَضِيَ اللهُ عنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله ،

---

(١) رواه الإمام الحاكم برقم (٣٣٣٨) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ورواه أيضا الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٩٥) ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٧٥٣) .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٩٦٧٨) ، وابن ماجة في سننه برقم (٤٣٣٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٨٠٢) ، عن ابن مسعود رضيَ اللهُ تعالى عنه .

(٣) سيدتنا أم المؤمنين، أم عبدالله، الصديقة عائشة بنت أبي بكر الصديق، زوج رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم، من أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب ، ولدت قبل الهجرة بتسع سنوات، تزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم قبل الهجرة بسنتين ودخل بها في شوال وعمرها تسع سنين، ولم ينكح بكراً غيرها ، كانت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن رواية للحديث عنه، روت عنه (٢٢١٠) حديث، وكان مسروقٌ إذا حدث عنها قال : حدثتني الصديقة ابنة الصديق البريئة المبرأة ، وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة رضيَ اللهُ عنها أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة ، توفيت رضيَ اللهُ عنها في المدينة المنورة سنة (٥٧) هـ ، [الأعلام للزركلي (٣/ ٢٤٠) ، الوافي بالوفيات للصفدي (٥/ ٣٢٦)].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[المؤمنون: ٦٠]، أَهُوَ الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ» (١).

أَسْبَابُ الخَوْف

مِنْ أَسبابِ الخوفِ معرفةُ عيوبِ النَّفسِ وتَفرِيطِهَا في جَنْبِ الله تعالى، منَ التفريطِ بأَوامِره ونَواهيهِ، فليسَ للخَائفِ شُغلٌ إلا المرَاقبةَ والمجَاهدةَ، وأَقلُّ دَرجاتِ الخَوفِ أَن يَمْنَعَ النفسَ عنِ المحْظُوراتِ فَيكون وَرِعاً، واعلَمْ أَنه كما يَنبغِي للعبدِ أَنْ يكونَ خَائفاً، كذلك ينبغي له أَنْ لا يَفارقَه الرَّجاءُ، إِذْ هُما مثلُ الدَّواءِ، كما أشار إلى ذلك الحبيبُ عبدُالله بن علوي الحدَّادِ بقوله: [من الكامل]

والخَوفُ بالله العظيمِ وبِالرَّجَا ... فَكِلَاهُما مِثْلُ الدَّواءِ الأَنْفَعِ (٢)

قال الإِمامُ الغَزَالي رحمهُ اللهُ تعالى: "اعلمْ أَنَّ للخوفِ والرجاءِ زمامينِ يُقادُ بهما مَنْ لم يَظهرْ لقَلبِه جمالُ الحقِّ، فمنْ شاهدَ بقلبِه ذلكَ الجمالَ يَرقَى عنِ الخوفِ والرجاءِ، وإليه الإِشارَةُ بقولِ الوَاسِطِيِّ(٣):الخوفُ حِجَابٌ بينَ الله وبينَ العبدِ، وقالَ أَيضاً: إذا ظهرَ الحقُّ عَلى السَّرائرِ لا يَبقى فيها فَضْلَةٌ لا لِرجاءٍ ولا لخوفٍ ".اهـ(٤).

---

(١) رواه ابن ماجة برقم(٤٣٣٨)،والبيهقي في شعب الإيمان برقم(٧٦٢)،ورواه أحمد برقم(١٣٠٤٩)، والحاكم برقم (٣٤٨٦)، عن عائشة رضيَ اللهُ تعالى عنها، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) انظر ديوان الإمام الحداد، ص: (٣٦٤).

(٣) هو الإمام العارف بالله تعالى أبو بكر محمد بن موسى الواسطي الصوفي، من كبار أتباع الجنيد، من أهل واسط، وأصله من فرغانة، دخل خراسان، وأقام بمرو حتى مات بها، قالوا: لم يتكلم أحد مثله في أصول التصوف، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٣٣١) هـ. [طبقات الأولياء ٢٤، الأعلام (٧/ ١١٧)].

(٤) انظر كتاب إحياء علوم الدين (٧/ ٥٠٩).

واعلمْ أَنَّ الله سبحانه وتعالى قد جمعَ بينَ الرَّجاءِ والخوفِ في آياتٍ كثِيرةٍ ، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأعراف: ١٦٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الرعد: ٦] ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١ - ٣].

وقالَ الشيخُ عبدُالعزيز[١] رحمهُ اللهُ تعالى-في طَهارَةِ القُلوبِ-:"معنى «حاء» أُقْسِمُ بِحلمِي، ومعنى «ميم» أُقسِمُ بِمَجدِي"، ومن الجمالِ المجْدُ والحلمُ، ومن الجَلالِ العزُّ والعِلمُ، ثمَّ منَ الجمالِ غافرُ الذَّنبِ قابلُ التَّوبِ، ثمَّ من الجلالِ شديدُ العقابِ، ثم من الجمالِ ذو الطَّولِ؛ أي ذي الفضلِ، رَدَّدَكَ بينَ خوفِه ورَجائه، وأقامَك بينَ كِبرِه وكِبرِيائه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣] .

ورَوَى التِّرمذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه ، أَنّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ ، قَالَ: « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » ، قَالَ : أَرْجُو

---

(١) هو الشيخ الإمام العالم الصالح عز الدين عبد العزيز بن أحمد بن سعيد، الدميري، الشافعي، المعروف بالديريني، صاحب الكرامات المشهورة، والمصنفات الكثيرة، ولد سنة (٦١٢) هـ ، وكان من أهل العلم والزهد والتقشف ، كثير الأسفار في قرى مصر، يفيد الناس وينفعهم، وله نظم كثير في عدة فنون، ومشاركة في علوم شتى، نظم وجيز الغزالي في قريب الخمسة آلاف بيت ونظم أرجوزة في التفسير سماها التيسير في التفسير تزيد على ثلاثة آلاف ومائتي بيت ومن أجل كتبه كتاب طهارة القلوب في التصوف ، وكان له معرفة جيدة بالفقه ، وله قدرة على نظم العلم وغيره، وكان ممن جمع بين العلم والعمل. توفي رحمَهُ اللهُ سنة (٦٩٩) هـ ، [المنهل الصافي (٢/ ١٢٢)] .

الله وَأَخَافُ ذُنُوبِي ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: « لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ الله مَا يَرْجُو، وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ » (١) .

❁ ❁ ❁

ثالثاً الزُّهدُ : وهو خلافُ الرَّغْبَةِ لُغَةً، يقالُ زهدَ في الشَّيءِ وَعَنْهُ أي: لمْ يَرْغَبْ فيه، وحقيقَته انصِرافُ الرَّغبةِ عنِ الشَّيءِ إلى ما هوَ خيرٌ منه، وفضْلُ الزهدِ شهيرٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]، وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف: ١٢٨]، وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْجِسْمِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فِي الْمَالِ وَالْجِسْمِ» (٢).

أَقْسَامُ الزُّهْدِ: الزهدُ على قِسْمَينِ: -

١- **زُهْدٍ في الدُّنيَا،** لأَنها تُلهِي عنِ الله جلَّ وعَلا، وعنْ خدمتِه وعنِ الأَعمالِ الصَّالحةِ، مع أنها لا تَصفُو لصاحبِها بلْ لا يزالُ صاحبُها في عَناءٍ ومحنٍ وبلاءٍ .

٢- **زُهْدٍ عمَّا في أَيدِي النَّاسِ،** قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾[الملك: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا

---

(١) حديث حسن ، رواه الترمذي برقم (٩٩٩) ، والبيهقي في كتاب الآداب برقم (٨٢٨) ، وفي شعب الإيمان برقم (١٠٠١) ، ورواه النسائي في سننه (٦/ ٢٦٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٩٢)، وابن ماجة في سننه برقم (٤٤٠٢) ، ورواه أبو يعلى في مسنده برقم (٣٣٠٣) ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه الإمام البخاري برقم (٦٤٩٠) ، ومسلم برقم (٧٦١٧) ، ورواه البيهقي في الآداب برقم (٨٠٦) ، وفي شعب الإيمان برقم (٤٥٧٤) ، والبغوي في شرح السنة (٧/ ٢٢٣) ، وابن حبان في صحيحه برقم (٧١٣) ، وأبو يعلى في مسنده برقم (٦٢٦١)، وأحمد في المسند برقم (٨٣٦٩) ، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه .

يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[فاطر: ٢ – ٣]. وقال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم: «ازْهَدْ في الدُّنْيا يُحِبَّكَ الله، وَازْهَدْ فِيما عِنْدَ النَّاس يُحِبَّكَ النَّاسُ» (١).

دَرَجَاتُ الزُّهد: للزُّهدِ دَرجاتٌ، فزُهدٌ في الحرامِ والشُّبهةِ وهو في معنى التَّقوى، وزُهدٌ فيما زادَ على الحَاجةِ، ومِنْ فَوائدِ الزُّهدِ : أَنَّ فيه فَرَاغاً للرُّوحِ والبَدنِ، بالطَّاعةِ والرَّغبةِ فيها، والتَّجَنُّبِ عنِ الشُّبُهَاتِ، قال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم: «الزُّهْدُ في الدُّنْيا يُرِيحُ القلْبَ وَالبَدَنَ» (٢). وَرَوَى ابنُ المسَيّبِ(٣) عنْ أَبي ذَرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم أنه قال: «مَنْ زَهِدَ في الدُّنيَا أَدْخَلَ الله تعَالى الحِكْمَةَ فِي قَلْبِه، وأَنطَقَ بهَا لِسَانَه، وعَرَّفَهُ دَاءَ الدُّنيَا ودَوَاءَهَا، وأَخْرَجَه مِنْهَا سَالماً إِلى دَارِالسَّلامِ»(٤).

---

(١) رواه ابن ماجة في مسنده برقم(٤٢٤١)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ٢٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠٥٢٢)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم(٥٩٧٢)،وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٥٣)، والحاكم في المستدرك برقم (٧٨٧٣) ، عن سهل بن سعد رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٢٩٩) ، وفي المعجم الكبير برقم (١٠٧٤) ، والقضاعي في مسند الشهاب برقم (٢٧٨) ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠٥٣٦) ، عن عبدالله بن عمرو رضيَ اللهُ تعالى عنهما ، وتمام الحديث «..والرَّغْبَةُ فِيها تُكْبِرُ الهَمَّ والحَزَنَ ، والبَطَالَةُ تُقَسِّي القَلْبَ » ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٠٥٨) ، وقال رجاله وثقوا على ضعف بعضهم إلا أشعث بن نزار لم أعرفه .

(٣) هو الإمام أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة المشهورين بالمدينة، ولد سنة (١٣)هـ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع والعبادة، كان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر، روي أنه قال: حججت أربعين حجة؛ وما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة، لمحافظته على الصف الأول، وقيل إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بالمدينة المنورة، سنة (٩٤)هـ، [وفيات الأعيان (٢/ ٣٧٥)، الأعلام للزركلي(٣/ ١٠٢)].

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (١٠٢)، والبيهقي في الشعب (١٠٥٣١)، مرسلاً عن صفوان بن سليم.

وفي "النَّصَائحِ الدِّينيَّةِ" لسَيدِي عبدِالله بن علوي الحدَّادِ نفعنا الله تعالى بعلمِه قال: "حَقِيقَةُ الزُّهدِ خُروجُ حبِّ الدّنيا والرّغبةَ فيها منَ القَلبِ، وهَوَانُ الدُّنيا على العبدِ حتَّى يَكُونَ إِدْبَارُها وقِلَّةُ الشَّيءِ منهَا أَحبَّ إِليهِ منْ ضِدِّهِ، وهذا منْ حيثُ البَاطِنِ، وفي الظَّاهِرِ يكونُ متوَارياً عنها مُجَافياً لها اختيَاراً معَ القُدرَةِ عليها، ويكونُ مُقْتَصِراً من سائرِ أمتِعَتِها مأْكلاً ومَشرباً ومَلبساً ومَسكناً وغير ذلك على ما لابُدَّ منه دونَ التَّنعْمِ والتَّمتُّعِ بشَهواتِها"[1].

❁ ❁ ❁

حقِيقَةُ التَّوكّل

حقِيقَةُ التَّوكُّلِ الثقةُ بالله تعالى، وَوُكولُ الأَمرِ إِليه والاعتمادُ عليه، واعتقادُ أنَّ الأمرَ منه وإِليه، ولو معَ مُباشرةِ الأَسبابِ كما كانَ يفعَلُه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، إِذِ التَّوكلُ لا يُنافي الكسبَ، ومنْ ثَمَّ قالَ سيدِي عبدُالله بن علوي الحداد نفعنا الله تعالى به في بعضِ كُتُبِه[2]: "وليسَ منْ شرْطِ التَّوكلِ أَنْ يَكونَ مُتَجَرِّداً منْ أَسبابِ الدُّنيا، بلْ قدْ يكونُ مُلابِساً للأَسبابِ معَ التَّوكلِ، ولكنَّه يَكونُ مُعتَمِداً على الله تعالى لا على الأَسبابِ، وعلامَةُ صِدقِه في ذلك أنْ لا يَسكنَ إِليها ولا يَطمئنَّ بها في حالِ وجودِها، ولا يَتَزلزلُ ولا يَضطَربُ عندَ فقدها وتَشْويشِها.

قالَ: وقد يكونُ العبدُ مُتجَرِّداً عن أَسبابِ الدنيا وهو غيرُ متوكلٍ مهما كانَ مُتعلقاً بالأسبابِ، وطَامِعاً ومُلتَفِتاً إلى الخلقِ، ثُمَّ إِن الأسبابَ على قسمينِ: دِينِيَّةٍ ودُنْيَوِيَّةٍ.

---

(١) النصائح الدينية والوصايا الإيمانية ، ص : (٢٣٢).

(٢) النصائح الدينية والوصايا الإيمانية ص (٣٣٤ – ٣٣٥).

أما الأسبابُ الدِّينيةُ ؛ فمثل العلومِ النَّافعةِ والأعمالِ الصالحةِ التي لابُدَّ منها ، فلابُدَّ لكلِّ مسلمٍ من إقامةِ تلكَ الأسبابِ والعَمَلِ بها مع الاعتمادِ على الله تعالى دُونها.

وأَما الأسبابُ الدُّنْيَويَّةُ ؛ فَكالصَّنائعِ والحِرَفِ وسائرِ ما يَتَسَبَّبُ به النَّاسُ لتحصيلِ مَعايشهم ، وهذه الأسبابُ لا يجوزُ لِلإنسانِ تركُ ما يحتاجُ إليه منها ولا يَسْتَغْنِي عنه، إلا إذا كانَ عاجِزاً لا يستطيعُ السَّعيَ والحركةَ ، أَو كانَ ممنْ أُقيمَ في غيرِ ذلك من عبادِ الله تبارك وتعالى أَهلِ المعرفةِ واليقينِ .

وعلى كلِّ حالٍ فليسَ يجوزُ للإنسانِ أَن يتركَ السَّببَ لمعاشِه الذي لابُدَّ له منه، إلا إذا كانَ عَاجزاً أو مِمّنْ في التَّجريدِ منْ أهل التجريدِ ، ويحرمُ على الإنسانِ أَن يَقعدَ عنِ الاكتسَابِ الذي يقدرُ عليه ويَحتَاجُ إليه ، ويترك نفسَه وعيالَه ضَيَاعاً يَسأَلونَ النَّاسَ ويَستَشْرِفونَ إِلى مَا في أَيدِيهم، وقدْ قال عليه أَفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ: «كَفَى بِالمرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ»[1]. وفي الحديثِ عنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قال: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا فَيَحْتَطِبَ فَيَحْمِلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَأْكُلَ أَوْ يَتَصَدَّقَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا أَعْنَاهُ الله مِنْ فَضْلِهِ فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى» [2]. واللهُ تعالى أعلم ".

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم برقم (٩٩٦)، ورواه الإمام أحمد في مسنده برقم (٦٤٩٥)، والنسائي في السنن الكبرى (٩١٣١)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٦٩٤)، وابن حبان في صحيحه (٤٢٤٠)، والبزار في مسنده برقم (٢٤١٥)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٠٠٨٨)، عن ابن عمرو رضيَ اللهُ عنهما .

(٢) حديث صحيح، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم (١٤٧٠) ، والنسائي في السنن الكبرى برقم (٢٣٨١) ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (١١٦٩) ، والإمام مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٨) ، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (١٠٦٧٦)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٢٥٠) ، وابن ماجة في سننه برقم (١٨٣٦)، وأبو يعلى في مسنده (٦٧٥)، والإمام أحمد في المسند برقم (٧٣١٧) ، عن أبي هريرة.

واعلـمْ أنَّ ثمـرةَ التَّوكـلِ التَّسـليمُ، وثَمـرةَ التَّسـليمِ التَّفـويضُ، وهـو - أَعنـي التَّفويضَ - أعلى مراتبِ التَّوكلِ الذي هو حالُ العارفينَ، والتَّفويضُ: هو رَدُّكلِّ أمرٍ إلى الفاعلِ المُختَارِ، فإنَّه الذِي يفعلُ ما يشاءُ ويختارُ.

وقال بعضُ العارفينَ في شرحِ التَّوكلِ: " هو طَرْحُ البَدَنِ في العُبُودِيَّةِ ، وتَعَلُّقُ القلبِ بالرُّبُوبِيَّةِ ، فإنْ أُعْطِيَ شَكَرَ ، وإنْ مُنِعَ صَبَرَ"(١). وقديماً أَنشَدُواْ: [من الطويل]

تَوَكَّـلْ عـلى الـرَّحمنِ في الأَمـرِ كُلِّـهِ ولا تَـرْغَبَنْ في العَجـزِ يَومـاً عـنِ الطَّلَـبْ
أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الله قـالَ لمـرْيَمٍ وهُـزِّيْ إِليـكِ الجِـذْعَ يَسَّـاقَطُ الرُّطَـبْ
ولـوْ شَاءَ أَحْنَى الجِـذْعَ مـنْ غَـيرِ هَزِّهَـا إِليهَـا وَلكِـنْ كُـلُّ شَيءٍ لَـه سَـبَبْ(٢)

ويقالُ: علامةُ المتوكلِ هيَ أنْ لا يسألَ ولا يَرُدَّ ولا يَحبِسَ ، وأكملُ أَحوالِ المتَوكلِ أنْ يكونَ بينَ يدي الله سبحانه وتعالى كالميِّتِ بينَ يدِي الغَاسلِ يُقلبُه كيفَ ما أرادَ ، لا يكونُ له حركةٌ ولا تدبيرٌ.

قال بعضهم: [من البسيط]

حقيقـةُ العبـدِ عنـدِي في تَوَكُّلِـه سكونُ إِحسَاسِـه عـنْ كـلِّ مَطْلُـوبِ(٣)
وأَن تَـراه لِكـلِّ الخَلْـقِ مُطَّرِحـاً يَصُـونُ أَسرَارَه عـن كـلِّ مَحبُـوبِ

---

(١) هذه العبارة من كلام أبي تراب النخشبي رحمَهُ اللهُ تعالى كما في الرسالة القشيرية ، ص: (٢١٠).

(٢) ذكرها الثعالبي في اللآلي والدرر ص:(١٠) ، وابن عبد البر في بهجة المجالس ص:(٢٨٦) ، والأبهشي في المستطرف ص:(٤٧٥) . وللإمام الأبهشي من إنشاده في هذا الباب قوله : [من الطويل]

تَوَكَّـلْ عـلى الـرَّحمنِ في الأَمـرِ كُلِّـهِ فـما خـاب حقـا مـن عليـه تـوكلا
وكـن واثقـا بـالله واصـبر لحكمـه تفـز بالـذي ترجـوه منـه تفضـلا

(٣) البيتان لم أعثر على قائلهما، وهما في كتاب تحفة الأريب ونزهة اللبيب لأبي مدين الفاسي، ص:(٥٢).

وقال الإمام أَبو عليٍّ الدَّقَاقُ[١] رحمهُ اللهُ تبارك وتعالى: "للمتَوكلِ ثلاثُ درجاتٍ: التوكلُ ثمَّ التَّسليمُ ثمَّ التَّفويضُ، فالمتوكلُ يسكنُ إلى وعدِه وصاحبُ التَّسليمِ يكتَفي بعلمِه، وصاحبُ التَّفويضِ يَرْضَى بِحُكمِه"[٢].

وقد اختلفَ العلماءُ في الاكتسابِ والإعراضِ عنه اعتماداً على الله تعالى، أيهما أفضل؟ وأَرجحُ الأَقوالِ وهوَ المختارُ كما قالَه الإمام الغزالي:"- التفصيلُ- فمنْ كانَ يتفرغُ بتركِ الكَسْبِ للطَّاعاتِ من ذِكْرٍ وفِكْرٍ وغيرِهما وكان الكَسبُ يشوشُ عليه ذلك، ولم تَسْتَشْرِفْ نَفسُه إلى من يَدخلُ عليه فيحملُ إليه شَيئاً ولم يسخطْ إذا تَعَسَّرَ رِزْقُه ؛ فالتَّوكلُ في حقِّه أفضلُ، لما فيه من الصَّبرِ ومجاهدةِ النَّفسِ، ومنْ كانَ يَضْطَرِبُ قلبُه ويسخطُ عندَ تعذُّرِ الرِّزقِ عليه، ويَسْتَشْرِفُ إلى النَّاسِ فالكسبُ في حقِّهِ أَفضَلُ"[٣]. وهذا الخلافُ إنما هو فيمنْ لم يَتوجَّه عليهمُ الأَمرُ بالكسْبِ لِقِلَّةِ العَائلَةِ ، أَما المُعِيلُ أومن ليسَ له قَدَم صِدْقٍ في مَسَالكِ التَّجريدِ ، فلا يجوزُ له إلا الأَخذُ

---

(١) هو الأستاذ أبو علي الحسن بن علي بن محمد الدقاق النيسابوري الشافعي العارف الزاهد لسان وقته وإمام عصره، شيخ الصوفية وشيخ أبي القاسم القشيري ، كان فارها في العلم متوسطا في الحلم محمود السيرة مجهود السريرة جنيدي الطريقة سري الحقيقة أخذ مذهب الشافعي عن القفال والحصري وغيرهما وبرع في الأصول وفي الفقه وفي العربية حتى شدت إليه الرحال في ذلك ، قال الإمام الغزالي: كان زاهد زمانه وعالم أوانه، ومن كلامه "من سكت عن الحق فهو شيطان أخر "، وكان كثيرا ما ينشد : [البسيط]

أحسنت ظنّك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف شر ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وتوفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٤٠٦)هـ ، [الوافي بالوفيات (٤/ ١٧٩) ، شذرات الذهب (٥/ ١٧٩)].

(٢) انظر كتاب الرسالة القشيرية ، صفحة (٢٠٣).

(٣) انظر كتاب التوحيد والتوكل من إحياء علوم الدين ، (٨/ ٢٧٨) .

بالأَسبابِ ؛ مع عدَمِ الاعتمادِ عليها ولا يَغْتَر بعملِ الأَكابِرِ المتَجَرِّدينَ عن الأسبابِ في خواصِ أَنفسِهِم مَا لمْ يَشمَّ رائحةَ ما لهمْ من المقاماتِ.

وقد ذكرَ الشيخُ العلامة ابنُ حَجَرٍ[١] رحمهُ اللهُ تعالى، في بعض كتبه "أنَّ تَوكلَ أئمةِ الجَمْعِ مُبَاشَرةُ الأَسبَابِ؛ معَ شُهُودِ مُسَبِّبِهَا، وعَدَمُ تَأَثُّرِ النَّفسِ في غيرِ مَا لا يُلائمُهَا"، وقالَ أئمةُ الفَرْقِ تركُ مباشرتِها اعتماداً للقلبِ على ربِّه ، وهوَ أن لا يتَسَخَّطَ عنْ ضيقِ رزقِه ، ولا يَتَشَوَّفَ لِما في يَدِ مخلوقٍ ؛ أفضلُ من الكسبِ ، فإرادةُ التَّجريدِ معَ داعيةِ الأَسبابِ شَهوةٌ خَفِيَّةٌ ، وسُلوكُ الاكتسابِ معَ داعيةِ التَّجريدِ انحطَاطٌ عنِ الرُّتبةِ العَليَّةِ "[٢]. اهـ.

(١) هو الإمام العلامة، شهاب الدين، شيخ الإسلام، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الانصاري ، شيخ الإسلام ، خاتمة أهل الفتيا والتدريس ، ناشر علوم الإمام محمد بن ادريس: ولد سنة (٩٠٩) هـ في محلة أبي الهيتم بمصر وإليها نسبته ، مات أبوه وهو صغير ، فكفله الإمام شمس الدين ابن أبي الحمائل شيخه وشيخ والده ، وكان قد حفظ القرآن العظيم في صغره فجمعه بعلماء مصر في صغر سنه فأخذ عنهم ، وأذن له بعضهم بالإفتاء والتدريس وكان عمره عند ذلك دون العشرين، وقد برع في علوم كثيرة ، وتلقى العلم في الأزهر الشريف، حتى صار بحراً في علم الفقه وتحقيقه لا تكدره الدلاء ، وكان إمام الحرمين كما أجمع على ذلك العارفون وانعقدت عليه خناصر الملأ ، إمام اقتدت به الأئمة، وهمام صار في إقليم الحجاز أمة، وله المصنفات الكثيرة ، التي تعد آية يعجز عن الاتيان بمثلها المعاصرون مع وفرة الوسائل، جاور بمكة المشرفة وأقام بها يؤلف ويفتي، ويدرس إلى أن توفي فيها ودفن بالمعلاه، سنة (٩٧٤)هـ . [النور السافر(ص: ١٤٢)،الأعلام للزركلي(١/ ٢٣٤)].

(٢) انظر كتاب الفتاوى الحديثية (١/ ٢٢٥) .

الأَصْلُ الرَّابِعُ؛ وتَحْقِيقُ الرِّضَا عَنِ اللهِ تَعَالَى

تحقيقُ الرِّضا عنِ الله سبحانه وتعالى يكونُ: بالقَنَاعةِ، والتَّفويضِ، والرِّضا بالقضاءِ فرضٌ واجبٌ سواءً كانَ مُرّاً أَو حُلْواً، قالَ اللهُ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨] .

وفي الحَديثِ: «إِنَّ اللهَ تَعَالى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ سَلُونِي، فَيَقُولُونَ رِضَاكَ»[١] فَسُؤَالهُم الرِّضا بعدَ النَّظرِ غايةٌ في التفضيلِ، ورُويَ أَنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام سَأَلَ طائفةً من أَصحابِه فقال: «أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ؟»، فقالوا: مُؤْمِنُونَ، فقَالَ: «مَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ؟»، فقالُوا: نَصْبِرُ عِنْدَ البَلاءِ ونَشْكُرُ عنْدَ الرَّخاءِ ونَرْضَى بِمَا وَقَعَ، فقال: «مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ»[٢]، وعن أَنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «مَنْ أُصِيبَ بِمُصيبَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ جَسَدِهِ وَكَتَمَهَا وَلَمْ يَشْكُهَا إِلَى النَّاسِ كانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ»[٣].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٧١٧) ، والدارمي في كتاب الرد على الجهمية برقم (١٨٦) ، ورواه البزار في مسنده [١٤/ ٦٩] ، والدار قطني في كتاب رؤية الله [١/ ١٨٢] ، عن أنس رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وقال الحافظ العراقي في تخريجه على الإحياء: سنده فيه لين ، ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده ، بلفظ: «ثُمَّ يَقُولُ : مَاذَا تُرِيدُونَ ؟ قَالُوا : نُرِيدُ رِضْوَانَكَ رَبَّنَا»، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط[٩/ ١٦٣] برقم(٩٤٢٧) ، وفي المعجم الكبير [١٠/ ١٢١] برقم (١١٧٤)، عن ابن عباس رضيَ اللهُ تعالى عنهما ، وأورده الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٠٦).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [١/ ٢٢٤] برقم (٧٣٧)، وفي المعجم الكبير [١١/ ١٨٤] برقم (١١٤٣٨)، عن ابن عباس رضيَ اللهُ تعالى عنهما ، والسيوطي في جامع الأحاديث [١٩/ ٤٨٣] برقم (٢١٢٨٨)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد برقم (١٧٨٧٢) ، وعزاه للطبراني وقال : رجاله وثقوا .

والرِّضا مقامٌ عظيمٌ من مقاماتِ الدِّينِ ، قال سيدِي عبدُالله بن علوي الحداد نفع الله به وبعلومه في الدارين آمين: "فإنْ أرادَ العبدُ أنْ يعرفَ مَا عندَه منَ الرِّضَا ؛ فَلْيَلْتَمِسْه عندَ نُزُولِ المصَائبِ ، وَوُرُودِ الفَاقَاتِ ، واشْتِدَادِ الأَمراضِ فسوفَ يَجِدُهُ هناكَ أَو يَفْقِدُهُ ، وممَّا يَنبغي أن يُعْلَمَ أَنَّ القَضَاءَ غيرَ المَقْضِيِّ ، فالمعَاصِي لا يجوزُ الرِّضَا بها ، لأَنَّها منَ المَقْضِيِّ ولمْ يرْضَ الله تعالى بها ، والطَّاعاتُ منَ المَقْضِيِّ والرِّضَا بها واجبٌ لأنها منْ رضا الله تعالى ، فإن قيلَ لا مَعنى لِلرضَا بالقضَاءِ والقَدَرِ إلا بالرِّضا بالمَقْضِيِّ والمَقْدُورِ ، فالواجبُ الذي حَقَّقَه العلماءُ المعولُ علَيهم أَنَّ الكفرَ والمعاصِي لهما جِهَتانِ: جهةُ كَونِهَا مُكْتَسَبينِ للعبدِ فيجبُ الرِّضا بهما من الجهةِ الأُولى لا منَ الجهةِ الثانيةِ ، ومن ثَمَّ لا يجوزُ الاحْتِجَاجُ بالقَدَرِ ، كما يُسْمَعُ منْ سَفَلَةِ أَهلِ المعَاصي ، عندمَا يقالُ لهم كيفَ تتركونَ الطَّاعاتَ وتَرتكبونَ المحْذُوراتِ؟ فيقولونَ نحنُ عبيدٌ مَقْهُورُونَ، ومَا حِيلَةُ العَبْدِ والأَقدَارُ جَارِيَةٌ..!. وهذا هو مذهبُ الجَبْرِيَّةِ [1] بعينه، ومُنْتَحِلُه قَائلٌ بلسانِ

---

(١) **الجَبْرِيَّةُ**: من الجبر وهو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية فرقتان : فالجبرية المتوسطة: هي التي تثبت للعبد قدرةً غير مؤثرة أصلاً؛ فأما من أثبت للقدرة أثراً في الفعل، وسمى ذلك كسباً ؛ فليس بجبري، والجبرية الخالصة: هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، وهم الذين يقولون: إن العبد مجبور مقهور على ما يصدر منه ؛ لا قدرة له فيه ولا اختيار ، بل هو كغصن الشجرة، الذي تحركه الريح وكالميت بين يدي الغاسل يميله كيف يشاء!ويقول شاعرهم: [البسيط]

ما حيلةُ العبدِ والأَقدارُ جاريةٌ ... عليه في كلِّ وقتٍ أَيها الرَّائي
ألقاهُ في اليمِّ مكتوفاً وقال له ... إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تبتلَّ بالماءِ!

وقد رَدَّ عليه بعض علماء أهل السنة بقوله : [من البسيط]

إن حفَّه اللُّطفُ لم يمسسه من بللِ ... ولم يبالِ بتكتيفٍ وإلقاءِ
وإنْ يكن قدَّرَ المولى بغرْقَتِه ... فهو الغريقُ ولو أُلقي بصحراءِ

ويقولون أن الله- تعالى عما يقولون- لا يعلم الشيء قبل وقوعه وعلمه حادث، وأنه لا يتصف بما يوصف به غيره القدرة، وأن الجنة والنار يفنيان، ووافقوا المعتزلة في نفي الرؤية وخلق الكلام. والذي عليه أهل السنة: أن أفعال العباد مخلوقة لله صادرة عن مشيئته وهي كسب لهم، فلذا ترتب عليها الثواب والعقاب.

حالِه إِنْ لمْ يَقُلْ بلسانِ مَقالِه لا فائدةَ في إِرسالِ الرُّسلِ وإِنزالِ الكُتُبِ، و يا عَجَباً كيفَ يصدرُ ممَّنْ يَدَّعِي الإِيمانَ الاحتجاجُ على رَبِّه ولله الحجةُ البَالغةُ على جميعِ خلقِه، أَمْ كيفَ يَرضى المؤمنُ لنفسِه أَنْ يَتَشَبَّه بالمشْرِكينَ القَائِلينَ كما حكى الله عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٤٨] (١).

نعمْ لا بأسَ بعدَ الوُقوعِ في المعْصِيةِ الاحتِجَاجَ لدَفعِ اللَّومِ فقطْ ، ففِي الحديثِ الصَّحيحِ: « أنَّ روحَ آدمَ عليه السَّلام التَقَتْ معَ روحِ موسى عليه السَّلامُ ، فقالَ موسى لآدمَ : أَنتَ أَبُو البَشَرِ الذي كُنْتَ سَبباً لإِخْراجِ أَولادِكَ منَ الجنَّةِ بأَكلِكَ منَ الشَّجَرِةِ ، فقالَ آدمُ يَا مُوسى فأَنتَ الذِي اصْطَفَاكَ الله بِكَلامِه ، وخَطَّ لَكَ التَّورَاةَ بِيدِه ، تَلومُنِي على أَمرٍ قَدَّرَه الله عليَّ قبْلَ أَنْ يخْلُقَنِي بأَربعينَ سنَةٍ »، قالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم :«فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»(٢)، أيْ غلَبَه بالحجَّةِ.

ولا يَخفى على من نَوَّرَ الله سَرِيرَتَه بنورِ الإِيمانِ أنَّ الله سبحانه وتعالى أجرَى عادَته الإِلهيةَ بترتيبِ الأسبابِ على مُسَبَّبَاتِها ، ونِسْبَةِ تلكَ المسَبَّباتِ إلى المكلفِ نظراً للصُّورةِ واختيارِه فيها، وكونِه مُتَمَكِّناً بَحسَبِ النَّظرِ من تَركِها أَو فِعْلِها، فَيُثَابُ ويُعاقَبُ بهذا الاعتبارِ، وإِنْ كانَ في نفسِ الأَمرِ مُكرَهاً ، لأَنَّ الكلَّ منَ الله تعالى، ما شَاءَ اللهُ كانَ ومَا لمْ يشأْ لمْ يكنْ، فيجبُ على المكَلَّفِ رِعَايةُ المقَامينِ.

---

(١) انظر كتاب رسالة المعاونة والمؤازرة للإمام الحداد ، صفحة : (١٨٧) .

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري برقم (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢)، وأبو داود في سننه (٤٧٠١)، والترمذي (٢١٣٤)، وابن ماجة (٨٠)، ومالك في الموطأ (٣٣٣٦)، والنسائي في السنن (١٠٩١٩) وأحمد في مسنده (٧٨٥٦)، وابن حبان في صحيحه(٦١٧٩)، وأبو يعلى (١٢٠٤)، والطبراني في الكبير(١٦٦٣)، عن أبي سعيد رضيَ اللهُ عنه .

ولله دَرُّ البُوصِيري[١] ، حيث قال: [من الخفيف]

وَغَـدَى يَعْتِـبُ القَضَـاءَ ولا عُـذْرَ لِعَـاصٍ فِـيمَا يَسُـوقُ القَضَـاءُ[٢]

❁ ❁ ❁

حَقِيقَةُ القَنَاعَة

القناعةُ – في حال مَوصُوفِها– ثلاثةُ أنواعٍ :

أولاً: الرِّضَا بالمقسُومِ مِنْ غيرِ إسرافٍ معَ التَّوفيقِ لطُرقِ البَذْلِ ، وهذَا النَّوعُ منْ أَخلاقِ العَوَامِ .

ثَانِياً: الاكتِفاءُ بما يُنتَفعُ بِه للحاجَةِ منْ غيرِ التِفاتٍ لغيرِه ، وهو منْ شِيَمِ الخَواصِ.

ثَالثاً: الاسْتِغْناءُ بالذِّكرِ وسُكْرِ الفِكرِ عنِ الإِحسَاسِ بشيءٍ من حُظُوظِ النَّفسِ، وهوَ منْ منَازِلِ خَوَاصِ الخَواصِ العَارِفينَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنِ الجمِيعِ ونفعنَا ببركاتهم.

ثَمَرَاتُ القَنَاعَة: من ثمراتِ القناعة سُكونُ القلبِ لمراداتِ الرَّبِّ والخُلوُّ عنِ الشَّواغلِ الدُّنيويةِ ، وأَمَّا فاقدُ القنَاعةِ فهوَ لا يَبرَحُ في عناءٍ دائمِ الحزْنِ ، لا يخَشَى تحمُّلَ المنَنِ ولا يَرضَى عن أَحدٍ منَ الخَلقِ وفِي ذلك قالَ سَيِّدُنا عبدُالله بن علوي الحدَّاد نفعنا الله تعالى به: [من الطويل]

---

(١) هو الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد البوصيري المصري نسبته إلى (بوصير) من أعمال بني سويف بمصر، أمه منها وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيلة يعرفون ببني حبنون، شاعر مجيد، حسن الديباجة، مليح المعاني، جميل الصياغة، ولد في (بهشيم) من أعمال البهنساوية سنة (٦٠٨) هـ، له ديوان شعر ، ومن أشهر شعره قصيدة (البردة)، شرحها وعارضها كثيرون، تعد من أشهر المدائح النبوية، تردد وتتلى في كثير من بلدان أهل الإسلام، وله قصيدة (الهمزية)، توفي رحمَهُ اللهُ بالإسكندرية، سنة (٦٩٦) هـ. [الأعلام : (٦/ ١٣٩)] .

(٢) البيت في ديوان البوصيري ، صفحة (٣٠) ، رقم البيت في الهمزية : (٣٦٩) .

وإِنْ تَــرضَ بالمقْسُــومِ عشــتَ مُــنَعماً وإِنْ لمْ تَكنْ تَرضَى بِه عِشْتَ في حَزَنْ[١]

ولغيرِه : [من البسيط]

هِــيَ القَناعَــةُ فَالزَمْهَــا تَكــنْ مَلِكــاً لَــو لَمْ يَكــنْ مِنْــكَ إِلَّا رَاحــةُ البَــدَنِ

وانْظُــرْ لمــنْ مَلــكَ الــدُّنيَا بأَجمعِهــا هَــلْ راحَ مِنهَا بغيرِ القُطْنِ والكَفَنِ[٢]

قال بعض المفسرين[٣] في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[النحل: ٩٧] "إِنَّ الحياةَ الطيبةَ في الدنيا هيَ القناعةُ، أَي يَعيشُ عيشاً طيباً فإن كان مُوسراً فظاهرٌ، وإن كانَ مُعسراً فَطِيبُ عيشِه بالقناعةِ والرضَا بالقِسْمِ ، ويُؤجرُ الأَجرَ العظيمَ كالصَّائمِ يَطيبُ نهارُه لِيَتَنَعَّمَ لَيلُه ، بخلافِ الفاجرِ فإنه إن كانَ مُعسراً فلا طيبَ لعيشه أَصلاً، وإن كان مُوسراً فكذلك إِذْ لا يَدَعُه الحرصُ وخوفُ الفَواتِ أَنْ يَتَهَنَّأَ بعيشِه". وللعَارف بالله تعالى ابنِ الفَارِضِ[٤]قدَّسَ الله سِرَّهُ: [الطويل]

---

(١) انظر ديوان الإمام الحداد صفحة:(٥٠٣).

(٢) البيتان في المستطرف ص:(١٨٣)، وفي جواهر الأدب ص: (٧٠٥) ، ولم أعثر على قائلهما .

(٣) هو سيدنا الحسن البصري، ذكره الإمام الطبري في تفسيره [١٤/ ٣٥٢] قال القرطبي في تفسيره [١٠/ ١٧٤]: وهو قول علي بن أبي طالب رضيَ اللهُ عنه ورواه الحاكم لعكرمة وابن عباس رضيَ اللهُ عنهم.

(٤) شرف الدين أبو حفص عمر بن علي بن مرشد بن علي ، المعروف بابن الفارض ، حموي الأصل، مصري المولد والوفاة ، أشعر المتصوفين ، يلقب بسلطان العاشقين ، ولد سنة (٥٧٦) هـ ، نشأ بمصر في بيت علم وورعٍ ، ولما شبَّ اشتغل بفقه الشافعية وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذري وغيره ، ثم حبب إليه سلوك طريق الصوفية ، فتزهد وتجرد ، وفي تلك الحال نظم أكثر شعره ، قصده الناس بالزيارة ، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته ، وكان جميلا نبيلا، حسن الهيئة والملبس ، حسن الصحبة والعشرة ، رقيق الطبع، فصيح العبارة ، سلس القياد، سخيا جوادا ، يعشق مطلق الجمال ، قال عنه الذهبي: كان سيد شعراء عصره ، له ديوان شعر لطيف، وأسلوبه فيه رائق ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء، توفي رحمَهُ اللهُ سنة(٦٣٢)هـ . [الأعلام (٥/ ٥٥)].

وأَنفقْتُ مِنْ يُسْرِ القَنَاعَةِ رَاضِياً ... مِنَ العيشِ بالدنيا بأَيسَرِ بُلْغَةِ
وهَذَّبتُ نَفسِي بالرِّياضَةِ ذَاهِبا ... إلى كَشْفِ ما حُجُبُ العَوائدِ غَطَّتِ(١)

وقالَ بعضُهم معَ حسنِ الجِنَاسِ: [من الطويل]

ذَرِينِي ونَفْسِي في العَفَافِ فإِنَّنِي ... جَعلتُ عَفَافِي في حَيَاتيَ دَيدَنِي
وأَعْظَمُ مِنْ قَطْعِ اليَدَينِ عَلى الفَتَى ... صِنَاعَةُ بِرٍّ نَالهَا مِنْ يَدَي دَنِي(٢)

ولِبَعضِهِمْ وأَجَادَ فِي الجِنَاسِ : [من الوافر]

عَزِيزُ النَّفسِ مِنْ لَزِمَ القَنَاعَةْ ... ولمْ يَكشِفْ لمخْلُوقٍ قِنَاعَهْ
فَخُذْ منْها لِنفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ ... وصَيِّرْ بَعدَها التَّقوَى بِضَاعَةْ
تَفُزْ حَالَينِ تُغْنَي عنْ بَخِيلٍ ... وتَظْفَرْ في الجِنَانِ بِصْبرِ سَاعَةْ(٣)

وللسِّرَاجِ الوَرَّاقِ(٤): [من الكامل]

---

(١) البيتان في ديوانه ، ص:(٢٣) .

(٢) البيتان لعبد العزيز الصيرفي ، وهما في ديوانه ،ص: (٢٥٠)، من مقطع يقول فيه : [من الطويل]

ذَرِينِي ونَفْسِي في العَفَافِ فإِنَّنِي ... أذوبُ إذا ما قلتُ للغيرِ مُدَّنِي
وقَد عَزَّني بالقُنْعِ ربي لأَنَّني ... جَعلتُ عَفَافِي في حَيَاتيَ دَيدَنِي
وأَعْظَمُ مِنْ قَطْعِ اليَدَينِ عَلى الفَتَى ... سُؤالُ لئيمٍ يزْدَرِيكَ إذا غَنِي
وأصعبُ منه ذِلَّةً ومضَاضَةً ... صِنَاعَةُ بِرٍّ نَالهَا مِنْ يَدَي دَنِي

(٣) الأبيات للإمام الشافعي رحمَهُ اللهُ تعالى ، وهي في ديوانه ، ص: (٢٨٦) .

(٤) هو سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن حسن الوراق، الشاعر المشهور والأديب المذكور؛ شاعر مصر في عصره ، ولد سنة (٦١٥) هـ ، كان كاتباً لواليها الأمير يوسف ، وله (ديوان شعر) في سبعة مجلدات ضخمة بخط يده، وهذا الذي اختاره لنفسه وأثبته، فلعل الأصل كان خمسة عشر مجلداً، وكل مجلد يكون مجلدين، ولعل ديوانه لو ترك جيده ورديه في ثلاثين مجلداً ، وخطه في غاية الحسن والقوة والأصالة ، وكان حسن التخيل جيد المقاصد صحيح المعاني عذب التركيب، عارفاً بالبديع وأنواعه والتورية والاستخدام، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بالقاهرة ، سنة (٦٩٥) هـ . [فوات الوفيات (١/ ٦٥)].

مَـــا لِي أَذِلُّ ولِلقنَاعَـــةِ عِـــزَّةٌ ... أَنجُـــو بِهـــا مـــنْ ذِلَّـــةٍ وَهَـــوانِ
وأَصُـــونُ وجْهِـــي أَنْ يَـــذِلَّ لأَوجُـــهٍ ... مَنْحُوتَـــةٍ مـــنْ عَـــالَمِ الصُّـــنْوَانِ
والقَـــومُ كالأَصْـــنَامِ ، وَالإِسْـــلَامُ نَـــ ... ـــزَّهَنِي عـــنِ الأَصـــنامِ والأَوثَـــانِ[١]

وللإمامِ الشافعي رحمهُ اللهُ تعالى: [من الكامل]

الـــنَّفسُ تَـــأْبى أَن تكـــونَ فقـــيرةً ... والفَقْـــرُ خـــيرٌ مـــن غنـــىً يُطْغِيهَـــا
فغِنـى النُّفُـوسِ مـع الكَفـافِ فـإِن أَبَـتْ ... فجَمِيـعُ مـا في الكـونِ لا يَكفِيهَـا[٢]

وقالَ الآخرُ : [من الطويل]

تَمَتَّـعْ بـما يكفيـكَ واسـتَعمِلِ الرِّضَـا ... فإِنـكَ لا تَـدْرِي أَتصْـبِحُ أَمْ تُـمسِي
فَلـيسَ الغِنـى مِـنْ كثـرةِ المـالِ إِنَّـما ... يكونُ الغِنَى والفقرُ منْ قِبَلِ النَّفسِ[٣]

وللإِمامِ الشَّافعيِّ رحمهُ اللهُ تعالى أَيضاً : [من الوافر]

أَمَـتُّ مَطَـامِعِي فَأَرَحـتُ نفـسِي ... فـإِنَّ الـنَّفسَ مـا طَمِعَـتْ تَهُـونُ
وأَحْيَيـتُ القُنُـوعَ وكـانَ مَيتَـاً ... فَفِـي إِحيائـهِ عِـرضِي مَصُـونُ
إِذَا طَمَـعٌ يَحِـلُّ بِقلـبِ عبـدٍ ... عَلتْـهُ مَهَانَـةٌ وعَـلاهُ هُـونُ[٤]

وما أَلطفَ قولَ بعضِهم[٥] : [من الطويل]

إذا شِـئتَ أَنْ تحيَـا سَـعِيداً فَـلا تَكُـنْ ... عـلى حَالَـةٍ إِلا رَضِـيتَ بِـدُونِها

---

(١) الأبيات ذكرها الصفدي في (الغيث المسجم)، ص:(١٠٥٢)، وعزاها للوراق ولم أجدها في ديوانه.

(٢) البيتان لسيدنا الإمام علي ابن أبي طالب رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وهما في ديوانه ، ص: (١٤٤).

(٣) البيتان ذكرهما ابن عبد البر في كتاب بهجة المجالس ، ص: (١٤٥) ، ونسبهما لابن سعدان.

(٤) انظر ديوان الإمام الشافعي ، ص:(٣٦٢) .

(٥) هو أيضا سيدنا الإمام الشافعي ، وهذا البيت في ديوانه ، ص: (٣٧٩).

وقيلَ لإبراهيمَ بنِ أَدهمَ كيفَ أَنتَ ؟ فقال : [من الطويل]

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا ... فَلا دِينُنَا يَبقَى ولا مَا نُرَقِّعُ

فَطُوبَى لِعبدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّهُ ... وجَادَ بِدُنيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ(١)

ثم إِنَّ سيدِي عبدَالله بن عَلَوِي الحدّاد لما ذَكَرَ الصَّبرَ ومَا عَطفَ عليهِ منَ الأَخلاقِ المحمُودَةِ في كتَابِه ناسبَ أنْ يَذْكُرَ القَنَاعَةَ ، فقَالَ عَلى سَبيلِ الإِرشَادِ: [من الطويل]

قَنُوعَاً بِمَا أَعطَاكَ مُسْتَغْنِياً بِهِ ... لَه حَامِدَاً في حَالَيِ العُسْرِ واليُسْرِ(٢)

وقولُه :"قَنُوعَاً" منصوبٌ على الحالِ ، وصَاحبُه مَنْ صَلُحَ للخطابِ ، أَي تَحَلَّى بِما مَرَّ ذِكْرُه منَ الأَخلاقِ المحْمُودَةِ حالَ كونِ القَنَاعةِ لمْ تُفَارِقْكَ، وفِي البَيتِ الطِّباقُ(٣) بينَ العُسْرِ واليُسْرِ، وفي الجِنَاسِ اللَّاحقِ أيضاً بَينهما.

والمرادُ بالقناعةِ عزةُ النَّفسِ وتركُ الطَّمَعِ، وأَقلُّها الرِّضَا بالكفَافِ أَي بِما يَكفِي الإِنسانَ ويَكفِيه عنْ ذُلِّ السُّؤَالِ على حَدِّ مَا قِيلَ : [من الخفيف]

أَيُّهَا المرءُ إِنَّ دُنيَاكَ بَحرٌ ... مَوجُه طَافِحٌ فَلا تَأْمَنَنْهَا(٤)

وَسَبيلُ النَّجَاةِ فيها مُنِيرٌ ... وهُوَ أَخذُ الكَفَافِ والقُوتِ مِنها

---

(١) انظر حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم، (٨/ ١٠) .

(٢) انظر ديوان سيدنا الإمام الحداد ، ص:(٢١٠) .

(٣) **الطباق**: هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام ، وهو نوعان:

الأول: طباق الإيجاب: وهوما لم يختلف فيه الضدان سلبا أو إيجابا، كقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾[الحديد :٣]. **الثاني**: طباق السلب: وهوما اختلف فيه الضدان إيجابا أو سلبا، كقوله سبحانه وتعالى:﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[النساء :١٠٨].

(٤) البيتان لمحمد بن عبدالله المري ، أوردها له الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر ، ص: (٦٢٩) .

قال سيدي القطبُ أَحمدُ بنُ زينْ الحبْشي في شرحِ العينية: "ومَقامُ القنَاعةِ أولُ الرِّضا وللقانعِ حالٌ منَ الرِّضا، ولا تَتَحقَّقُ القناعةُ إلا بالرِّفقِ في الإنفاقِ وقلةِ التَّوسُّعِ فيه ، ففي الحديثِ: «مَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ الله، وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ الله»[١]، ولا يَصحُّ إلا بالثقةِ بتدبيرِ الله تعالى كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]، فهذا علم والرفقُ عمَلٌ ، وعمادُ الأَمرِ الصَّبرُ ، وقِصَرُ الأَملِ ، ومعرفةُ آفاتِ الغِنى ، وعِزُّ القَناعةِ، ولِسيدي الإمام الحداد رَضِيَ اللهُ عنه : [من البسيط]

إِنَّ القناعـــةَ كنـــزٌ لـــيسَ بالفَـــانِي فَـاغْنَمْ هُـدِيتَ أُخـيَّ عَيشَـهَا الغَـانِي

وعِـشْ قَنُوعَـاً بِـلا حِـرْصٍ ولا طَمَـعٍ تَعِـشْ حَمِيـدَاً رَفِيـعَ القَـدْرِ والشَّـانِ[٢]

فَبَيَّنَ رحمهُ اللهُ ونفعنا به، أَنَّ القناعةَ هي تركُ الحِرصِ على الدُّنيا والطَّمعِ فيها"[٣].اهـ.

وللعارفينَ كلامٌ في القناعةِ فمنْ ذلكَ الكَلام كلام سيدِي إبرَاهيمَ الخوَاص[٤] قـدَّسَ الله سِرَّه يَقـولُ: "العِلـمُ في كَلمتـينِ: لا تَتكَلَّـفْ مَـا كُفِيـتَ، ولا تُضَـيِّعْ مـا اسْتُكْلِفْتَ"[٥] ، وإلى هذا المعنى أَشارَ صاحبُ الحِكَم بقولِه: "اجتِهَادُك فِيمَا ضَمِنَ لَكَ

---

(١) رواه البزار في مسنده [١/ ١٧٣] رقم (٩٤٦)، عن طلحة بن عبيد الله رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وتمام الحديث : «..وَمَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ الله ، وَمَنْ تَجَبَّرَ قَصَمَهُ الله».

(٢) انظر ديوان الإمام الحداد ، ص: (٤٩١) .

(٣) انظر كتاب شرح العينية ، صفحة : (٣١٦) .

(٤) الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، الخواص-نسبة إلى بائع الخوص-، الصوفي الورع الزاهد، أوحد المشايخ في وقته، ومن كلامه: دواء القلب خمسة: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين، مرض بجامع الرَّي، وكان إذا قام يدخل الماء يغتسل ويعود إلى المسجد فيصلي فيه فدخل مرة في الماء فمات فيه سنة (٢٩١)هـ . [طبقات الأولياء (ص: ٣)].

(٥) انظر كتاب تاريخ بغداد (٢/ ٤٩٢).

وتَقْصِيرُكَ فِيمَا طَلَبَ مِنكَ؛ دَلِيلٌ عَلى انْطِمَاسِ البَصِيرَةِ مِنْكَ "[١]. وعنْ أُويسٍ القَرَنِي[٢] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه أَنَّه قالَ: "لَو عبدَتَّ الله تعَالى عِبَادَةَ أَهلِ السَّماءِ والأَرضِ، لا تُقبَلُ منكَ حتَّى تُصَدِّقَه، قِيلَ وَكيفَ نُصَدِّقُه؟ قالَ: تَكونُ واثِقاً آمِناً بِما تَكَفَّلَ الله تعالى لكَ منْ أمرِ رِزقكَ". ويُرْوَى لِعليٍّ كرم الله تعالى وجهَه، قوله: [الطويل]

أَتَطلبُ رزقَ الله منْ عندِ غيرِه ... وتُصبحُ منْ خوفِ العَواقبِ آمِناً

وتَرضَى بِصَرَّافٍ وإِن كانَ مُشْرِكاً ... ضَمِيناً ولَا تَرضَى بِربِّك ضَامِنا[٣]

ومن النَّصَائحِ: [من المتقارب]

إذا أظمَأتْكَ أَكفُّ اللئامِ ... كَفتكَ القنَاعةُ شِبعاً وَرِيَّا

فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُه فِي الثَّرَى ... وهِمَّةُ هَامَتِه فِي الثُّرَيَّا

أَبِيَّاً بِنَفْسِكَ عَنْ بَاخِلٍ ... تَرَاه بِما فِي يَدَيهِ أَبِيَّا

---

(١) شرح الحكم للشيخ عبد المجيد الشرنوبي، رقم الحكمة (٥)، ص: (٦٨).

(٢) هو سيد التابعين والعُبَّاد، وعلم الأصفياء والزهاد؛ أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني، المرادي ،اليماني، أحد النساك المشهورين، والعباد المذكورين، أدرك حياة النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم ولم يره لانشغاله ببرّ أمه، فبشر به صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم بقوله: «أُوَيْسٌ الْقَرَنِيُّ خَيْرُ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ» [معرفة الصحابة (٦/ ٣١٥٠)] وأوصى أصحابه فقال: «إنّ خَيْرَ التّابِعِينَ رَجُلٌ يُقالُ لهُ أوَيْسٌ ولهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِها بَرٌّ لوْ أقْسَمَ على الله لأَبَرَّهُ وَكانَ بِهِ بَياضٌ فَمُروهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ» [مسلم (٢٥٤٢)]، وقد كان يبيت ليلة قائما وليلة راكعا وليلة ساجدا، ويتصدق بما في بيته ثم يقول: اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به ومن مات عريانا فلا تؤاخذني به!، ورُوي مرفوعا: «يَدخلُ الجنَّةَ بشفاعةِ رَجلٍ من أُمَّتي أَكثرُ من مضرَ وتَمِيمٍ» قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «أُوَيسٌ القَرَنِي»، سكن الكوفة، وشهد صفين مع علي رضيَ اللهُ عنه، ويرجح الكثير أنه قتل فيها سنة (٣٧)هـ.[حلية الأولياء (١/ ٢٣٧)، أعلام النبلاء (٤/ ١٩)].

(٣) انظر ديوان سيدنا الإمام علي رضيَ اللهُ عنه، ص: (١٣٩).

فَـــإِنَّ إِراقَـــةَ مَـــاءَ الحيَـــاةِ دُونَ إِراقـــةِ مَـــاءِ المُحَيَّـــا[١]

وقِيلَ لأَبي يَزيدَ رحمهُ اللهُ تعالى[٢] بما وصَلتَ إلى ما وصَلتَ؟، فقالَ: "جَمعتُ أسبابَ الدنيا ، فَرَبَطتُها بِحبَالِ القَنَاعةِ ، وَوَصَلْتُها بِمنْجَنِيقِ الصِّدقِ ، ورَمَيتُ بِها في بَحْرِ اليَأسِ ؛ فاسْتَرَحتُ "[٣]. اهـ

والمرادُ من قولِه جمعتُ أَنَّه اتَّصفَ بالقناعةِ على وجهٍ لا يمكنُ انفكَاكُه عنه ، فكانَ ذلكَ من أسبابِ وصولِه إلى ربِّه حيثُ قطعَ عن نفسِه أَسبابَ الشَّهوةِ ، التي هيَ من أَقوى الحُجُبِ بينَ العبدِ وبارِئه سبحانه وتعالى . وقالَ ذُو النُّونِ المِصْرِي[٤] : " منْ

---

(١) الأبيات لسيدنا الإمام علي رضيَ اللهُ عنه ، وهي في ديوانه، ص: (١٤٨) .

(٢) هو الإمام الزاهد العابد الولي الصالح أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي البسطامي، نسبة إلى بسطام لأن أصله منها، الزاهد المشهور، ولد سنة (١٨٨)هـ ، كان مجوسياً ثم أسلم ، وسئل: بأي شيء نلت هذه المعرفة؟ فقال: ببطنٍ جائع وبدنٍ عارٍ. وقال: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة. وله مقالات كثيرة، ومجاهدات مشهورة، وكرامات ظاهرة، وكان يقول: من لم ينظر إلى شاهدي بعين الاضطرار، وإلى أوقاتي بعين الاغترار ، وإلى أحوالي بعين الاستدراج ، وإلى كلامي بعين الافتراء ، وإلى عبادتي بعين الاجتراء ، وإلى نفسي بعين الازدراء ، فقد أخطأ النظر فيّ . ويقول : لو صفت لي تهليلة ما باليت بعدها بشيء ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة(٢٦١)هـ [وفيات الأعيان (٢/ ٥٣١)].

(٣) انظر الرسالة القشيرية ، ص: (٧٥).

(٤) هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، المعروف بذي النون المصري ، الصالح المشهور، الزاهد العابد ، أحد رجال الطريقة ، كان أوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً ، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك. كان أبوه نوبياً، مولىً لقريش، وهو أول من تكلم بمصر عن ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية ، فسعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر. فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرماً، وشيخه في الطريقة شقران العابد، ومن كلامه: إذا صحَّت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح ، وقد كان واعظاً فصيحاً وله حكمة وشعر، ولما مات أظلت الطيرُ جنازته ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بالجيزة، سنة (٢٤٥)هـ، ودفن في القرافة الصغرى، وعلى قبره مشهد. [الوافي بالوفيات (٣/ ٤٩٤)] .

قَنِعَ استراحَ منْ أَهلِ زمانِه واستَطَالَ على أَقرَانِه"[١] ، أي لأَنه قد تَفَرَّغَ لعبادَةِ رَبِّه، وذلكَ غايةُ ما يطلبُه العبدُ الرَّاغبُ في الخيرِ . وقالَ وهبُ بنُ مُنَبِّه [٢]: "إنَّ العِزَّ والغِنى خرَجَا يجُولانِ يَطْلُبَانِ رَفِيقاً ، فَلَقِيَا القَنَاعَةَ فاسْتَقَرَّا "[٣]. وقال أَبو بكر المَراغي[٤]: "العَاقِلُ مَنْ دَبَّرَ أَمْرَ الدُّنيَا بالقَنَاعَةِ والتَّسْوِيفِ"[٥]، أي من دَبَّرَ نفسَه بالتَّخَلُّقِ بالقَنَاعَةِ ، وسَلَّاهَا وقتَ انزِعَاجِها وقَلَقِها بالتَّسْوِيفِ ، وكَلامُهم في هذا أكثر من أنْ يحُصى ، وكلٌّ تَكلَّمَ بحسبِ شُرْبِه منَ القَنَاعةِ ومَا مُنَحَهُ وذَاقَه منْ معنَاها.

ومما يحثُّ على القناعةِ ويذمُّ الحرصَ قولُه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : «إنّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في روعِي أنّ نَفْساً لنْ تَمُوتَ حَتّى تَسْتَكْمِلَ أجَلَها وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَها فاتّقُوا الله وأجْمِلُوا في الطَّلبِ ولا يَحْمِلنَّ أحَدَكُمُ اسْتِبْطاءُ الرِّزْقِ أنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ

---

(١) انظر الرسالة القشيرية (ص: ٧٤).

(٢) هو الإمام أبو عبد الله وهب بن منبه الصنعاني الذماري ، مؤرخ كثير الاخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ، ولا سيما الاسرائيليات ، يعد في التابعين ، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن ، وأمه من حمير ، ولد سنة (٣٤)هـ ، بصنعاء ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها ، وكان يقول: سمعت اثنين وتسعين كتابا كلها أنزلت من السماء ، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا قليل ،ومن كلامه، وينسب إلى غيره: إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة ! ، صحب ابن عباس ولازمه ثلاث عشرة سنة. من كتبه " ذكر الملوك المتوجة من حمير " رآه ابن خلكان في مجلد واحد، وقال: هو من الكتب المفيدة. وله " قصص الانبياء "، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بمدينة صنعاء، سنة (١١٤) هـ . [الأعلام (٨/ ١٢٥)].

(٣) الرسالة القشيرية (ص: ٧٤).

(٤) هو أبو بكر محمد بن علي بن عبد المنعم المراغي ، الفقيه الشافعي ، الصوفي ، تفقه ببغداد على الشيخ الفقيه أبي منصور بن الرزاز ، حدث بدمشق ، وولي التدريس بمدرسة بزان [تاريخ دمشق (٥٤/ ٣٧٥)].

(٥) الرسالة القشيرية (ص: ٧٤).

الله فإنّ الله تعالى لا يُنالُ ماعِنْدَهُ إلاّ بِطاعَتِهِ»[١]. وقال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم لأَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: «يَا أَبَا هُرَيرَةَ إِذا اشْتَدَّ بِكَ الجُوعُ فَعَلِيكَ بِرَغيفٍ وكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلى الدُّنيَا الدَّمَارُ»[٢]. وفي صحيحِ مسلم، عنِ ابنِ عمرَ [٣]رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما أَنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافاً وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ»[٤]، وقال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : « لَوْ كَانَ لابْنِ

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة برقم (٤١١٢) ، والقضاعي في مسند الشهاب برقم (١١٥١) ، عن ابن مسعود رضيَ اللهُ تعالى عنه ، ورواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦) عن أبي أمامة رضيَ اللهُ تعالى عنه .

(٢) رواه الإمام البيهقي في شعب الإيمان ، [٧/ ٢٩٥] برقم (١٠٣٦٦) ، وأورده الحافظ السيوطي في الجامع الصغير [١/ ٧١] برقم (٤٤١) ، وذكره الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين [٦/ ١٣٩] .

(٣) هو سيدنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، ولد قبل الهجرة بعشر سنوات ، نشأ في الاسلام، وهاجر إلى المدينة، ولم يشهد بدراً لصغره، وكان من أهل الورع والعلم ، كثير الاتباع لآثار رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم وروى عنه(٢٦٣٠)حديثا، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة ، وكان شديد التحري والاحتياط في فتواه ، غزا إفريقية مرتين ، كان مولعاً بالحج ومن أعلم الصحابة بمناسكه، أشكلت عليه حروب علي رضيَ اللهُ عنه، فقعد عنها، وندم عند وفاته فقال: ما آسى على شيء إلا أني لم أقاتل مع علي رضيَ اللهُ عنه الفئة الباغية ، وكف بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة، بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر، أمر الحجاج رجلاً فسم رمحه ولما دفع الناس من عرفة لصق به وطعنه في قدمه ، فمرض منها ومات رضيَ اللهُ تعالى عنه بسببها سنة (٧٣)هـ ، ولما دخل الحجاج يعوده قال: من فعل بك هذا؟ فقال: وما تصنع به؟ قال: قتلني الله إن لم أقتله. قال: ما أراك فاعلاً؛ أنت الذي أمرت بطعني بالحربة، فخرج عنه ولم يكلمه !ولما مات صلى عليه الحجاج. [الاستيعاب (١/ ٢٨٩)].

(٤) حديث صحيح ، رواه مسلم برقم (١٠٥٤) ، والترمذي في سننه برقم (٢٣٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده برقم (٦٥٧٢) ، وابن حبان برقم (٦٧٠) ، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٤٢٥٣) ، وفي مسند الشاميين برقم (٣٣٠) ، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٧٨٦) ، وفي شعب الإيمان برقم (٩٢٧٢) ، وفي الآداب برقم (٧٧٠) ، ورواه البغوي في شرح السنة برقم (٤٠٤٣) ، والحاكم في المستدرك برقم (٧١٤٩).

آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى إِلَيْهِمَا ثَالِثًا ، وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[1].

والمعنى لا يزالُ حَريصَاً على الدُّنيا حتَّى يَموتَ ويَمتلئَ جوفُه من ترابِ قبرِه .

❁ ❁ ❁

حَقِيقَةُ التَّفْوِيْض

التَّفويضُ مشتقٌ منَ القناعةِ إذا قَنعَ فَوَّضَ، والتَّفويضُ هو رجوعُ الأَمرِ كلِّه إلى الله حالاً ومآلاً كيفَ مَا شاءَ الله ربه فعلَ مُفَوِّضَاً إليه مطلقَ الإرادةِ رَاضِياً بما كُتِبَ لَه منْ خيرٍ أو شَرٍّ فيقولُ: فَوَّضْتُ أَمرِي إِلى الله وهو مُسَيِّري وماضٍ بي إِلى حيثُ شَاءَ، لا يَتَبَرَّمُ منْ مَكروهٍ ولا يَفرحُ بما نالَ من حُظُوظِ الدُّنيا منْ خيرٍ كانَ أَو شَرٍّ .

والقناعةُ، والتفويضُ، والرِّضا، جميعُهم الثَّلاثةُ تكونُ حالةَ العبدِ الواقفِ بينَ يَدَيْ سَيدِه وبينَ أُصْبُعَيه يُقلبُه كيف شاءَ وعلى ما شَاءَ وأَنَّى شاءَ، فإِذا بلغَ العبدُ هذه الدَّرجةَ فهو من الخَواصِ أَو منْ خَوَاصِ الخَواصِ.

❁ ❁ ❁

(١) حديث صحيح ، رواه البخاري برقم (٦٤٣٩) ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٢٨٣)، وفي المجم الأوسط برقم (٤٦٨٧)، ورواه أحمد في مسنده برقم (١٣٤٧٦) ، وأبو يعلى برقم (٣٥٩١) ، البزار برقم (٤٤٣٣)، ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٧٩٦) ، وابو نعيم في الحلية (١/ ٣٣٧)، وابن حبان في صحيحة برقم (٣٢٣٥)، عن أنس رضيَ اللهُ تعالى عنه .

الأَصْلُ الخَامِسُ؛ وتحْقِيقُ الرُّجُوعِ إلى الله تعَالى

تحقِيقُ الرُّجوعِ إلى الله يكون: بالحمْدِ والشُّكرِ لَه في السَّرَّاءِ، واللَّجَأِ إليهِ في الضَّرَّاءِ.

❊ ❊ ❊

حَقِيقَةُ الحَمْد

أَمَّا الحمدُ لُغَةً : الثَّنَاءُ على الله بالجميلِ الاختيارِي على جِهَةِ التَّبجِيلِ والتَّعظِيمِ . **واصْطِلَاحَاً** : فِعلٌ يُنبئُ عن تعظيمِ المنعمِ لكونِه مُنعماً على الحَامدِ وغيرِه.

وأقسَامُ الحمدِ خمسةٌ: حمدٌ فرْضٌ، وحمدٌ واجبٌ، وحمدٌ سنةٌ، وحمدٌ مكروهٌ، وحمدٌ محرمٌ . **فالحمدُ الفرضُ :** هو حمدُ الله تعالى في الصَّلاةِ وفي خطبةِ الجُمُعة . **والحمدُ الواجبُ :** هوَ الحمدُ لله تعالى في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ .**والحمدُ السُّنةُ :** هو حمدُ الله تعالى على ما أَنعم به على عبدِه ، كالحمدِ في خطبةِ النكاحِ وفي ابتداء الدُّعاءِ وبعدَ الأَكلِ وفي ابتداءِ الدُّروسِ وغيرِ ذلك مما تُستحبُّ التسميةُ عنده . **والحمدُ المكروهُ** : هو حمدُ الله تعالى في مجالسِ السُّوءِ والمزَابِلِ ونحوِها . **والحمدُ المحَرَّمُ :** هو الحمدُ لله على تَعاطِي الذُّنُوبِ ؛ كأَنْ يقولَ : الحمدُ لله الذِي وفَّقنِي وسَهَّلَ لي ارْتِكَابَ معصيةِ كذا ، فإنَّ هذا الحمدَ لا يزيدُه إلا إِثماً، وسَخطاً من الله تعالى ، إذْ لا يَصِحُّ في هذه المواضعِ حمدُ الله تعالى ؛ لأَنها مما تُغضبُ الله سبحانَه وتعالى ، نَسأَلُ الله عزَّ وجلَّ السَّلامةَ والسِّترَ .

ولا يحصلُ الحمدُ إلا بخمسةِ دَعائمَ ، وهي : **محمودٌ** ؛ وهو الله جلَّ جلاله ، و**حَامدٌ** ؛ وهو العبدُ ، و**محمودٌ به** ؛ وهو اللسَانُ ، و**محمودٌ عليه** ؛ وهو الإكرامُ وسائر النِّعم ، **وصيغةُ الحمدِ** ؛ وهي كقوله : الحمدُ لله ربِّ العالمينَ .

وقد قالَ العلماءُ : الحمدُ ينقسمُ إلى خمسةِ أَقسامٍ :

حمدُ قديمٍ لقدِيمٍ : وهو حمد الله تعالى لنفسِه كقولِه سبحانه وتعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]، وقولِه عزَّ وجلَّ : ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[الأنفال: ٤٠] .

وحمدُ قدِيمٍ لحادِثٍ : وهو حمدُ الله تعالى لمخْلوقِه ، كقوله تعالى في حقِّ نبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤] .

وحمدُ حادِثٍ لقدِيمٍ : وهو حمدُ المخلوقِ لخالقِه ، كقول سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[المائدة: ١١٦] .

وحمدُ حادِثٍ لحَادِثٍ : وهو حمدُ المخلوقِ للمخلوقِ ، مثاله كقولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم في حقِّ سَيدنا أَبي بكرٍ الصِّديقِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: « مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ ولَا غَرَبَتْ مِنْ بَعْدِي عَلى رَجُلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ » (١).

وحمدُ صِيغَةٍ لَفْظِيَّةٍ : تَمُرُّ على لسَانِ العبدِ سَرَّاءَ وضَرَّاءَ، وهوَ من أَوجبِ الوُجوبِ ، قالَ سَيدِي عبدُالله الحداد أَذاقنَا الله منْ حَلاوةِ مشْرَبِه: [من الطويل]

قَنُوعَـــاً بِـــما أَعطَـــاكَ مُسْـــتَغْنِياً بِـــه لَـه حَامِـدَاً في حَـالَي العُسْـرِ واليُسْـرِ (٢)

والعسرُ واليُسرُ ضِدَّانِ ، وذكرَهُما لأَنهما حَالتَانِ لا يَخلو عنْ واحدٍ منهما العبدُ أَيْ حَالَ كونِكَ حامِداً إِلهكَ في السَّراءِ والضَّراءِ ، والحمدُ مَطلوبٌ من العبدِ كيفَما كانَ ، وهو الثَّناءُ على الله سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه الإمام أحمد في كتابه فضائل الصحابة [٢/ ١٠٠] برقم: (٥٠٨)، والآجري في كتاب الشريعة برقم: (١٣٠٩) ، والحافظ أبو نعيم في فضائل الخلفاء الراشدين [١/ ٣٨] ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد [١٤/ ٤٤٠] رقم (٤٢٨٤) ، عن أبي الدرداء رضيَ اللهُ تعالى عنه .

(٢) انظر ديوان سيدنا الإمام الحداد ، ص:(٢١٠) .

وفي الحديثِ الشَّريفِ: «أَوَّلُ منْ يُدعَى إِلى الجنَّةِ الحَمَّادُونَ لله تعالى عَلى كُلِّ حَالٍ» [١]أَيْ على حَالة السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، كما قالَ بعضُهم : [من الرجز]

أَحمَـــــدُ رَبِّي حَالـــــةَ الضَّـــــرَّاءِ حمـــدِي لَـــه فِي حَالـــةِ السَّـــرَّاءِ

لا حَمـــدَ مَـــن يَعبُـــدُ الله عـــلى حَـــرْفٍ فـــإِنْ وإِنْ كَـــما قَـــدْ أُنْـــزِلَا[٢]

يشيرُ بذلكَ إلى قولِ الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١] .

وَوَرَدَ أَنَّ آدمَ على نبينا وعليه أَفضَلُ الصلاة السلام لما هَبَطَ إلى الأَرضِ قالَ: "يَا ربِّ عَلِّمنِي كلمةً تجمعُ لي فيها المحَامدَ، فأَوحَى الله تعالى إِليه أَنْ قُلْ ثَلاثَاً عندَ كلِّ صباحٍ: الحمدُ لله رَبِّ العَالمينَ، حَمداً يُوافي نِعَمَه ويُكافئُ مَزِيدَه، فهيَ أَفضَلُ المحَامِدِ "[٣].

وقد صَرَّحَ أَئمةُ الشَّافِعيةِ رَحِمَهم الله تعالى أَنَّ منْ حَلفَ لَيُثنِيَنَّ على الله بأَفْضَلِ المحَامِدِ، لا يَبرَّ قسمُه إِلا بقوله: "الحمْدُ لله حَمداً يُوافي نِعَمَه ويُكَافئُ مَزِيدَه "[٤]، وهو حمدٌ على ما يصلُ إِلى العبدِ من النِّعمِ المستقبَلِيَّةِ، فكأَنه يَقولُ أَحمدُ حمداً يُوافي أَيْ يقابلُ النِّعمَ الوَاصِلَةِ والمتَجدِّدَةِ، وفي الحديثِ: «إِنَّ الله عزَّ وَجلَّ يُحبُّ أَنْ يُحمَدَ» [٥] .

---

(١) رواه البزار في مسنده برقم (٥٠٢٨)، ورواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٢٣٤٥)، وفي المعجم الأوسط برقم (٣٠٣٣)، وفي المعجم الصغير برقم (٢٨٨)، وفي كتاب الدعاء برقم (١٧٦٨)، ورواه الحافظ أبو نعيم في الحلية (٥/ ٦٩) عن ابن عباس رضيَ اللهُ تعالى عنهما .

(٢) البيتان لعبد الله بن محمد الكردي كما في معجم المخطوطات [١/ ٦٢٣] .

(٣) أورده الإمام النووي في كتاب الأذكار[١/ ١٢٦]، والحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في تلخيص الحبير [٤/ ١٧١] برقم (٢٠٥٤)، عن محمد بن النضر .

(٤) كما في إعانة الطالبين للدمياطي (٤/ ٣٦٢)، ومغني المحتاج للشربيني (٤/ ٤٥١) وروضة الطالبين لأبي زكريا الأنصاري (٤/ ١٠٢)، وتحفة المحتاج لابن حجر (٤/ ١٤٩)، وغيرها .

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير[١٧/ ١٩٣] برقم (٨٢٥)، عن الأسود بن سريع رضيَ اللهُ تعالى عنه.

النِّسَبُ بَينَ الحمْدِ وَالشُّكْرِ

اعلمْ أنَّ النِّسَبَ بين الحمدِ والشكرِ لغةً واصطلاحاً سِتةٌ :

أَحدُها: بينَ الحمدِ الاصْطلاحِي والشّكر اللُّغوي؛ فالنسبةُ بينهما الترادفُ. **وثَانيهَا:** بين الحمدينِ . **وثَالثُها:** بين اللغويين ؛ فالنسبةُ في هذينِ القسمينِ عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ وهو أن يجتمع كلٌّ منهما في مادةٍ وينفردَ كلٌّ منهما في مادةٍ أُخرى ، كما في خَاتمٍ حَديدٍ ، فيجتمعُ الحمْدانِ في الثناءِ باللسانِ في مقابلةِ الإحسانِ ،وينفردُ الحمدُ اللغَوي في الثَّناءِ بالكلامِ في غيرِ مُقابَلةِ الإكرامِ ، وينفرِدُ الحمدُ الاصْطِلاحِيُّ في الخدمةِ بالأَعضَاءِ في مُقابَلةِ العَطَاءِ ، ويجتمعُ اللُّغَويانِ في الثَّناءِ باللغةِ في مُقابلةِ العَطِيَّةِ ، وينفردُ الحمْدُ اللغَوي في الثَّناءِ بالفصَاحةِ في غيرِ مُقابلةِ المبَاحةِ ، ويَنفَرِدُ الشّكرُ اللغَوي في العملِ بالأَركانِ في مُقَابلةِ الامتِنَانِ ، فالحمدُ اللُّغَويُّ أَخصُّ مَصْدَراً وهو اللسَانُ وحدَه ، وأَعَمُّ مُتَعَلَّقاً وهو النِّعمةُ وغيرُها ، والحمدُ الاصْطلاحيُّ بالعكسِ كالشّكرِ اللُّغَوي ، لأَنه يكونُ باللسَانِ والجَنَانِ والأَركانِ لكنَّه في مُقَابلةِ النِّعمةِ فَقط.

ورَابعُها: بينَ الشُّكرِ الاصطلاحيِّ والحمدِ اللُّغَويِّ. **وخَامِسُهَا:** بينَ الاصطلاحينِ. **وسَادسُها:** بين الشُّكرينِ، فالنسبةُ في هذِه الأَقسامِ الثَّلاثةِ عُمومٌ وخُصوصٌ مُطلقٌ، وهو أَنْ تجتمعَ كلُّها في مادَّةٍ ويَنفردَ أحدُها في مادَّةٍ أُخرَى، كما في شَجَرٍ أَراكٍ، ولا عكسَ فتجتمعُ كلُّها في الشكرِ الاصطلاحيِّ لأَنه أخصُّ منَ الجميعِ كما قدْ عرفتَ تَصْويرَه فلا يكونُ مصدرُ غيرِه كمصدرِه لأَنه لابُدَّ فيه من صَرفِ جميعِ النِّعمةِ زمنَاً واحداً، وينفردُ الحمدُ اللغَوي في الثناءِ باللسانِ من غيرِ مقابلةِ الإحسانِ، وينفردُ الحمدُ الاصطلاحيُّ ومثلُه الشُّكرُ اللغويُّ في المحبةِ بالجَنَانِ في مُقابَلةِ الإحسانِ ولا ينفردُ أَحدُ

هذينِ عنِ الآخرِ لأَنَّهما مُتَرادِفَانِ. ومن غريبِ الاتِّفَاقِ أَنَّ أَحرُفَ الحمدِ خمسةٌ ؛ وقد ابتدئَ به في القرآنِ خمسُ سورٍ: **الأولى:** سورة الفاتحة، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢]. **الثَّانيةُ:** سورة الأَنعامِ وهيَ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: ١]. **الثَّالثةُ:** سورةُ الكهفِ وهيَ قوله سبحانه :﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾[الكهف: ١]. **الرَّابعةُ:** سورةُ سبأ وهي قوله جلَّ جلاله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[سبأ: ١]. **الخامِسَةُ:** سورةُ فاطرٍ وهي قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر: ١].

واخْتُتِمَ به خمسُ سُورٍ أيضاً: **الأُولى:** سورة الإسراء ، وهو قول الله تعالى:﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[الإسراء:١١١]. **الثَّانيةُ :** سورةُ النَّملِ وهي قول الله تبارك وتعالى:﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[النمل: ٩٣]. **الثَّالثةُ:** سورةُ الصَّافَّاتِ وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات: ١٨٢]. **الرَّابعةُ:** سورةُ الزُّمر، وهي قوله تعالى:﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الزمر: ٧٥]. **الخَامسةُ:** سورة الجاثية، وهي قول الله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية:٣٦- ٣٧]. قالَ العلامة أحمدُ الملَوِيُّ(١) رحمهُ اللهُ تعالى: "الحمدُ لله، ثمانيةُ أَحرُفٍ؛ وأبوابُ الجنةِ ثمانيةٌ، فمن قالها

---

(١) هو الامام العلامة أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف، الشهير بالملوي، شيخ الشيوخ وأستاذ أهل الرسوخ، صاحب التآليف النافعة، ولد سنة (١٠٨٨)هـ، طلب العلم في الأزهر وأخذ عن جملة من شيوخه حتى اشتهر صيته وعلا ذكره، ومن مؤلفاته: شرحان على رسالة الاستعارات، وشرحان على السلم للأخضري، توفي رحمَهُ اللهُ سنة (١١٨١)هـ. [سلك الدرر(١/ ٧٥)].

عنْ صفاءِ قلبٍ استحقَّ ثمانيةَ أبوابِ الجنةِ" [١]، أَي يخيَّرُ بينها إكراماً له، وإنما يدخلُ من البابِ الذي عَلِمَ الله تعالى أَنْ يَدخلَ منه . واعلَمْ أَنَّ أَولَ كلمةٍ ذكرَهَا نبيُّ الله آدمُ على نبينا وعليه الصلاة والسلام هي قولُه: الحمدُ لله ، وآخرُ كلمةٍ يذكُرهَا أَهلُ الجنةِ هيَ: الحمدُ لله ، أمَّا الأُولى ؛ فلأَنه لما بَلغتِ الرُّوحُ سُرَّتَه عَطَسَ فقال: "الحمدُ لله رَبِّ العَالمينَ"، وأَمَّا الثَّانيةُ، فلِقَولِ الله سبحانه وتعالى: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠] ، ففاتحةُ العَالمِ مبنيةٌ على الحمدِ وخاتمتُه مَبْنِيَّةٌ على الحمدِ.

* تَنْبِيهٌ:-

قال ابنُ عَطِيَّةَ [٢] رحمهُ اللهُ تعالى: اختلفَ العلماءُ؛ هلْ الأَفضلُ قولُ: «الحمدُ لله» أو قولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؟ فذهبتْ طائفةٌ إلى الأَولِ، لأَنَّ الحمدَ ظاهرُه جِدٌّ وتَوحيدٌ، بخلافِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» واحْتَجُّواْ بما رُويَ من حديثِ أَبي هُرَيرَةَ وأَبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما ، أَنَّ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قال: «منْ قالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ؛ كُتِبَ لَه عِشْرُونَ حَسَنةً وحُطَّ عنْه عِشْرُونَ سَيِّئةً ، ومنْ قالَ الحمدُ لله رَبِّ العَالمينَ كُتِبَ لَه ثَلاثُونَ حَسَنَةً وحُطَّ عنه ثَلاثُونَ سَيِّئةً» [٣].

---

(١) أوردها الإمام سراج الدين الحنبلي في "اللباب في علوم الكتاب (١/ ١٧٥)"ونسبها لابنِ الخَطِيب.

(٢) هو الإمام أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن تمام بن عطية، الغرناطي، قدوة المفسرين، ولد سنة(٤٨١)هـ، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير، بارعاً في الأدب ذا ضبط وتقييد وتجويد وذهن سيال، ولو لم يكن له إلا تفسير "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" في عشرة مجلدات لكفى، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين. توفي رحمَهُ اللهُ في سنة(٥٤٢)هـ.[الأعلام(٣/ ٢٨٢)].

(٣) حديث صحيح رواه النسائي في السنن الكبرى برقم(١٠٦٧٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه [٦/ ٢١٦] برقم(٣٠٤٤٦)، ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم(٥٧١)، والإمام أحمد في مسنده برقم (١١٣٢٢) .

وذهبتْ طائفةٌ أخرى إلى الثَّاني ؛ لأنها تَنفِي الكُفرَ، واحتَجُّواْ بقولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم: «مِفْتَاحُ الجَنَّةِ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ» (١)، وقد وردَ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «يُنَادَي يَومَ القِيَامَة: لِيَقُمِ الحَمَّادُونَ، فَتَقُومُ زُمْرَةٌ فَيُنْصَبُ لهمْ لِواءُ الحَمْدِ فَيَدْخُلُونَ الجنَّةَ، قِيلَ: ومَنِ الحَمَّادُونَ؟، قَالَ الذِينَ يَشْكُرُونَ الله عَلى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ» (٢) ، ومنَ المعْلومِ أَنَّ العبدَ لَوِ استغرقَ عُمْرَه في حمدِه تعالى لا يَفِي بما لَه سُبحانَه وتَعالى ، كيفَ وهوَ الذي أَنعمَ علينا بنِعمَةِ الإِيجادِ ثُمَّ بنعمةِ الإِمدَادِ وهَاتَانِ نِعْمَتَانِ لا يَخرُجُ عنهمَا مَوجُودٌ .

❁ ❁ ❁

حَقِيقَةُ الشّكْر

أَمَّا الشكرُ فهو يُديمُ النِّعمةَ الموجُودةَ ويُعَجِّلُ بالنِّعمةِ المفقُودَةِ بِنَصِّ قولِه تَعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم: ٧]، وإلى ذلك أشارَ سيدي وولي أَمري الشيخُ عبدُالله بن علوي الحداد نفعنا الله تعالى به وبعلومه في الدارين آمين فقال(٣) : [من الطويل]

وَكُــــنْ شَـــاكِراً لله قَلْبـــاً وقَالَبـــاً عَــلى فَضْــلِه إِنَّ المزِيــدَ مَــعَ الشُّــكْرِ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٢٤٢) والبزار في مسنده برقم (٢٦٦٠) عن سيدنا معاذ بن جبل رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٣٣٤٥) وأخرجه في المعجم الأوسط برقم (٣٠٣٣) ، وفي المعجم الصغير برقم (٢٨٨) ، وفي كتاب الدعاء (٢/ ٢٩) ، ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٤٠٦٣) ، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٧١٦٤) ، والحاكم في مستدركه على الصحيحين [٢/ ٣١٧] برقم (١٨٥١)، عن ابن عباس رضيَ اللهُ تعالى عنهما، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) انظر ديوان الإمام الحداد ، ص:(٢١٠).

فالمخاطبُ هنا كلُّ من يَصلحُ للخطابِ، وفي البيتِ من المُحَسَّناتِ البَدِيعيةِ النَّوعُ المسَمَّى بـ "التَّذْيِيلِ"[١]، وهو تَذييلُ المتكلمِ كَلَامَه بعدَ تمامِه وحُسْنِ السُّكوتِ عَليه، بجُملةٍ يَتحقَّقُ بها ما قَبلها منَ الكلامِ، ويُسْتَفَادُ منها تَوكيدُه، وهو في هذا البيتِ في قوله: "إِنَّ المزِيدَ معَ الشُّكرِ" بعد تمامِ معنى البيتِ، ومثله قول الشَّاعرِ: [مجزوء الرمل]

بينَ منْ يُعْطِي ومَن يأْ ... خُذُ في التَّقديرِ عَرْضُ
فيدُ المعْطِي سَماءٌ ... ويَدُ الآخذِ أَرْضُ
وعَلى الآخِذِ أَنْ يَشْـ ... ـكُرَ إِنَّ الشُّكرَ فَرضُ[٢]

وجعلَ تقيُّ الدينِ أَبو بكرٍ الحمَوَي[٣] رحمهُ اللهُ تعالى في خِزَانتِه من هذا القَبيلِ، قولَ الشَّاعرِ: [من الطويل]

---

(١) **التَّذْيِيلُ**: هو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها توكيداً لمنطوقها، وهو قسمان:

القسم الأول: مَا يجري مجرى المثل، وهو ما استقلّ معناه واستغنى عمّا قبله، مثلُ قولِ الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] فإنّ جملة: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، تتضمّنُ معنى الجملة التي جاءت قبلها، فهي إطناب على طريقة التذييل، وعبارتها ممّا يجري مجْرى المثل، وهي تُؤكّد منطوق الجملة التي قبلها.

القسم الثاني: مَا لا يجري من التذييل مجرى المثل، وهو ما لا يستقلُّ معناه عمّا قبله.

ومثال ذلك قول ابن نُبَاتَة السّعْدِي: [من البسيط]

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئاً أُأَمِّلُهُ ... تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيا بِلاَ أَمَلِ

فإن الشطر الثاني من هذا البيت أكّدَ مَفْهوم الشطر الأول، وهو مما لا يجري مجرى المثل.

(٢) هذه الأبيات لأبي الفتح البستي وهي في ديوانه، ص: (٢١٩).

(٣) هو العلامة تقي الدين أبو بكر محمد بن المظفر بن بكر بن عبد الصمد، الحموي، قاضي القضاة، الفقيه الشافعي، ولد بحماة سنة (٤٠٠) هـ، رحل إلى بغداد شاباً فسكنها وتفقه بها إلى أن ولي قضاء القضاة بعد موت الدمغاني، تفقه على أبي الطيب الطبري وكان يحفظ تعليقته، صنف كتاب البيان عن أصول الدين، وقد ترجم له ابن النجار، توفي سنة (٤٨٨) هـ. [الوافي بالوفيات (٢/ ١٠٢)].

نَـزُورُ فتـىً يُعطِـي عَـلى الحَمْـدِ مَالـه ومَـنْ يُعـطِ أَثـمانَ المحَامِـدِ يُحمَـدِ[١]

فإِنَّ عجزَ البيتِ كلُّه تذييلٌ خَرجَ مخرجَ المثلِ السَّائرِ ، وصدرَ البيتِ استَقَلَّ بالمعنى المرادِ على انفرادِه ، وقَريبٌ من هذا النوعِ المسَمَّى بـ "التَّكمِيلِ"[٢]، والفَرقُ بينهما أَن التَّكميلَ يَرِدُ على معنىً مُفْتَقِرٍ إِلى الكَمَالِ بعدَ التَّمامِ ، والتَّذييلُ لم يفدْ غيرَ تحقق الكلامِ الأَول .

والتكميل: أَنْ يَأتيَ المتكلِّمُ بمعنىً تَامٍّ منْ مَدحٍ أَو ذَمٍ أَو وصفٍ أَو غيرِه منَ الأَغراضِ الشِّعْريَّةِ وفنونِها ، ثُمَّ يَرى الاقتصارَ على ذلكَ الوَصفِ أو المعنى فقط غيرَ كاملٍ ، فيأتي بمعنىً آخرَ يزيدُه تكميلاً .

ومن شَوَاهِدِ هذا النَّوعِ قولُ سيدنا حَسَّانَ بن ثابت رَضِيَ اللهُ تعالى عنه يمدحُ النَّبيَّ الأَكرمَ محمداً صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم [٣]: [من الطويل]

وَأَلفَيتُـــه بَحْـــرَاً كَثـــيرَاً فُضُـــولُه جَـوَاداً مَتـى يُـذكَرْ لَـه الخـيرُ يَـزدَدِ

---

(١) هذا البيت للحطيئة ، انظر ديوانه ، ص:(١٦) .

(٢) **التكميل:** هو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون الشعر وأغراضه ، ثم يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل، فيكمله بمعنى آخر ، وقد يطلق عليه الاحتراس أيضا، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة ورأى مدحه بالاقتصار عليها دون الكرم مثلاً غير كامل، فكمله بذكر الكرم، أو بالبأس دون الحلم، وما أشبهه ، وقد جاء منه في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ، فانظر هذه البلاغة، فإنه سبحانه وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين وإن كانت صفة مدح ، إذ وصفهم بالرياضة لإخوانهم المؤمنين والانقياد لأمورهم كان المدح غير كامل ، فكمل مدحهم بأن وصفهم بالعزة على الكافرين فأتى بوصفهم بالامتناع منهم ، والغلبة لهم، وكذلك قوله سبحانه : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩] .

(٣) انظر ديوان سيدنا حسان بن ثابت رضيَ اللهُ تعالى عنه ، ص: (٥) .

فإنَّ قولَه متى يُذكر إلى آخرِه تكميلٌ ، ثمَّ إن الشكرَ عندَ المحقِّقِينَ هو الاعترافُ بنعمةِ المنعِمِ على وجهِ الخضُوعِ ، وعلى ذلكَ يكونُ وصفُ الحقِّ سبحانه وتعالى به من بَابِ التَّوَسُّعِ والمجَازِ على أَنه المُجَازِي عليه فَيُسَمَّى جَزاءُ الشُّكرِ شُكْراً ، كَما سُمِّيَ جَزاءُ السَّيئةِ سَيِّئةً ، وجَزاءُ الاعْتِدَاءِ اعتداءً .

واعلمْ أَن الشّكرَ من منازلِ الأَبرارِ ومن صِفَاتِ النبيِّ المختارِ عليه وعلى آلِه الأَطهارِ أَفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ، وقْد أَمر به الحقُّ سبحانَه وتعالى حيثُ قال:﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[البقرة: ١٥٢]، فهو واجبٌ على كلِّ نِعمةٍ ؛ من حَركةٍ وسُكونٍ، أَو حياةٍ، أَو مَطعَمٍ، أَو مَشْرَبٍ، أَو لباسٍ، أَو فراشٍ، أَو صِحَّةٍ، أَو مَرضٍ لأنه يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ، فإذاً كلُّ ذلكَ منَ النِّعمِ ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١٨]، ألا تَرَى أَن أَيُّوبَ على نبينا وعليه الصلاة السلام صَبَرَ على البَلاءِ ، فقال سبحانه وتعالى له: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٤٤].

وقد رُوِيَ أَنَّ داوُدَ على نبينا وعليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ: « يَا رَبِّ كَيْف أَشْكُرك وَشُكْرِي لَك نِعْمَة مِنْك عَلَيَّ ؟» ، فَقالَ اللهُ تَعَالَى لَه: «الْآن شَكَرْتنِي يَا دَاوُد»[(١)]، أَيْ حِين اِعْتَرَفْت بِالتَّقْصِيرِ عَنْ أَدَاءِ شُكْرِ المُنْعِم، وفي هذا يُقَالُ: "الشُّكرُ عَلى الشُّكرِ أَتَمُّ".

وقالَ محمودٌ الوَرَّاقُ [(٢)]رحمهُ اللهُ تعالى : [من الطويل]

---

(١) عزاه الحافظ السيوطي في الدار المنثور [١١/ ١٢٨]إلى ابن أبي حاتم ، وهو أيضا في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي [٩/ ٣٤٣] ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير [٤/ ٥١٢] .

(٢) هو محمود بن الحسن الوراق، شاعر مشهور، أكثر شعره في المواعظ والحكم، روى عنه ابن أبي الدنيا، وفي الكامل للمبرد نتف من شعره، وقد جمع عدنان العبيدي شعره في ديوان، ومن شعره: [الكامل]

دارِ الصديقَ إذا اسْتشَاطَ تَغَضُّباً ... فالغيظُ يخرجُ كامنَ الأَحقادِ

ولَرُبَّما كانَ التَّغضُّبُ باحِثاً ... لمَثالبِ الآباءِ والأَجدادِ

توفي رحمَهُ اللهُ تعالى في خلافة المعتصم سنة (٢٢٠) هـ . [فوات الوفيات (١/ ٢٣٤)].

إِذا كَـانَ شُـكري نِعمـةَ اللهِ نِعمَـةً ... عَـليَّ لَـه في مِثلِهـا يَجـبُ الشُّـكرُ
فَكيـفَ بُلـوغُ الشُّـكرِ إلا بِفَضْـلِه ... وإِن طَالـتِ الأَيـامُ واتَّصَـلَ العُمْـرُ
إِذا مَـسَّ بِالسَّـرَّاءِ عَـمَّ سُرُورُهَـا ... وإِنْ مَـسَّ بالضَّـرَاءِ أَعْقَبَهـا الأَجْـرُ
فَـما مِـنهُما إلا لَـه فِيـه نِعمَـةٌ ... تَضِيـقُ بِهـا الأَوهَـامُ والسِّرُّ والجَهْـرُ[1]

وقد عُلِمَ منْ صَرِيحِ الآيتينِ أَعني قَولَه تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم: ٧]، وقولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١]، أَنَّ من لمْ يَشْكُرِ النعمَ فقد تَعَرَّضَ لِزَوَالِها ، ومَنْ شَكَرَها فقدْ قَيَّدها بعِقَالِها، وقد اجتمعتْ حُكَماءُ العربِ والعَجمِ على هذه اللَّفظَةِ فقالوا:"الشُّكْرُ قَيْدُ النِّعَمِ المَوْجودةِ وصَيْدُالنِّعمِ المَفْقُودةِ"[2]،ولبعضِ الشُّعرَاءِ:[المتقارب]

إِذا كُنـتَ في نِعمَـةٍ فَارْعَهـا ... فَـإِنَّ المَعـاصي تُزيـلُ الـنِعَم
وَحـافِظ عَلَيهـا بِشُـكرِ الإِلَـهِ ... فَـإِنَّ الإِلَـهَ سَريـعُ الـنِّقَم[3]

وقـولُ سيدي وولي أمـري عبـدُالله بـن علـوي الحـداد نفعنـا الله تعـالى بعلومـه في الدارين آمـين في أبياتـه "قَلْباً وقَالَباً" أي كُـن شَـاكراً لله بالقلـبِ والقَالـبِ وهـو قَالـبُ الجسمِ، والمرَادُ بذلك سَائرُ الجوَارحِ إِذِ الشُّكرُ يكونُ بالقَلبِ وبالجوَارحِ الشَّاملةِ للِّسَانِ وغيرِها منَ الأَعضَاءِ .فَشُكرُ القَلـبِ أَنْ يَعلـمَ أَنَّ الـنِّعمَ كلَّهـا منَ الله تعـالى ، قـالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣] . وشكرُ اللسَـانِ اعترافُهـا بالنعمـةِ والثَّنـاء على مُسدِيها وكثرةِ المدحِ والحمدِ مع الخضوعِ والاسْتِكَانةِ ، ويَـدخلُ في ذلـكَ التَّحَـدُّثِ بالنِّعمِ وإِظهَارِها ونَشْرِها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى: ١١].

---

(١) الأبيات في ديوان محمود الوراق ، ص: (٦٩) .

(٢) انظر كتاب سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي ، ص : (٢١٩) .

(٣) البيتان لسيدنا الإمام علي بن أبي طالب رضيَ اللهُ تعالى عنه، وهي في ديوانه، ص: (١٢٩) .

وقال عمرُ بنُ عبدِالعزِيزِ[١] رحمهُ اللهُ: "تَذَكَّرُواْ النِّعَمَ فَإِنَّ تَذَكُّرَهَا شُكْرٌ"[٢]، ومن شُكرِ اللِّسَانِ أَيضاً شُكْرُ الوَسَائطِ -وهُم مَنْ أَجرَى الله الخيرَ على أَيدِيهِمْ- وذلكَ بالثَّناءِ عليهِم والدُّعاءِ لَهُمْ، فَفِي حَدِيثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما أَن الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم قالَ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الكَثِيرَ، ومَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ الله عَزَّ وَجَلَّ»[٣]. وفي الحديثِ القُدُسِيِّ: «عَبْدِي؛ لَمْ تَشْكُرْنِي إِذَا لَمْ تَشْكُرْ مَنْ أَجْرَيْتُ النِّعْمَةَ عَلَى يَدَيْهِ» [٤].

---

(١) هو الخليفة الصالح والإمام العادل أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان، خامس الخلفاء الراشدين، ولد بحلوان -قرية بمصر- وأبوه أمير عليها سنة (٦١)هـ، وأمه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، جمع القرآن وهو صغير، وبعثه أبوه إلى المدينة فتأدب فيها وتعلم، كان قبل الخلافة على قدم الصلاح، ولاه الوليد على المدينة سنة (٨٦) هـ، وبويع بالخلافة سنة (٩٩) هـ، فمكث فيها سنتين وخمسة أشهر، ملأ فيها الأرض عدلًا، وردّ المظالم، وسن السنن الحسنة، وفي خلافته رُئيَت الذئاب ترعى مع الغنم بالبادية !، وقال رعاء الشاء: عدلُه كفّ الذئاب عن شائنا، قيل له في مرضه: لو أتيت المدينة دفنت في موضع القبر الرابع مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، فقال: والله لأن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار أحب إليّ من أن يعلم الله من أني أُراني لذلك الموضع أهلًا، توفي رضيَ اللهُ عنه سنة (١٠١)هـ، مسموماً، لأن بني أمية تبرموا به؛ لكونه شدد عليهم وانتزع من أيديهم كثيرًا مما غصبوه، فسقوه السم، فمات بسبب ذلك وكان يعلم بمن سمه ولكنه لم يعاقبه. [تاريخ الخلفاء (١/ ٣٣٧)].

(٢) انظر كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للأبشهي (١/ ٥٠٤).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان [٦/ ٥١٦] برقم (٩١١٩) والترمذي في الجامع الصحيح [٤/ ١٨١] برقم (١٩٥٥)، والطبراني في المعجم الأوسط [٤/ ٥١] برقم (٣٥٨٢)وفي المعجم الكبير [٢/ ٣٥٦] برقم (٢٥٠١)، وأبو يعلى في مسنده [٢/ ٣٨١] برقم (١١٢٢)، والإمام أحمد في مسنده [٢/ ٢٥٨] برقم (٧٤٩٥)، وعبدالرزاق في مصنفه [١٠/ ٤٢٥] برقم(١٩٥٨١).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الصغير [١/ ٢٧٦] برقم (٤٥٤)، وفي مسند الشاميين [١/ ١٧٥] برقم (٢٩٨)، وأخرجه السيوطي في جامع الأحاديث برقم (٤٣٣٢٧).

شُكرُ الجَوَارِح

شُكرُ سَائرِ الجَوَارِحِ أَن تَعملَ بها العملَ الصَّالحَ ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]، فجعلَ العملَ شُكْرَاً، ورُوِيَ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم " أَنَّه قَامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ له: يَا رَسُولَ الله أَلَيْسَ قَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فقَالَ: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» [(١)]. ثُمَّ إِنَّ شُكْرَ كُلِّ عُضْوٍ عَلى حِدَتِه هو حِفْظُه عَنْ مَنْهِيَّاتِ الشَّرعِ:

فَشُكرُ العَيْنَيْنِ: أَنْ يَسْتُرَ عَيبَ أَخيهِ المسْلِم وأَنْ لَا يَنظُرَ بهما إِلى مُحَرَّمٍ، قال صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبلِيس، قالَ اللهُ تعالى: مَنْ تَرَكَهَا مَخَافَتِي أَبْدَلْتُه إِيمَاناً يَجِدُ حَلَاوَتَه فِي قَلْبِه»[(٢)]،لأنَّ النَّظرَ يدعو إلى الفكرِ والفِكرُ يَدعو إِلى الزِّنَا. وقال الشاعر [(٣)]: [من البسيط]

العَينُ أَصلُ عَنَاهَا فِتْنَةُ النَّظَرِ ... والقَلبُ كُلُّ أَذَاهُ الشُّغْلُ بِالفِكَرِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم(٤٨٣٦)، ومسلم برقم(٢٨١٩)وأبو يعلى في مسنده برقم(٢٩٠٠) وأحمد[٤/ ٢٥١] برقم(١٨٢٢٣)، والطبراني في المعجم الصغير[١/ ٨٧] برقم(٣٢٧)، وفي الكبير برقم (١٠٠٩) [١٦/ ٢٨٠]، والبيهقي في شعب الإيمان[٣/ ٨١] برقم(١٤١٤)وابن حبان في صحيحه برقم (٣١١) والنسائي في الكبرى[١/ ٤١٨] برقم(١٣٢٥)، عن المغيرة بن شعبة وعائشة رضيَ اللهُ عنهما.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير[١٠/ ١٧٣] برقم (١٠٣٦٢)، والحاكم في المستدرك [٧/ ٣٧٩] برقم (٧٨٧٥)، عن حذيفة رضى الله عنه، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) البيت لم أعثر على قائله ، ولعلَّه لابن غلبُون الصوري فقد وجدت في ديوانه ، ص: (٢٠٥)، قصيده تشابه هذا البيت تماما ، نقلت منه هذا المقطع لتمام الفائدة ، قال : [من البسيط]

كُلُّ الحوادثِ مبدأها من النَّظرِ ... ومعظَمُ النَّارِ من مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كم نظرة فتكَت في قلبِ صاحبها ... فتكَ السِّهام بلا قوسٍ ولا وتَرِ

والمرءُ مادامَ ذا عَينٍ يقلِّبُها ... في أعيُنِ الغيرِ مَوقوفٌ على الخَطرِ

يسرُّ ناظره ما ضرَّ خاطره ... لا بارك الله سروراً جاء بالضَّرَرِ

وشُكرُ الأُذُنَينِ : هو أَن لا يسمعَ بها ما لَا يَحلُّ له ؛ كالغِيبةِ والنَّمِيمَةِ ، وسَائرِ الأَقوالِ المحَرَّمةِ ، قال الشاعر : [من المتقارب]

وَسَمعَكَ صُن عَن سَماعِ القَبيحِ ... كَصَونِ اللِسانِ عَنِ النُطقِ بِه

فَإِنَّكَ عِندَ اِستِماعِ القَبيحِ ... شَريكٌ لِقائِلِهِ فَانتَبِه[1]

وشكرُ اليَدَينِ: هو أَنْ لا يَدخلَ بهما ما ليسَ لَه أَخذُه ، ولا يَمنعَ حقاً وهو لله تعالى فيهما ، ولا يَضرِبَ بهما مُسلماً بغيرِ حقٍّ ، بلْ ولا يَكْتُبُ بهما مَا لا يجوزُ التَّكلُّمُ به ولَا وثِيقَةً تَضَمَّنتْ مَحظُوراً كَالرِّبَا وغيرِ ذلك منَ المعاملات المحرَّمةِ.

وَشُكْرُ اللِّسَانِ: أَن يَحفظَه عنِ الغِيبَةِ، والنَّمِيمَةِ، ولَعنِ المسْلِم، والسَّبِّ، والكَذِبِ، لأنه ليس من وصف المؤمنين، قالَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾[النحل: ١٠٥] ، وقالَ اللهُ تبارك وتعالى : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات: ١٢].

وَشُكْرُ الرِّجْلِينِ : أَنْ لَا يَمشِي بِهما لِلحَرَامِ أَو لِلسَّعيِ في الفَسَادِ ، وهَكذا يُقالُ في بَاقي الأَركانِ ، كُلُّ جَارِحَةٍ بِحَسَبِهَا.

واعلمْ أَنَّ تَعجيلَ المصَائبِ في الدنيا، وتَوَاترَ الأَدْوَاءِ والابْتِلاءِ نِعمةٌ بَاطنةٌ في بَلايَا ظَاهرَةٍ ، وبِذَلِكَ فَسَّرَ بَعضُ المفسِّرينَ قول الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً

---

(١) البيتان لمحمود الوراق ، وهما في ديوانه ص: (٢١٣) ، في مقطع يقول فيه : [من المتقارب]

تَحَرَّ مِنَ الطُرقِ أَوساطَها ... وَعُدِّ عَنِ الجانِبِ المُشتَبِه

وَسَمعَكَ صُن عَن سَماعِ القَبيحِ ... كَصَونِ اللِسانِ عَنِ النُطقِ بِه

فَإِنَّكَ عِندَ اِستِماعِ القَبيحِ ... شَريكٌ لِقائِلِهِ فَانتَبِه

فَكَم أَزعَجَ الحِرصُ مِن طالِبٍ ... فَوافى المَنِيَّةَ في مَطلَبِه

وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان: ٢٠]، جَعلَ البلايَا الظَّاهرةَ نِعمَةً، لما فِيها منَ الثَّوابِ فيجبُ الشُّكرُ عليها، وفي الحدِيثِ عنه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ وابْتُلِيَ فَصَبَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ أُولئكَ لَهمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ»(١). ومن الشُّكرِ أيضاً التَّواضعُ، والتَّذَلُّلُ معَ النِّعمَةِ، والمعْرِفَةُ بالتَّقصِيرِ عنِ الشُّكرِ ، والاعتِذَارُ إِلى الله تبارك تعالى منْ قِلَّتِه أَعنِي الشُّكرَ وعَدَمَ الوَفاءِ به ، ولله تعالى دَرُّ القَائلِ: [من الكامل]

ومِنَ الرَّزِيَّةِ أَنَّ شُكرِي صَامِتٌ عَمَّا فَعَلْتَ وَأَنَّ بِرَّكَ نَاطِقُ
أَأَرَى الصَّنِيعَةَ مِنْكَ ثُمَّ أُسِرُّهَا إِنِّي إِذاً لَيَدِ الكَرِيمِ لَسَارِقُ(٢)

ولصفي الدين الحلي (٣): [من الطويل]

سَأَشكُرُ نُعماكَ الَّتي لَو جَحَدتُها أَقَرَّ بِها حالي وَنَمَّ بِها سِرّي
وَفي حُسنِ حالِ الرَوضِ أَعدَلُ شاهِدٍ يُقِرُّ بِما أَسدَت إِلَيهِ يَدُ القَطرِ(٤)

وقال محمود الوراق: [من الطويل]

إِلَهي لَكَ الحَمدُ الَّذي أَنتَ أَهلُهُ عَلى نِعَم ما كُنتُ قَطُّ لَها أَهلا

---

(١) رواه الحافظ الطبراني في المعجم الكبير [٧/ ١١٠] برقم : (٦٦١٣) ، والحافظ أبو نعيم في معرفة الصحابة [١٠/ ٢١٨] برقم (٣٢٣١) ، عن عبد الله بن سَخْبَرَةَ عن أبيه رضيَ اللهُ تعالى عنه.

(٢) البيتان لأبي تمام ، وهما في ديوانه ، ص: (٢٥٢) .

(٣) هو العلامة أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن علي الطائي، شاعر مشهور أديب وبليغ، ولد سنة (٦٧٨)هـ، نظم الشعر وله سبع سنين، فلما بلغ الحلم اشتغل بالعربية والأدب حتى بلغ الرئاسة، رحل في البلدان وتقدم في علم الأدب والشعر وله النظم الرائق الفائق، ومدح النبي صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بقصيدته المعروفة بالبديعية، وله ديوان كبير، وطارح أهل زمانه في الشعر وأثنواْ على فضيلته، توفي رحمَهُ اللهُ في بغداد سنة (٧٥٠)هـ،[المنهل الصافي (٢/ ١٢٣)].

(٤) انظر البيتين في ديوانه ، ص: (٢٠٥) .

مَتـى ازدَدتُ تَقصـيراً تَـزِدني تَفَضُّـلاً كَـأَنِّيَ بِالتَقصـيرِ أَسـتَوجِبُ الفَضْـلا [١]

والشُّكرُ يكونُ بالقلبِ وباللِّسَانِ وسَائر الجـوَارِحِ ، وهـوَ الشُّـكرُ الاصْـطِلاحِيِّ ؛ إِذْ هُو صَرْفُ العَبدِ جميعَ مَا أَنعَمَ الله تعالى به عَليـه إِلى مَـا خُلِـقَ لأَجلِه ، فـإِنْ صَرَفَهـا فِي أَوقَاتٍ سُمِّيَ شَاكِرَاً ، وإِنْ صَرَفَها في آنٍ واحدٍ سُمِّيَ شَكُورَاً ، وَالموَفَّقُ على أَدَاءِ الشُّـكرِ بذَلِكَ قَليلٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]، أَيْ قليـلٌ الموّفـقُ عـلى أَدَاءِ الشُّكرِ بِقلبِه ولِسَانِه وجَوَارِحِه أَكثرَ أَوقَاتِه قليلٌ..!.

واعلمْ بأَنَّ شُكْرَ النِّعمِ امْتِثال أَوامِرِ الله تعالى واجتِنَابَ نَواهِيهِ واجبٌ شَرْعَـاً عـلى كُلِّ مكَلَّفٍ يَأْثَمُ بِترَكِه إِجماعَاً، وكَذا الشُّكرُ القَلْبِي بِمعنَى اعتقادِ أَنَّ الله تعـالى هـوَ المُـولِي لِلنِّعمِ لَا غَيرُه في الحقِيقَةِ. والشُّكرُ ينقسـمُ إلى أَقسـامٍ: شُـكرٍ باللِّسَـانِ، وشُـكرٍ بِالقلـبِ، وشُكرٍ يجلِبُ المزِيدَ ، وشُكرٍ أَدَاءٌ، فَأما شـكرُ اللسَـانِ فَهـو نُطـقُ اللِّسـانِ بالشُّـكرِ، وأمـا شكرُ القَلبِ والجنَانِ فهو شُكرُ الإِنسـانِ بَاطنـاً قَلبـاً وعَقْـلاً، وأمـا الشُّـكرُ الـذي يجلـبُ المزِيدَ فهوَ شُكرُ المقِلِّ الدَّاعي لِربه فأَوعده بمزيدِه، وأما شُكرُ الأداءِ فهو شُكر الأَغنيـاءِ إِذْ لا يُقبلْ مِنهمُ الشُّكرُ لِسَاناً ولا قَلباً ولا جَنَاناً ولا شَكراً يَجلبُ المزِيـدَ فقـط؛ بـلْ لابُـدَّ من شكرِ الأداءِ وهوَ العَطاءُ لِلضُّعَفَاءِ والفُقَرَاءِ، وانظرْ إلى قوله تعالى لآلِ داودَ حيـثُ لم يَقبلْ منهمْ شُكرَ اللسَانِ فقط بَلْ قال سبحانه وتعالى:﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ [سبأ: ١٣]، ثم قال جـلَّ جلالـه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾[سبأ: ١٣]، فهنـا يَـتَجَلَّى واضـحاً أَن شُـكرَ الغَنِيِّ إِذا قالَ: الحمْدُ لله الذِي أَعطَاني؛ مُتَرَفِّعاً بِمالِه ، وجَارُه يَتَضَـوَّرُ جُوعَـاً خَـارِجَ بيتـه أَنَّ هذا الشُّكرَ غيرُ مَقْبُولٍ البَتَّةَ ، لأَنـه لا يَـتِمُّ لِلغَنـيِّ الشُّـكرُ إِلا بـأَداءِ الصَّـدقةِ والبَـذْلِ وسَدِّ فَاقةِ الجَائعِ المحتَاجِ ، ويجبُ الشُّكرُ على كُلِّ مخلوقٍ لله تعالى في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ .

❁ ❁ ❁

(١) البيتان في ديوانه ، ص: (١٢٠) .

حَقِيقَةُ التَّصَوُّف

التَّصوفُ كُلُّه جِدٌّ لا يُمازِجُه هَزْلٌ، ولَه ثَلاثَةُ مُرْتَكَزاتٍ: عِبَادَةٌ، وطُهْرٌ، وقُرْبٌ إِلى الله تَبَارَكَ وتَعَالَى، فالعِبادَةُ تَنقسِمُ إِلى ثَلاثةِ أَقسَامٍ: عِبَادَةٍ، وعُبُودِيَّةٍ، وعَبُودَةٍ، فَالعبادَةُ: هِيَ مَا عليهِ العَامَّةُ، والعُبُودِيَّةُ: هِيَ ما عَليه الخَوَاصُ، والعُبُودَةُ: هِيَ مَا عَلَيهِ خَوَاصُ الخَوَاصِ، فالعِبَادَةُ هيَ عِلمُ اليَقينِ، والعُبودِيَّةُ هِيَ عينُ اليَقينِ، والعُبُودَةُ هِيَ حَقُّ اليَقينِ. والتَّصَوُّفُ كُلُّه آدابٌ؛ إِذا كَمُلَتْ هذه الآدابُ كَمُلَ التَّصوفُ، ولا تحصلُ هذه الآدابُ إِلا بالتَّعرُّفِ عليها من قِبَلِ شيخٍ مُرَبٍّ، والشَّيخُ هوَ الدَّالُ على الله تعالى بالأَقوالِ والأَفعالِ، فَمُرِيدُ الدُّخولِ في سِلكِ التَّصوفِ عليهِ أَولاً نُكرَانُ الذَّاتِ، وخَفْضُ الجَنَاحِ، والعَفَافُ، وعدَمُ الارْتِيَابِ، والوَقارُ، وعَدَمُ التَّكبُّرِ والوَقَاحَةِ وشَرَسِ الأَخْلَاقِ. والتَّصوفُ لَعَمْرِي إِنَّه لَمدارُ كُلِّ فَضِيلَةٍ، وليسَ مَظَاهرَ ظَاهرَةً؛ بلْ خُلُقٌ نَبَويٌ شَريفٌ، يَجِبُ عَلى السَّالكِ فيه أَن يكونَ عَارفاً بأَحوالِ الشَّريعةِ مُلِمَّاً بِعلمِ الفقْهِ وأُصُولِه، وقَد عَزَّ في هَذا الزَّمانِ كَثيرٌ من أَهلِ السُّلوكِ والآدَابِ.

والذِّكرُ هَو الأَسَاسُ لسَالكِ التَّصوفِ؛ إِذْ لا يَرْقَى مَراقِي التَّصوفِ إِلا ذَاكرٌ لله تعالى في الخَلْوَةِ والجَلْوَةِ، غَيرَ مُتَصَنِّعٍ بطَاعةٍ وعبادَةٍ، يكونُ سِرُّه وجَهْرُه سَواء، لأَنَّ العمَلَ لأَجلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وتَركُ العَمَلِ لأَجلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، والإِخلاصُ أَنْ يُعَافِيَكَ الله تعالى مِنهما، كَما قَال سَيدِي الفُضَيلُ بنُ عِياض[1] رَضِيَ اللهُ عنه.

---

(١) هو الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، التميمي الخراساني، شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث، ولد بسمرقند سنة(١٠٥)هـ، رحل في طلب العلم، ثم تعبد وانتقل إلى مكة، ونزلها إلى أن مات، وكان ثقة نبيلا فاضلا عابدا ورعا، كثير الحديث، وحدث عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعي، ورُويَ عن ابن المبارك أنه قال: ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض، ومن كلامه: "من عرف الناس استراح"، توفي رحمَهُ اللهُ سنة (١٨٧) هـ.[أعلام النبلاء (٨/ ٤٢١)].

وقال سيدي سفيان الثوري[١] رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: "نَحنُ في زَمانٍ يَجبُ عَلَيكَ فيه خَمسةُ أَشْيَاءَ: احْفَظْ فِيهِ لِسَانَك، وَاخْفِ مَكَانَك، وَعَالِجْ قَلْبَك، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ "[٢]. وقالَ سَيدِي الفُضَيلُ بنُ عياضٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: "نَحنُ في زَمانٍ يَصلُحُ فيه ثَلاثةُ أَشْياءَ: السُّكوتُ ومُلازَمةُ البيُوتِ، والرِّضَى بالقُوتِ إلى أَن تمُوتَ"[٣].

وفي هذا قلتُ شِعراً: [من المتقارب]

لَزِمتُ السُّكوتَ لَزِمتُ السُّكوتْ ... فَكنتُ كأَحْلَاسِ جُدرِ البُيوتْ

رَضِيتُ بِقسمتِه خَالِقِي ... فَما يَومُ إلا أَتانِي بِقُوتْ

رَزَقْنِي كَفَانِي كَسَانِي الجمِيلْ ... لَه الحمْدُ والشُّكرُ أَحيَا أَمُوتْ

وفي قَولِ سَيّدي سُفيانَ الثَّورِي قلتُ : [من المتقارب]

وَأَلزَمتُ نَفسِيَ فِي الوَقتِ ذَا ... بِخَمْسٍ حَذَارِيَ عَنِّي تَفُوتْ

خَفَاءِ المكَانِ وحِفْظِ اللِّسَانْ ... لِما قَد عَرَفتُ تَبُوعاً تَبُوتْ

أُعَالِجُ قَلبِي بِذكرِ الإِلَه ... صَبَاحَاً مَسَاءً وحَتَّى أَمُوتْ

أَدَعْ كُلَّ مَا كُنتُ مُنْكِرْ لَه ... غَيُوراً عَلى الدِّينِ أَلَّا يَفُوتْ

---

(١) هو أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة من مضر، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، ولد في الكوفة سنة (٩٧) هـ ونشأ بها ، راوده المنصور على أن يلي الحكم فأبى، وخرج من الكوفة فسكن مكة وطلبه المهدي، فتوارى، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا، سنة (١٦١)هـ. وله من الكتب "الجامع الكبير" و "الجامع الصغير" وكلاهما في الحديث، وله كتاب في "الفرائض" كان آية في الحفظ من كلامه: ما حفظت شيئا فنسيته، ولابن الجوزي كتاب في مناقبه. [الأعلام (٣/ ١٠٤)].

(٢) ذكره الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ١٨٦) ، من قول سيدنا الفضيل بن عياض رحمَهُ اللهُ.

(٣) ذكره الإمام الغزالي في الإحياء علوم الدين(٢/ ٢٢٢)، من قول سيدنا سفيان الثوري رحمَهُ اللهُ تعالى.

وصَـــلَّى إِلهـــي عَـــلى المصْـــطَفى محمَّـــدِ مَـــنْ جَـــاءَ بـــالعَنْكَبُوتْ
عَـــلى الآلِ مِنِّـــي الصَّـــلاةْ والسَّـــلامْ مَـدَى الـدَّهرِ تَـتْرَى جِهَـاراً صُـمُوتْ

❁ ❁ ❁

الكَلامُ عَلَى الذِّكر

قالَ رِجالُ التَّصَوُّفِ رِضوانُ الله تعالى عَليهِم: لِلذِّكرِ ثَمانُ خِصَالٍ وهي : **بِدَايَةٌ :** وهيَ التَّوجُه الصَّادقُ إِلى الله تعالى ، **وتَوَسُّطٌ :** وَهوَ نُورٌ طَارِقٌ ، **ونِهَايَةٌ :** وَهوَ حَالٌ خَارِقٌ ، وأَصْلٌ: وهوَ صَفَاءُ القَلْبِ السَّلِيمِ ، **وفَرْعٌ :** وهوَ الوَفَاءُ ، **وشَرْطٌ :** وهوَ الحضُورُ، **وبِسَاطٌ :** وهوَ العَمَلُ الصَّالِحُ ، **وخَاصِّيَّةٌ :** وهيَ الفَتْحُ المبينُ.

والذِّكْرُ مَنشُورُ الوِلايَةِ كَما قالَ سَيدِي الشَّيخُ محمدُ بنُ حَسَّانَ نَقلاً عنْ مَشَايخِه نفعنا الله تعالى بهم وبعُلُومهم ..آمين ، فَمنْ أَدامَ الذِّكرَ نُشِرَتْ وِلَايتُه، ومَن تَركَه انْطَوى مَنْشُورُه وزَالتْ ولَايتُه، واللهُ تعالى أَعلم.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: ١٥٢] ، وقالَ جَلَّ شأْنُه:﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[العنكبوت: ٤٥]، وقالَ سبحَانَه:﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[هود: ١١٤]، وقد وردَ في الحدِيثِ القُدُسِي: «أنا مَعَ عَبْدِي ما ذَكَرَني وَتَحَرَّكَتْ بي شَفَتاهُ» (١).

---

(١) إسناده صحيح على شرط الشيخين ، رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٦/ ٣٦٢] برقم (٣٦٣) ، وابن ماجة في سننه [٤/ ٢٦] برقم (٣٧٩٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان [١/ ٣٩١] برقم (٥١٠) ، وابن حبان [٣/ ٩٧] برقم (٨١٥) ، وأحمد في المسند [٢/ ٢٥١] برقم (٧٤١٦) ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين [٢/ ١٤٩] برقم (١٨٢٤) ، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وفي حَدِيثٍ آخرَ: «لاَ يَذْكُرُنِي عَبْدٌ فِي نَفْسِهِ إِلاَّ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ مِنْ مَلاَئِكَتِي، وَلاَ يَذْكُرُنِي فِي مَلأٍ إِلا ذَكَرْتُهُ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى» (١).

وللذَّاكرِ سِتَّةُ تَخَلُّلَاتٍ أَدبيَّةٍ معَ الله تعالى في حَالةِ الذِّكرِ وهيَ :

الأُولى : الفِكْرَةُ : وهيَ مَعرفَةُ مَعنى الذِّكرِ الذي تَذْكُرُ الله تعالى به.

الثَّانيةُ : الأَدَبُ : وهوَ أَنْ تَتَأَدَّبَ بينَ يَدَي الله تعالى بِالأَدبِ البَالغ ، لأَنكَ بينَ يَدي الملكِ الجليلِ سبحانه وتعالى .

الثَّالثةُ : الحياءُ : وهو الحياءُ ممنْ تَذكره سبحانه وتعالى.

الرَّابعةُ : حُسنُ الهيئةِ : وحُسنُ الهيئَةِ في المجْلِسِ منْ حيثُ الطَّهارةُ والنَّظَافَةُ، وأَنْ يكونَ بتمامِ الحياءِ والحشْمَةِ .

الخامسةُ : عَدَمُ التَّنَطّع: وهوَ عدمُ التَّنطع بِالطَّاعةِ أَمامَ الله تعالى.

السَّادسةُ : عَدَمُ التَّصنُّع : وهوَ عدمُ التَّصنعِ عَلى الله تعالى بما تَذكرُه به. قالَ أَبو يَزِيدَ البسطَامِي رحمهُ اللهُ تعالى: "إِنَّ الله تَعالى اختَصَّ لِخواصِ عبَادِه شَرَاباً، فإذا شَربواْ سَكِرُواْ، وإِذَا سَكِرُواْ طَابُواْ، وإِذَا طَابُواْ طَاشُواْ، وإذا طَاشُواْ طَارُواْ، وإِذَا طَارُواْ بَلغُواْ، وإِذَا بَلغُوا وصَلُواْ، وإذا وصَلُواْ اتَّصَلُواْ، وإِذا اتَّصَلُوا انْفَصَلُواْ، وإذا انفَصَلُواْ فَنَواْ، وإِذا فَنَواْ بَقَواْ، وإِذا بَقَواْ صَارُوا مُلُوكَاً، وهُمْ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ".

وقال أيضاً: "إِنَّ لله تعالى شَراباً ادَّخَرَه لأَهلِ مَعرِفتِه؛ فإذا شَرِبُواْ طَرِبواْ، وإذا طَرِبواْ قَامُواْ، وإِذا قَامُواْ عَامُواْ، وإِذا عَامُواْ طَاشُواْ، وإذا طَاشُواْ عَاشُواْ، وإِذا عَاشُواْ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [٢٠/ ١٨٢] برقم (٣٩١)، وفي كتاب الدعاء [٢/ ٥٣] برقم (٥٢٢)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ١٩] برقم (١٦٧٧٥)، عن معاذ بن أنس رضيَ اللهُ عنه، وقال إسناده حسن .

طَارُواْ، وإِذا طَارُواْ طَلَبُواْ، وإِذا طَلَبُواْ وجَدُواْ، وإِذا وجَدُوا نَزَلُواْ، وإِذا نَزَلُواْ خَلَصُواْ، وإِذا خَلَصُواْ وصَلُواْ، وإِذا وَصَلُواْ اتَّصَلُواْ، وإِذا اتَّصَلُواْ غَابُواْ، وإِذا غَابُواْ فَقَدُواْ، وإِذا فَقَدُواْ فَنَواْ، وإِذا فَنَواْ بَقَواْ "[1].

وقالَ رجالُ التصوفِ رِضْوانُ الله تعالى عليهم: "يَجِبُ عَلى المرِيدِ تَركُ الدَّعوَى"، فإِنَّهم قَالواْ: " إِذا رأَيتَ الدَّعِيّ جَائراً، فاعْلَمْ أَنَّ مَحلَّه العَجْزُ الظَّاهِر"، وقالَ بَعضُ مَشَايخنَا رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم: " إِذَا رَأَيتَ دَعِيَّاً فَاتْرُكْهُ ".

❁ ❁ ❁

(١) هذا الكلام ذكره الإمام ابن عجيبة في تفسيره "البحر المديد [٤/ ٣٣٥]"، والإمام أبو اسحاق النيسابوري في تفسيره "الكشف والبيان [٧/ ١٦٩]"، والإمام شهاب الدين محمود ابن عبدالله الحسيني الألوسي في كتابه "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني[٢٢/ ٢٣]"، والإمام الصفوري في كتابه نزهة المجالس ومنتخب النفائس [ص:٥٠]، على أنه من كلام أبي يزيد البسطامي باختلاف يسير، وذكره بكامله الشيخ النازلي في كتابه خزينة الأسرار [ص:١٦٥] على أنه من حديث النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلم، وعزاه إلى كتاب وسيلة الإجابة ولم نقف على هذا الكتاب، وبالبحث والتحقيق لا يوجد من ذكر أنه حديث سوى الشيخ النّازلي، مع العلم أنه جمع في كتابه "خزينة الأسرار" بين الأحاديث الصحيحة والحسنة والضعيفة والموضوعة، وهو كتاب أُنْتُقِدَ كثيرا في مضمونه فضلا عن أن يكون مرجعاً في الأحاديث النبوية، وإنما تؤخذ الأحاديث من مصادرها ومراجعها الأصلية لدى أهل الحديث.

ويمنعنا من القول بأنه حديث أربعة أمور:

الأول: عدم وجوده في كتب التخريج للأحاديث النبوية.

الثاني: أن من ذكر أنه من كلام أبي يزيد البسطامي أكثر وأرجح وأوثق ممن ذكر أنه حديث نبوي.

الثالث: وجود بعض علامات الحديث الموضوع فيه ؛ من ركاكة اللفظ ، وعدم وجوده في بطون كتب الحديث المعتبرة.

الرابع: ما صح عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم أنه قال : «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»، وفي رواية: «... يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ...» بفتح الياء.

حُسْنُ الصُّحبَة

التَّصَوفُ مَبْنِيٌّ على حُسْنِ الصُّحبَةِ للشَّيخِ المُرَبِّي الذِي تَجتَمعُ فِيه خَمْسُ فَوائدَ ، وهيَ مَا جمعَهَا بَعضُهمْ فِي هَذِه الأَبيَاتِ : [من الطويل]

إِذَا لمْ تَكُنْ فِي الشَّيخِ خَمسُ فَوائدٍ ... وَإِلا فَدَجَّالٌ يَقُودُ إِلى الجَهْلِ

عَلِيمٌ بِأَحْوَالِ الشَّرِيعَةِ عَارِفٌ ... ويَبْحَثُ عَنْ عِلْمِ الحقِيقَةِ عَنْ أَصْلِ

يُبَادِرُ لِلْوُرَّادِ بالبِشْرِ والقِرَى ... ويَخْضَعُ لِلْمِسْكِينِ بالقَولِ والفِعْلِ

يُهَذِّبُ طُلَّابَ الطَّرِيقِ ونفْسُه ... مهَذَّبَةٌ مِنْ قبلِ ذُو كَرَمٍ كُلِّي

فَهَذَا هُو الشَّيخُ المعَظَّمُ قَدْرُه ... جَدِيرٌ بِتَبْيِينِ الحَرامِ مِنَ الحِلِّ (١)

ولَعَمْرِي لَقَدْ عَزَّ فِي هَذا الزَّمانِ ، فأَصبحَ الحصُولُ على الشَّيخِ المرَبِّي كَمَنْجَمِ الكبرِيتِ الأَحمرِ في الجَبَلِ الوَعِرِ ، وأَمَّا اصْطِحَابُ الرَّفِيقِ في هَذا الطَّرِيقِ ، فمنَ الوَاجبِ إِذَا كانَ المرِيدُ ذَا عَقْلٍ ونَبَاهَةٍ أَنْ يَنْتَخِبَ لَه الصَّاحِبَ الذِي في صُحْبَتِهِ خيرٌ ، وأَنْ يَكونَ صَالِحاً ولَو منْ بعضِ الوُجوهِ ، إِذِ الصَّلاحُ الكَامِلُ عَزِيزُ الوُجُودِ في هَذا الزَّمانِ ، وقَد وردَ في الحديثِ عنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم أنه قال: «لا تَصْحَبْ إِلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلا تَقِيٌّ»(٢) .

---

(١) هذه الأبيات للشيخ عبد القادر الجيلاني رحِمَهُ اللهُ تعالى، كما في الموسوعة اليوسفية ، ص : (٣٨٨) .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٣/ ٢٧٧] برقم (٣١٣٦)، والدارمي في سننه [٢/ ١٤٠] برقم (٢٠٥٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان [٧/ ٤٢] برقم: (٩٣٨٢) ، وابن حبان في صحيحة [٢/ ٣١٥] برقم: (٥٥٥) ، وأبو يعلى في مسنده برقم: (١٣١٥)، والإمام أحمد في مسنده [٣/ ٣٨] برقم : (١١٣٥٥) ، والحاكم في المستدرك [٤ / ١٤٣] برقم (٧١٦٩) ، عن أبي سعيد الخدري رضيَ اللهُ عنه ، وقال الحاكم : هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «المْرءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مِنْ يُخَالِلْ»[١]، لأَنَّ النفسَ الأَمَّارَةَ بالسُّوءِ مَجبُولَةٌ على الاقْتِداءِ بالمُجَالِسِ والصَّاحِبِ غَالباً . وقَد قِيلَ شِعْرَاً : [من الطويل]

إذا كنتَ في قَومٍ فَصَاحِب خَيارَهُم ولا تَصحَبِ الأَردَأْ فَتَردَى مَعَ الرَّدي
عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وسَل عَن قَرينِه فكُلُّ قَرينٍ بالمُقارَنِ يَقتَدي[٢]

وقالَ سَيدُنا عليٌّ بنُ أَبي طَالِبٍ كرَّمَ اللهُ تعالى وجْهَهُ ورَضيَ عنه : [من الهزج]

وَلا تَصحَبْ أَخا الجَهلِ وَإِيّاكَ وَإِيّاهُ
فَكَم مِن جاهِلٍ أَردى حَليماً حينَ آخاهُ
يُقاسُ المَرءُ بِالمَرءِ إِذا ما هُوَ ماشاهُ
وَلِلقَلبِ عَلى القَلبِ دَليلٌ حينَ يَلقاهُ
وَلِلشَكلِ عَلى الشَكلِ مَقاييسٌ وَأَشباهُ
وَفي العَينِ غِناً لِلعَينِ أَن تَنطِقَ أَفواهُ[٣]

وقال سيدُنَا عبدُالله بن علوي الحدَّاد رَضِيَ اللهُ تعالى عنه ونفعنا به: [من البسيط]

احْذَرْ مُصَاحَبَةَ الأَشْرَارِ والحمْقَى والحَاسِدينَ ومنْ يَلْوِي عَلى الشَّغَبِ[٤]

وقالَ حُجَّةُ الإِسلامِ الغَزالي رَضِيَ اللهُ تعالى عنه:" إِذا طَلَبتَ رفيقاً يَكونُ شَرِيكَكَ في التَّعليمِ وصَاحِبَكَ في أَمرِ دِينكَ ودُنيَاكَ، فرَاعِ فيه خَمسَ خِصَالٍ : **الأُولَى :**

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان [٧/ ٥٥] برقم (٩٤٣٦)، ورواه الإمام أحمد في مسنده [١٣/ ٣٩٨] برقم (٨٠٢٨)، والحاكم في المستدرك برقم(٧٣٢٠) ، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ عنه وقال: حديث صحيح.

(٢) البيتان لعدي بن زيد وهما في ديوانه، ص: (٤٤)، في قصيدة طويلة مليئة بدرر الحكم وبدائع الفوائد.

(٣) الأبيات في ديوانه رضيَ اللهُ تعالى عنه ، ص : (١٤٠) .

(٤) البيت في ديوانه رحمَهُ اللهُ تعالى ، ص : (٨٣) .

العَقْلُ. **الثَّانِيةُ :** حُسْنُ الخلُقِ ، فلا تَصحَبْ منْ سَاءَ خُلُقُه ، وهوَ الذي لا يَمْلِكُ نفسَه عندَ الغَضَبِ والشَّهْوَةِ، **الثَّالثةُ:** الصَّلاحُ ، فلا تَصْحَبْ فَاسِقاً مُصِرَّاً على مَعصِيةٍ كَبِيرَةٍ أَو صغيرَةٍ ، **الرَّابعَةُ:** لا تَصْحَب حَرِيصَاً ، **الخَامِسَةُ:** الصِّدقُ ، فلا تَصحَبْ كذَّاباً ، فإِنَّكَ منه على غُرُورٍ فإِنَّه مِثْلُ السَّرَابِ يُقَرِّبُ منكَ البعيدَ ويُبَعِّدُ عنكَ القَرِيبَ .

وقال: النَّاسُ ثَلاثةٌ: **أَحدُهم:** مَثَلُه مِثْلُ الغِذَاءِ لا يُستغنى عنه ، **والآخرُ:** مَثَلُه مِثْلُ الدَّواءِ يُحتَاجُ إِليه فِي وقتٍ دُونَ وقتٍ، **والآخرُ:** مَثَلُه مِثْلُ الدَّاءِ لَا يُحتَاجُ إِليه قَطُّ ، ولكنَّ العَبدَ قدْ يُبتَلى به ، وهوَ الذي لا أُنسَ فيه ولَا نفعَ ، فتَجِبُ مُدَارَاتُه إِلى الخَلاصِ منه ، وفِي مُشَاهَدَتِه فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ إِنْ وُفِّقْتَ لها ، وهيَ أَنْ تُشَاهِدَ منْ خَبائِثِه وخَبَائِثِ أَحوالِه وأَفعالِه ما تَسْتَقْبِحُه منه فَتَجْتَنِبَه ، فالسَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيرِه " انتهى مُلَخَّصاً. (١)

ولَعَمْرِي إِنَّ هذا الزَّمَانَ لَزَمَانُ الهرَجِ والمرَجِ الذِي لا يَأْمَنُ فيه الرَّجُلُ جَلِيسَه، كَما عُلِمَ منَ الكَلامِ الذِي تَقَدَّمَ ذِكْرِه . ورِحِمَ الله تعالى القَائلَ : [من الطويل]

وَمَا زِلْتُ مُذْ لَاحَ المشِيبُ بِمفْرَقِي ... أُفَتِّشُ عن هَذا الوَرى وأُكَشِّفُ
فَما أَنْ عَرفْتُ النَّاسَ إِلا ذَممْتُهم ... جَزَى الله خيراً كلَّ منْ لَسْتُ أَعرِفُ
ومَا لِيَ ذَنْبٌ أَسْتَحِقُّ بِه الجَفَا ... سِوَى أَنَّنِي أَحْبَبْتُ مَنْ لَيسَ يُنْصِفُ (٢)

وقَالَ آخَرُ : [من الطويل]

جَزَى اللهُ خَيراً كُلَّ منْ لَيسَ بَينَنا ... ولَا بَينَه وُدٌ ولا نَتَعَارَفُ (٣)
فَما صَابَنَا هَمٌ ولا نَالَنَا أَذَىً ... مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ نَوَدُّ وَنَعْرِفُ

---

(١) انظر بداية الهداية ، ص: (٢٣) .

(٢) الأبيات لم أعثر على قائلها ، وقد ذكرها نور الدين اليوسي في كتابه " المحاضرات " ص: (٢١٨) .

(٣) لم أعثر على قائلهما أيضا ، وهما في كتاب " زهر الأكم في الأمثال والحكم " لليوسي ، ص : (٥٩٩) .

وكَأَنَّنِي بِلائمٍ يَلُومُني بما أَورَدتُ في هَذا البَحثِ ، لِكَوني مِنْ أَبناءِ هذا الزَّمانِ ، وإِني لَسْتُ بِسَالمٍ منْ هَذِه الخصَالِ ، وإِنِّي مُشَارِكٌ لأَهْلِ هذا الوَقْتِ في قَبِيحِ الفِعَالِ ، وأَنْ لَيسَ لِي إِلا القَلْقَلَةُ فِي الأَفعَالِ..!.

فأَقولُ لَيسَ قَولِي فِي هَذا المبْحَثِ منْ بَابِ تَزْكِيَةِ النَّفسِ معَ إِعَابةِ غيرِي ، كيفَ والنَّفسُ هيَ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ، ولكنْ منْ بابِ تَوبِيخِهَا عَلى الأُمورِ التِي لا يَسْلمُ منْها إِلا القَلِيلُ، ومن بابِ رُؤيةِ تَقصيرِهَا، فَنقُولُ ما قَالَه الله تَعَالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣]، ونقول أيضاً ما قاله ربنا سبحانه وتعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، ولقدْ ابْتُلِينَا بِزَمانٍ عَزَّ فيه الصِّدقُ وقَلَّ فيه الوَفاءُ، وصَارَ كُلٌّ مَشْغُولاً بِعيبِ أَخيه غَافِلاً عَن عُيوبِ نفسِه.

ورَحِمَ الله الفَقِيهَ الأَدِيبَ أَحمدَ بنَ عمرَ باذِيب الحضرمي[1] حيث قال: [من البسيط]

إِني أَرَى نَاسَ هَذا الدَّهرِ أَغلَبهُم ... كالمعْزِ فافْهَمْ منَ المعْزِ التَّماثِيلا

كلٌّ تَراه عَمِيَّاً عنْ مَعَايِبِه ... وبِانتِقَادِ عيوبِ النَّاسِ مَشْغُولا

عزَّ الوَفاءُ وقَلَّ الصِّدقُ بَينَهمُ ... والحقُّ أَصبحَ مَتْروكاً ومَجْهُولا

شَعَائرُ الدِّينِ أَضْحَتْ بَينَهم هُزُؤاً ... حتَّى لَقد عُدَّ أَهْلُوهُ مَهَابِيلَا[2]

وقُلْتُ مُذَيِّلَا لها أَيضاً : [من البسيط]

ظَنُّواْ الظُّنونَ بأَهلِ العِلْمِ ويحَهُمُ ... والظَّنُّ أَغلَبُه إِثماً وتَضْلِيلَا

---

(١) هو الشيخ الفقيه أحمد بن عمر بن سالم ، باذيب ، الحضرمي ، الكندي ، الشافعي ، شاعر وأديب ولد بمدينة شبام سنة (١٢١١) هـ ، ونشأ بها ،أخذ عن كثير من شيوخ عصره في شبام وتريم وسيئون ، وله ديوان من مزيج القصائد ، وله قصيدة طويلة في هجاء الإنجليز ترجمت للإنجليزية وانتشرت بينهم ، فمات بعدها مسموما ولعلهم سموه ، في سنة (١٢٨٠) هـ . [تاريخ الشعراء الحضرميين (٤/ ٢٢)] .

(٢) لم أقف على ديوانه. و الأبيات في كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين (٤/ ٢٧) .

مـــــا ذَاكَ إِلا أَرَادَ اللهُ شِـــــقْوَتَهمْ ... قـــدْ أَنـــزلَ اللهُ في الغِيبَـــاتِ تَنْـــزِيلَا
لَا تَـــأْكُلَنْ لَحْـــمَ أُخ مَيـــتٍ اسْـــمَعْنِي ... أَهـــدِيكَ لِلحَـــقِّ تَفْسِـــيرَاً وتَـــأْوِيلَا
مَـا بَـالُ أَكْلِك لحـمَ العِلْـمِ عـن كَـذِبٍ ... أَتـــى إِليـــكَ مـــنَ الكَـــذَّابِ تَعْلِـــيلَا
قَصْـدُ التَّفَـرُّقِ في الأَحبـابِ عـنْ جَـدَرٍ ... أُكْذُوبَـــةٌ حَاكَهَـــا بعـــضُ المخَـــاذِيلَا
رَمَـــاهُمُ اللهُ مـــنْ حَـــاكُواْ كَـــذَائبَهمْ ... بـــالفَقْرِ والـــذُّلِّ فاسْـــمَعْهَا تَفَاصِـــيلا
يَـــا هَـــاجِرينَ لِـــذكرِ الله ومَجلِسِـــه ... مـــاذا رَأَيـــتُمْ بِهجْـــرِ الـــذِّكرِ مـــنْ قِـــيلَا
أَنـــتُم مخَـــادِيعُ مـــعْ مَـــنْ جَـــاءَ يَخْـــدَعُكُمْ ... زُورَاً وتَسْـــــويفَ بُهتَانـــــاً وتَخْيِـــــيلَا
أَقُـــولُ هَـــذا ولا فُقْـــداً لِغَيبَـــتِكُمْ ... مَهْـــمَا بَعُـــدتُم حَمَـــدْنَا اللهَ تَـــرْتِيلاً
وزَادَنـــــا شَرَفَـــــاً رَبِّي بِخِدْمَتِـــــه ... لَـــيلاً نَهَـــاراً تَسَـــابِيحاً وتَهلِـــيلا
مَـــنْ كَـــانَ بـــالله لا يَخْـــتَشِي أحـــداً ... اللهُ أَكـــــبُرُ جَـــــلَّ اللهُ تَفْضِـــــيلَا

وأَمَّا التَّعاونُ على فعلِ الخيرِ فَمِنْ أَعظَمِ الأَسْبَابِ المجْلِبةِ لِخيرِ الأُمَّةِ الجَالِبةِ لِكُلِّ غَنِيمَةٍ، وقَد أَمرَ بَها الحقُّ سُبحانَه وتَعالى فقَالَ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾[المائدة: ٢] ، وقالَ اللهُ تبارك وتعالى : ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر: ١ - ٣].

وقد قالَ إِمَامُنا الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه : " إِنَّ النَّاسَ أَو أَكثَرَهُم فِي غَفْلَةٍ عنْ تَدَبُّرِ هَذِه الآيةِ "[1] ، فتَعاونُ النَّاسِ عَلى أَمرٍ يعدُّ منَ الأَسْبَابِ الميَسِّرَةِ لَه ، لا سِيَما فِي أُمورِ الخيرِ من إِظهارِ شَعَائرِ الدِّينِ ، وإِزالَةِ المنكراتِ المأْلُوفَةِ ، وغيرِ ذَلكَ منْ كُلِّ مَا يُطْلَبُ إِقَامَتُه أَو إِزَالَته، قالَ سَيدِي القُطْبُ عبدُ الله بن علوي الحداد: [من الطويل]

---

(١) انظر رياض الصالحين للإمام النووي، ص: (١٤٢)، وذكر ذلك الحافظ عماد الدين ابن كثير في تفسير القرآن العظيم [٢/ ٧٩] ، بلفظ: " لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم " .

مُظَـــاهَرةُ الإِخـــوَانِ أَمْـــرٌ مُقَـــرَّرٌ عَليـه يَـدُورُ الشَّـأْنُ فَاسْـتَوصِ بالخِـلِّ [١]

والإِعَانَةُ عَلى المعَاصِي شَرٌّ لِلْمُعِينِ، بَلْ هـوَ مَـوْزُورٌ وِزْرَ المعَـانِ عَليـه ، لِمـا وردَ في القرآنِ العَزيزِ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[المائدة: ٢]، أَيْ لا يُعِنْ بَعضُكم بَعضاً علي فعلِ إِثمٍ أَو عُدْوَانٍ ، وهوَ الظُّلمُ ومُجاوزَةُ الحدِّ فيه ، وقدْ قالَ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم: « مَنْ أَعَانَ عَلى مَعْصِيَةٍ ولَو بِشَطْرِ كَلِمَةٍ كَانَ شَرِيكاً لَه فِيهَا » [٢]. وقالَ صلى الله عليه وآله وسلم: « مَنْ دَعا إلى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيْئاً»[٣] . ومن الإِعانةِ على المعَاصِي دِلَالَةُ كُلِّ ظالمٍ على الظُّلْمِ ، ومنها تَعْلِيمُ الفَقِيهِ المبْطِلِ المسَائلَ في دَعْوَاهُ لِيَحْتَجَّ بِها على بَاطِلٍ تَوَصُّلاً لِأَخذِ أَمْوالِ النَّاسِ بالبَاطلِ ، فإِنَّ ذلكَ يعدُّ إِعانةً على المعصِيَةِ وهَذا هوَ الفقيهُ الضَّارُّ .

نَسأَلُ الله تعالى السَّلامَةَ من عَذابِ الجبَّارِ ونعوذُ بالله جلَّ وعلا من عِلمٍ لا يَنفعُ ومن قَلبٍ لا يَخشَعُ ، ومنها دِلَالةُ المسْلِمينَ على عَورَاتِ بعضِهِم بَعضاً ، وذِكرُ عيبِ أَحدِهم لِيُحْتَقرَ ويُؤْذَى لا على سَبيلِ التَّحذيرِ ، فهذِه كلُّها إِعانَةٌ على معَاصي الله تعالى ، فيَنْبَغِي التَّنَبُّهُ والاجْتِنَابُ من هذِه الأُمورِ ، والله يهدِي منْ يشَاءُ إِلى سَواءِ السَّبيلِ.

---

(١) انظر ديوان الإمام الحداد ، ص: (٣٩٨) .

(٢) لم أجد تخريجه بهذا اللفظ في كتب التخريج ، والمعروف في كتب الحديث قوله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : « مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ عَلَى جَبْهَتِهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ الله»، رواه البيهقي في السنن الكبرى [٨/ ٢٢] برقم (١٦٢٨٨)، وفي شعب الإيمان [٤/ ٣٤٦]برقم (٥٣٤٦)، وأبو يعلى في مسنده برقم(٥٩٠٠)، وروى البيهقي في شعب الإيمان [٦/ ١٢٢] برقم(٧٦٧٦). والحاكم في المستدرك [٦/ ٦١] برقم (٧٠٥١) عن ابن عمر رضيَ اللهُ عنهما قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم: «مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ الله حَتَّى يَنْزِعَ»، قال: صحيح الإسناد.

(٣) حديث صحيح، رواه مسلم برقم (٢٦٧٤) والترمذي في الجامع الصحيح [٥/ ٢٥] برقم (٢٦٧٤)، ومالك في الموطأ برقم(٥٠٩) ، وأبو داود في سننه برقم (٤٦١١)، ورواه أحمد برقم (٩١٦٠).

حقوق المسلم على المسلم

واعلَمْ أَنَّ للمسْلمِ عَلى أَخيه المسلمِ ثَلاثينَ حقاً، رَوَى صاحبُ كتَابِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ في بابِ قَضَاءِ حَوائجِ المسْلمينَ، عنْ أَميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أَبي طَالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه وكرَّم وجهَهُ قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «لِلْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ثَلَاثُونَ حَقًّا لَا بَرَاءَةَ لَهُ مِنْهَا إِلَّا بِالْأَدَاءِ أَوْ الْعَفْوِ : يَغْفِرُ زَلَّتَهُ ، ويَقْبَلُ هديَّته ، وَيَرْحَمُ عَبْرَتَهُ ، وَيَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ، وَيُقِيلُ عَثْرَتَهُ ، وَيَقْبَلُ مَعْذِرَتَهُ ، وَيَرُدُّ غَيْبَتَهُ ، وَيُدِيمُ نَصِيحَتَهُ ، وَيَحْفَظُ خُلَّتَهُ ، وَيَرْعَى ذِمَّتَهُ ، وَيَعُودُ مَرضَتَهُ ، وَيَشْهَدُ مَنِيَّتَهُ ، وَيُجِيبُ دَعْوَتَهُ ، وَيُكَافِئُ صِلَتَهُ ، وَيَشْكُرُ نِعْمَتَهُ ، وَيُحْسِنُ نُصْرَتَهُ ، وَيَحْفَظُ حَلِيلَتَهُ ، وَيَقْضِي حَاجَتَهُ ، وَيَشْفَعُ مَسْأَلَتَهُ ، وَيَقبَلُ شَفَاعته ، ولَا يُخَيِّبُ مَقْصَدَه ، وَيُشَمِّتُ عَطْسَتَهُ ، وَيُرْشِدُ ضَالَّتَهُ ، وَيَرُدُّ سَلَامَهُ ، وَيُطَيِّبُ كَلَامَهُ ، وَيَبَرُّ إِنْعَامَهُ ، وَيُصَدِّقُ إِقْسَامَهُ ، وَيَنْصُرُهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ، وَيُوَالِيهِ وَلَا يُعَادِيهِ ، ويُسَلِّمُه منْ أَذَاه ، ولا يَخذُله ، وَيُحِبُّ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُ مِنْ الشَّرِّ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَدَعُ مِنْ حُقُوقِ أَخِيهِ شَيْئًا حَتَّى الْعَطْسَةَ، يَدَعُ تَشْمِيتَهُ عَلَيْهَا، فَيُطَالِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقْضَى لَهُ بِهَا عَلَيْهِ »[1].اهـ

(١) ذكره الدميري في كتابه [حياة الحيوان الكبرى (٢/ ٢٢)] بهذا اللفظ وعزاه إلى كتاب الترغيب والترهيب ، ولم أجده في النسخة التي بين يدي من كتاب الترغيب ، وقد ذكره الحافظ المناوي في فيض القدير[٣/ ٣٩٠] برقم (٣٧٣٦) وعزاه إلى كتاب روضة الأفكار للأصفهاني ، وهو في كتاب البدر المنير لابن الملقن [٩/ ٥٠] ، وفي كتاب تنزيه الشريعة المرفوعة لأبو الحسن الكناني [٢/ ٣٠٩] . وله شاهد على بعضه في صحيح البخاري (١٢٤٠) قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ رَدُّ السَّلَامِ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ». وقوله: «وينصره ظالما» أي ينصره بمنعه من الظلم كما جاء بيان ذلك في صحيح الأحاديث النبوية.

آدابُ التَّصَوُّف

لِلتَّصوفِ آدابٌ يجبُ أَن يَتَحَلَّى بها كُلُّ مُريدٍ لسلوكِ طَريقِ التَّصوفِ، قال سيدي الشيخ أبو حفص[١] رَضِيَ اللهُ عنه: "التَّصوفُ كلُّه آدابٌ لِكُلِّ وقتٍ أَدَبٌ، ولِكُلِّ حَالٍ أَدَبٌ، ولكلِّ مقامٍ أَدَبٌ، فمنْ لَزِمَ أَدَبَ الأَوقاتِ بَلغَ مَبْلَغَ الرِّجالِ، ومنْ ضَيَّعَ الآدابَ فهوَ بعيدٌ منْ حيثُ يَظُنُّ القُرْبَ مَرْدُودٌ من حيثُ يَظُنُّ القَبُولَ فَأَدبُ الظَّاهرِ عنوانُ أَدَبِ البَاطنِ"[٢]. وقالَ بَعضُ المشَايخِ: "اجْعَلْ أَدَبَكَ دَقِيقاً وَعِلمَكَ مِلْحاً"[٣]، ومنْ فَضيلَةِ الآدابِ أَنها تُلحِقُ منْ لا نسبَ لَه بِذَوِي الأَنسَابِ، وتُصَيِّرُ الوَضِيعَ شَرِيفاً والدَّنِيَّ رَفِيعاً، ولِذلكَ قِيلَ: "منْ تَحبِسْه الآدَابُ الدَّنِيَّةُ تُطْلِقْه الآدَابُ المْرْضِيَّةُ"، أَي: منْ يَحبسْه عنِ الارْتِفاعِ معَ الكُبَرَاءِ نَسَبُه الوَضِيعُ يُطْلِقْه إِلى طلبِ العُلُوِّ أَدَبُه الرَّفيعُ قالَ بعضُ المشَايخِ: [من الرجز]

---

(١) هو الإمام أبو حفص شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد الله، القرشي التيمي البكري السهروردي، فقيه شافعي، مفسر وواعظ، من كبار علماء الصوفية. ولد في "سهرورد" سنة (٥٣٩) هـ، كان شيخ الشيوخ ببغداد، صالحاً ورعاً كثير الاجتهاد في العبادة، له كتب كثيرة، ومن أجلها "عوارف المعارف"، وكان له مجلس وعظ يتكلم فيه بكلام مفيد، ويحضره الجم الغفير. وحصل له قبول تام، وقصد من الأفاق، واشتهر اسمه، وتاب على يده خلق كثير، وصار له أتباع كالنجوم، وكان كثير الحج، مليح الخلْق والخلُق، متواضعاً جامعاً للمكارم. ما للمال عنده قدر، لو حصل منه على ألوف فرقها. ومات ولم يخلف كفناً، ولا شيئاً من أسباب الدنيا، أقعد في آخر عمره، فكان يُحمل إلى الجامع في محفة، والحج كذلك، وما أخل بأوراده إلى أن دخل في عشر المئة، وعجز وضعف، فانقطع في منزله إلى أن مات رحمَهُ اللهُ تعالى، سنة (٦٣٢) هـ، ببغداد.[طبقات الأولياء ص: ٤٤، الأعلام (٥/ ٦٢)].

(٢) انظر كتاب إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: ٨٢).

(٣) العبارة قالها الإمام مالك للإمام الشافعي رحمهما الله تعالى، انظر كتاب العهود المحمدية [١/ ٢٦٦].

فَـــالقَومُ بِـــالآدَابِ حَقَّـــاً سَـــادُواْ مِنْـــهُ اسْـــتَفَادَ القَـــومُ مَـــا اسْـــتَفَادُواْ[1]

أَيْ ؛ مَا سَادَ القَومُ وشُرِّفُواْ إِلا بـالأَدَبِ مـعَ الله تعـالى ، ومـعَ رسـولِ الله صَـلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، ومعَ أَشياخِهم ، ومعَ سَائرِ المسْلِمينَ، وقـال سَـيدِي الشَّـيخُ زَرُّوقُ: "كُلُّ نِسْبَةٍ لَا أَدَبَ فِيهَا فَصَاحِبُهَا كَذَّابٌ "، لأَنَّ عُنْوَانَ الصِّدقِ وجـودُ المرَاقبـةِ، وإِنْ كَانتِ الغَفْلَةُ معَ حِفْظِ الأَصْلِ غيرَ قَادِحَةٍ. وقال بعضُ المشَايخِ: "إنـما كـانَ الأَدَبُ سَنَداً لِلفقيرِ أَي مُعْتَمَدَاً عَليه ويَرْتفعُ به إِلى مَقامِ الأَكابرِ دِيناً ودُنيا، لأَنَّ القُلوبَ مجبولَـةٌ على حُبِّ أَهلِ الإِحسَانِ والتَّواضُعِ والحِلْمِ، فإِن أراد اللُّحُـوقَ بأَكَـابرِ الـدِّينِ كَـانَ أَدَبُـه مَعَهُم سَبَباً فِي التِحَاقِه بِهم، وإِن أَرادَ اللُّحُوقَ بأَكابرِ أَهلِ الدُّنيَا كانَ أَدَبُه مَعَهـمْ سَـبباً فِي لُحوقِه بِهم، لأَنَّ القُلوبَ مجبولَةٌ على حُبِّ أَهلِ الإِحسَانِ.

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ فِي الأَدَبِ مَعَ الله تَعَالَى

أَدبُ العَوَامِ معَ الله تعالى بامْتثَالِ أَمرِه واجتنَابِ نَهيه والاسْتِسْلَامِ لِقَهْرِه .

وأَدَبُ الخوَاصِ معَ الله تعالى بالإِكثَارِ من ذِكْـرِه ومُرَاقبـةِ حُضُـورِه وإِيثَـارِ محبَّتِـه ، وزَادَ الشَّيخُ زروق: حِفظُ الحدُودِ والوَفاءُ بالعُهُودِ ، والتَّعَلُّقُ بالملكِ الوَدُودِ ، والـرِّضَى بالموجُودِ وبذْلُ الطَّاقةِ والمجْهُودِ .

وأَدَبُ خَوَاصِّ الخوَاصِ يكونُ معَ الله تعالى بالتَّواضُعِ معه فِي كُلِّ شيءٍ والتَّعظِيمِ لِكُلِّ شيءٍ ودَوَامِ مَعْرِفَتِه فِي تَجَلِّياتِ الجَلالِ والجَمَالِ .

❁ ❁ ❁

(١) لم أعثر على قائله، ذكره ابن عجيبة في إيقاظ الهمم(ص: ١٥٨)، وعزاه إلى كتاب المباحث الأصلية.

فَصْلٌ فِي الأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ

فَأَدَبُ العَوَامِ معه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بِاتِّبَاعِ سُنَّتِه ومَحَبَّتِه ومُجَانَبةِ أَهلِ البِدْعَةِ والضَّلالِ. **وَأَدَبُ الخوَاصِ** معهُ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بِإِيثَارِ محبتِه والاهْتِداءِ بهدْيِهِ والتَّخَلُّقِ بأَخْلاقِه ، فإذا قَصَّرُواْ في ذِكرِه أَو جَالتْ قُلوبُهم في غَيرِ حَضْرَتِه أَو مَالتْ مَحبتُهم إِلى شَيءٍ سِوَاه أَو قَصَّرواْ في شَيءٍ مما تَقَدَّمَ ، أَو حَلُّواْ عُقْدَةً عَقَدُوهَا معَ الله تعالى عُوقِبُواْ في الحِسِّ أَو فِي المعْنَى وهوَ أَشَدُّ.

وأَدَبُ خَوَاصِّ الخوَاصِ معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالتَّحقُّقِ بحُبِّه وتَعْظِيمِ أُمَّتِه، وشُهُودِ نُورِه ، فإذا قَصَّرَ العَارفُ فيما تَقَدَّمَ في حَقِّه، أَو في حَقِّ غيرِه منَ الآدَابِ عُوقبَ في الحِسِّ أَو في المعْنَى، والغَالبُ تَيَقُّظُه في الحِينِ فَيَسْتَدْرِكُ مَا فاتَ، فلقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[الأعراف: ٢٠١].

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ فِي الأَدَبِ مَعَ الوَقْتِ

أَدَبُ الأَوقَاتِ تَعمِيرُهَا بالطَّاعَاتِ، قالَ سَيِّدِي الشَّيخُ أَبو العَبَّاسِ المرْسِي[(١)]: " أَوقَاتُ العَبدِ أَرْبَعَةٌ : وَقتُ الطَّاعَةِ ، وَوَقْتُ المعْصِيةِ ، وَوَقتُ النِّعمَةِ ، وَوَقتُ البَلِيَّةِ ، فَوَقْتُ

(١) هو الإمام العالم الزاهد الكبير العارف بالله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد، الأنصاري، المرسي السكندري، وارث الشيخ أبي الحسن الشاذلي تصوفاً، الأشعري معتقداً، ولد سنة (٦١٦)هـ ، كان صاحب فضيلة وله كرامات وأحوال مشهورة، وللناس فيه ظن حسن لا سيما أهل إسكندرية، وقد شاع ذكره وبَعُد صيته، واشتهر بالصلاح والزهد، قال ابن عرام سبط الشاذلي: لولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة، ثم قال: كان من جملة الشهود بالثغر، وقد توفي رحمَهُ اللهُ بالإسكندرية، في سنة (٦٨٦)هـ [المنهل الصافي (١/ ٨٩)] .

الطَّاعَةِ مُقْتَضَى الحقِّ منكَ شُهُودُ المنةِ، وَوَقتُ المعْصِيَةِ مُقْتَضَى الحقِّ منكَ تَحقِيقُ التَّوبةِ ، وَوَقتُ النِّعمَةِ مُقْتَضَى الحقِّ منكَ الشُّكرُ ، وَوَقتُ البَلِيَّةِ مُقْتَضَى الحقِّ منكَ الصَّبرُ "[1] ، فإذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام.

❁ ❁ ❁

فَصْلٌ فِي أَدَبِ المرِيدِ مَعَ شَيخِه

قالَ بعضُ العَارِفينَ : [من البسيط]

مَا حُرْمَةُ الشَّيخِ إلا حُرْمَةُ الله ... فَقُمْ بِهَا أَدَباً لله بِالله

هُمُ الأَدِلاءُ والقُرْبَى تُؤَيِّدُهُم ... عَلى الدِّلالَةِ تأييداً مِنَ الله

الوَارثُونَ هُمُ لِلرسْلِ أَجمعِهِم ... فَما حَدِيثُهمُ إلا عنِ الله

كالأنبياءِ تَرَاهُم فِي محَارِبِهم ... لا يَسْأَلونَ مِنَ الله سِوَى الله

فَإِنْ بَدا مِنهُمُ حَالَ تَوَلُّهِم ... عَنِ الشَّرِيعةِ فاترُكْهمْ معَ الله

لا تَتَّبعْهُمْ ولَا تَسْلُكْ لهمْ أَثَراً ... فَإِنَّهمْ ذَاهِلونَ العَقْلَ في الله

لا تَقْتَدِي بالذِي زَالتْ شَرِيعَتُه ... عنه ولَو جَاءَ بِالأَنبا عَنِ الله[2]

وإذا قَصَدَ المرِيدُ زِيَارَةَ شَيخِه فَلا يَدْخُلُ عَلَيه إلا مُتَطَهِّراً إِنْ تَسَهَّلَ لَه وجُودُ الماءِ، ويَعْتَقِدُ كَمالَ ولايتِه ، ولَا يَدْخُلُ مُخْتَبِراً فَيُحْرَمَ بَرَكَتَهُ ، لِأَنَّ مِنْ قَصَدَ الأَولِياءَ بالميزَانِ يَنْظُرَ مَا هُمْ عَليهِ فَلا يَنَالُ إلا الحِرْمَانَ ، ومن أَتاهُم بالتَّعظِيمِ وحُسْنِ الاعْتِقَادِ نَالَ مِنَ

---

(١) انظر كتاب إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: ٢١٠) ، وتفسير روح البيان [١/ ١٩٥].

(٢) الأبيات لم أعثر على قائلها ، ذكرها ابن عربي في كتابه " الفتوحات المكية " [٣/ ٣٢٠] مُصدراً بها أحد الأبواب من غير أن يعزوها لأحد ، ولعلها من نظمه وقد نسبها له بعضهم ، والله تعالى أعلم .

الله تعالى كَمالَ المحَبَّةِ وحُسْنِ الوِدَادِ ، ويَنْعَزِلُ أَيضاً عنْ عِلمِه وعَمَلِه ؛ فَيرْجِعُ إِلى علمِ شَيخِه فيما يُشيرُ عليه، ولا يَدَّعِي عِلْماً ولا عملاً، ولا يَرى من أَحوالِه وأَعمالِه شيئاً، بلْ يَرى عِلْمَ شَيخِه أَكْملَ من عِلْمِه، وأَنه مُفْتَقِرٌ إِليه، وإِن كَان أَعلى منه في الظَّاهرِ، ويَرى عَمَلَ شَيخِه أَوفَى منْ عَمَلِه، لأَنَّ أَعمالَ الشَّيخِ مُعْتَبرَةٌ بالحقَائقِ، وهيَ باطِنِيَّةٌ قَلبيةٌ فيَحمِلُها عَلى أَكملِ الوُجوه وأَتمِّها، فَيشْرَبُ من شَيْخِه على قَدْرِ اعتِقَادِه، ويَأْخذُ منْ مَدَدِه على قَدْرِ صِدْقِه ، وإِذا كَانَ المرِيدُ معَ جمعٍ منَ الإِخوانِ وقَرَبُواْ منْ مَنْزِلِ الشَّيخِ رَفَعُواْ أَصْوَاتَهم بالذِّكرِ فلا يَزَالونَ كذلكَ حتَّى يَصِلواْ إِلى الزَّاوِيةِ ، ثُمَّ يَنْتَظِرُواْ الشَّيخَ منْ غيرِ نِدَاءٍ عليه ولا رَسُولٍ إِليه ، قالَ اللهُ تبارك وتعَالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[الحجرات: ٤] . هذا ما لَزِمَ من آدَابِ المرِيدِ لِشَيخِه وعَلَيهَا المعَوَّلُ، وكلُّ هذِه الأُمورِ آدَابٌ معَ الله تعالى لا معَ مخلُوقٍ كما يَتَسَنَّى لأَبناءِ العَصْرِ فَيَنسِبُوه إِلى الأُلوهِيَّةِ كَونَهمْ لم يَعْرِفُواْ مَعنى الآدابِ معَ الله عزَّ وجلَّ ومعَ رَسولِه ومعَ خَلْقِه ، أَلا تَرى أَنَّ الله سبحانه وتَعالى يَقُولُ في كِتَابِه العَزِيزِ : ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وَكَمْ منْ آيَاتٍ أَسْنَدَتِ المؤمِنينَ ورَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم معَ الله تعالى ، يَكفي أَنْ يَتَدَبَّرَ الإِنسَانُ كتابَ الله تَعَالى ويَرجعَ إِليه [(١)].

ومنْ آدابِ المرِيدِ إِذا قَعَد معَ الشَّيخِ أَنْ لا يَتكَلَّمَ إِلا بِأَدَبٍ وتَوَاضُعٍ، ولا يُعَارِضَ الشَّيخَ مُعَوِّلاً على مَا يَعْلَمُه هوَ فَرُبَّما في حَافِظَةِ الشَّيخِ وعِلمِه ما هوَ أَعلَى مما عندَه ، بلْ يَكُونُ المرِيدُ سَامِعاً صَاغياً واعِيَاً لقولِ الله تعالى وقولِ رسولِه صلى الله تعالى عليه وآلِه

---

(١) من ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥]، وقوله عز وجل:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾[التوبة: ٥٩] ، وقوله سبحانه:﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وصحبه وسلم الذي يَسْمَعُه منَ الشَّيخِ ، ومَا الشَّيخُ إلا الدَّالُّ على الله تعالى بالأَقوالِ والأَفعالِ، ومنْ آدابِ المرِيدِ أيضاً أَن يكونَ فَطِناً لما يأْمُرُ به الشَّيخُ أَو يَنْهَى عنهُ ويَرى كُلَّ خيرٍ أَصَابه منَ الله عزَّ وجلَّ ببرَكةِ الرَّسولِ صَلى الله عليه وآله وسلم وبِبَرَكةِ الشَّيخِ.

❁ ❁ ❁

الكَلامُ عَلى السَّمَاع

أَمَّا السَّماعُ فَعَلى ثَلاثِ طَبقَاتٍ: **فَقَومٌ** يَرجِعُونَ بِسَماعِهم إِلى مُخاطَبةِ الحقِّ لَهمْ فِيما يَسمَعُونَ، وهَذا مخصُوصٌ بأَهلِه الكُمَّلِ لا غَيرَهُم. **وقومٌ** يَرجِعُونَ فيما يَسْمعُونَ إِلى مخاطَبَةِ أَحوالِهم ومقَامِهم وأَوقَاتِهمْ، فَهُم مُرْتَبِطُونَ بالعِلْمِ ومُطَالَبُونَ بالصِّدْقِ فيما يُشِيرُونَ إِليهِ منْ ذلكَ، وقدْ عزَّ أَمْثَالُهم إِلا النَّادِرَ. **وقَومٌ** فُقَرَاءُ مُجَرَّدُونَ وهُمُ الذينَ قَطَعُوا العَلَائقَ عنِ الخلائقِ ولم تَتَلَوَّثْ قُلُوبُهم بِمحَبَّةِ الدنيا والجمْعِ والمنْعِ فَهمْ يَسْمَعُونَ لِطِيبَةِ قُلُوبِهم، ويَلِيقُ بِهِمُ السَّماعُ ، فَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلى السَّلامَةِ، وأَسْلَمُهُم منَ الفِتْنَةِ، وكُلُّ قَلْبٍ مُلَوَّثٍ بحبِّ الدُّنيا فَسَماعُه طَبْعُ تَكَلُّفٍ، والتَّكَلُّفُ عَلى ضَرْبينِ: تَكَلُّفُ المسْتَمِعِ لِطَلَبِ الجَاهِ ، أَو تَكَلُّفُه لِطَلَبِ مَنْفَعَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ، وكُلُّ ذَلِكَ يُعَدُّ عندَ أَهلِ العِلمِ والعِرْفَانِ تَلبيساً وخِيانَةً، نَسأَلُ الله تعالى اللُّطفَ منْ جميعِ الهفَوَاتِ والدَّعَاوِي الكَاذِبَاتِ.. آمين.

❁ ❁ ❁

فصْلٌ فِي آدَابِ المرِيدِ مَعَ إِخْوانه

اعلَمْ أَنَّ عقد الأُخوةِ رَابطَةٌ بينَ الشَّخصِينِ كعقدِ النِّكاحِ بينَ الزَّوجينِ ، وكما يَقْتضِي النِّكاحُ حُقُوقاً يجبُ الوَفاءُ بها ، فكَذا عقدُ الأُخُوَّةِ فَلأَخيكَ عليكَ حقٌّ في المالِ وفي النَّفسِ وفي القَلبِ، وفي اللِّسَانِ وبالعَفوِ وبالدُّعاءِ، وكُلُّ ذلكَ يجمَعُه ثَمانيةُ حُقُوقٍ:

الحقُّ الأَوَّلُ: في المالِ بالمَوَاسَاةِ، وذلكَ على ثَلاثِ مَرَاتب:

الأُولى: أَنْ تُنْزِلَه مَنْزِلَة أَخِيكَ وخَادِمِكَ فَتَقُومَ بِحاجتِه بما فَضَلَ من مَالكَ فإِذا بَدَتْ له حَاجَةٌ وعندَكَ فَضْلَةُ مالٍ سَخَوتَ وأَعطَيتَه ابتداءً، فإِنْ أَحْوَجْتَه إِلى سُؤالٍ فهوَ غَايةُ التَّقصيرِ.

الثَّانيةُ: أَنْ تُنْزِلَه مَنْزِلَةَ نفسِكَ، وتَرضَى بمُشَارَكتِه إِيَّاكَ في مَالك، وتَسْمحَ له فيه.

الثَّالثَةُ: أَنْ تُؤْثِرَه على نَفْسكَ وتُقَدِّمَ حَاجتَه عَلى حَاجتِكَ، وهذه هيَ المَرْتَبةُ العُلْيا وهيَ رُتبةُ الصِّدِّيقينَ ومُنتَهى دَرَجةِ المتَحابِّينَ، كَما حُكِيَ أَنَّه سُعِيَ بِجَماعةٍ منَ الصُّوفيةِ إِلى المتَوكِّلِ فأَمرَ بضرْبِ رِقابِهم وكان فِيهِم أَبو الحسينِ النُّورِيُّ[1]، فبَادَرَ أَبو الحسينِ النُّورِيُّ إِلى السَّيَّافِ لِيكونَ أَولَ مَقْتُولٍ، فَقِيلَ لَه في ذلكَ، فَقَال: "أَحْبَبْتُ أَنْ أُوثرَ إِخْوَاني بالحياةِ في هَذِه اللَّحْظَةِ"، فعَفَا المتَوكلُ عَنهُم جميعاً بِسَببِه[2].

الحقُّ الثَّاني: فِي النَّفسِ، والإِعَانةِ في قَضَاءِ الحاجَاتِ، والقِيامِ بها قَبلَ السُّؤالِ، وتَقْدِيمِها على الحاجَاتِ الخَاصَّةِ، وهَذه أَيضاً لها دَرجاتٌ كالمواسَاةِ: **أَدْناها:** القِيَامُ بالحَاجَةِ عندَ السُّؤالِ معَ البشَاشَةِ والاسْتِبشَارِ وإِظهَارِ الفَرَحِ. **وأَوسَطُها:** أَنْ تَجعَلَ

---

(١) هو الإمام أبو الحسين أحمد بن محمد النوري، البغدادي، شيخ الصوفية، المعروف بكثرة الاجتهاد وحسن العبادة، ولد ببغداد ونشأ بها، كان الجنيد يعظم شأنه، وهو أعلم العراقيين بلطائف علم القوم، قال المغازلي: ما رأيت أحدا قط أعبد من النوري فقيل: ولا الجنيد؟ قال: ولا الجنيد، مكث عشرين سنة يأخذ من بيته رغيفين ويخرج ليمضي الى السوق فيتصدق بالرغيفين ويدخل المسجد فلا يزال يركع، فاذا مضى إلى السوق ظنَّ الناس أنه قد تغدى في بيته ومن في بيته عندهم أنه أخذ معه غداءه وهو صائم، وسئل عن الرضا فقال عن وجدي تسالون أم عن وجد الخلق؟ فقيل له عن وجدك فقال: لو كنت في الدرك الاسفل من النار لكنت أرضى ممن هو في الفردوس، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى (٢٩٥) هـ، [تاريخ بغداد (٥/ ١٣٠)].

(٢) انظر كتاب إحياء علوم الدين، [٢/ ١٧٢].

حَاجتَه كَحَاجَتِكَ ، فتكونُ مُتَفَقِّداً لحاجتِه غيرَ غَافلٍ عنْ أَحوَالِه ، كَما لا تَغْفَلُ عنْ أَحوالِ نفسِك ، وتُغْنِيه عنِ السُّؤالِ . **وأَعْلاهَا:** أَن تُؤثِرَه على نَفْسِكَ وتُقدِّمَ حاجتَه عَلى حَاجَتِكَ، وتُؤثِرَه عَلى نفسِك وأَقربائكَ وأَولَادِكَ.

وقد كانَ الحسَنُ [١] رحمهُ اللهُ يقولُ: "إِخْوَانُنا أَحَبُّ إِلينَا منْ أَهلِنَا وأَولَادِنا ، لأَنَّ أَهْلِينَا يُذَكِّرُونَنا الدُّنيا وإِخوانُنا يُذَكِّرُونَنا الآخِرَةَ "[٢].

الحقُّ الثَّالُث: بِالسُّكوتِ ، فَيسْكُتُ عنِ التَّجَسُّسِ والسُّؤالِ عنْ أَحْوالِ إِخْوَانِه التي لا ينْبَغِي السُّؤالُ عنها ، وإِذَا رَأَى أَحداً مِنهُم في طَرِيقِه فَلا يَسْأَلُه عنْ غَرَضِه وحَاجَتِه ، فُربَّما يُثَقِّلُ عليه أَو يُحوِجَه إِلى أَنْ يَكْذِبَ ، وخُصُوصاً إِذا كَانَ لَا يُحبُّ أَنْ يَطَّلِعَ على مُرادِه أَحَدٌ ، وأَن يَسْكُتَ عنْ أَسْرَارِه التِي يَبُثُّها إِليه فَلا يَبُثُّها إِلى غَيرِه ولَا إِلى أَخصِّ أَصْدِقَائه وأن لا يَكشِفَ شَيئاً مِنهَا ولَو بعدَ القَطِيعَةِ ، وأَنْ يَسْكُتَ عن مُمارَاته ومُدَافعتِه في كَلامِه.

الحقُّ الرَّابعُ: على النُّطقِ باللِّسَانِ ، فَيَتَوَدَّدُ إِليه ويَتَفَقَّدُه في أَحوالِه التي يَجبُ أَنْ يَتَفَقَّدَه فيها كالسُّؤالِ عنْ عَارِضٍ عَرَضَ له وظَهَرَ انْشغالُ القَلبِ بسَببِه ، فَينبغِي عليه

---

(١) هو الإمام المشهور المجمع على جلالته، أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار، التابعي، البصري ، الأنصاري ، مولى زيد بن ثابت ، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة أم المؤمنين رضيَ اللهُ عنها ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضيَ اللهُ عنه ، قالوا : فربما خرجت أمه في شغل فيبكي فتعطيه أم سلمة رضيَ اللهُ عنها ثديها فيدر عليه فيرون أن تلك الفصاحة والحِكَم من ذلك ، أدرك جمعا من الصحابة رضيَ اللهُ عنهم وسمع منهم ، وروى عنه خلائق من التابعين وغيرهم ، كان من كبار سادات التابعين ، وله باع في كل فن، ومناقبه أشهر من أن تذكر، ومن كلامه: "ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه إلا الموت" وله حكم كثيرة، قال أبو بردة رضيَ اللهُ عنه: لم أَرَ ممن لم يصحب النبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم أشبه بأصحابه من الحسن، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (١١٠)هـ، [تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٦٥)] .

(٢) انظر كتاب إحياء علوم الدين ، [٢/ ١٧٦] .

أَنْ يُظهرَ له بلِسَانِه كَرَاهتَها ، وكَذلِكَ في الأَحوالُ التي يُسَرُّ بها يَنبغِي عليه أَن يُظهرَ بلِسَانِه مُشَارَكتَه في السُّرُورِ بها ، فإن مَعنى الأُخُوَّةِ : هو المسَاهَمةُ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وأَن يَدعُوه بأَحَبِّ أَسْمائه إِليه في حُضُورِه وغِيَابِه ، ويُثْنِي عَليه بِما يَعْرِفُ منْ محاسِنِ أَحوالِه عندَ منْ يُرِيدُ هوَ الثَّناءَ عندَه ، كذلكَ يُثنِي على أَولادِه وأَهلِه ، حتَّى على عَقْلِه وخُلُقِه وهَيئتِه وخَطِّه وشِعْرِه وتَصْنِيفِه ، وجَميعِ ما يَفرَحُ به من غيرِ كَذِبٍ ولا إِفْرَاطٍ ، وأَنْ يُبَلِّغَه ثَنَاءَ من أَثنَى عليه معَ إِظهَارِ الفَرَحِ ، ويَذُبَّ عنه في غَيبَتِه مَهْمَا قُصِدَ بسُوءٍ أَو تُعُرِّضَ له بُعُرْضَةِ كَلَامٍ صَرِيحٍ أَو تَعْرِيضٍ ، وأَنْ يُعَلِّمَه مما عَلَّمَه الله تعالى، وأَنْ يَنْصَحَه.

الحقُّ الخامِسُ: العَفْوُ عنِ الزَّلاتِ والهفَواتِ، فإِنْ كانتْ زَلَّتُه في الدِّينِ بارْتِكَابِ مَعْصِيةٍ فَلْيَتَلَطَّفْ في نُصْحِه، فإِن بقيَ مُصِرّاً فلِيَهْجُرْه ولْيَجْتَنِبْه، لِأَنَّ منْ شَرطِ المحبَّةِ أَنْ تَكونَ لله تعالى وفي الله سبحانه ، وعندَ ظُهُورِ المعْصِيَةِ والإِصرَارِ عليها يَصيرُ البُغضُ في الله تعالى هوَ الواجبُ لِينزَجِرَ عنِ المعصِيَةِ ويَتُوبَ .

الحقُّ السَّادِسُ: الدُّعاءُ لَه في حَياتِه ومَماتِه بِكُلِّ ما يُحبُّ لِنَفْسِه ولِأَهلِه .

الحقُّ السَّابِعُ: الوَفَاءُ والإِخْلَاصُ ، ومَعنَى الوَفاءِ : الثَّباتُ على الحبِّ وإِدَامَتِه إِلى المماتِ مَعه وبعدَ مَوتِه تَكُونُ المَوَدَّةُ معَ أَولَادِه وأَصْدِقَائه .

الحقُّ الثَّامنُ: التَّخْفِيفُ وتَركُ التَّكَلُّفِ والتَّكْلِيفِ ، فَلا يُكَلِّفُ أَخاهُ ما يَشُقُّ عَليه، بلْ يُرَوِّحُ سِرَّه عن مُهِمَّاتِه وحَاجَاتِه ، ويَترفَّعُ عنْ أَنْ يُحمِّلَه شَيئاً من أَعْبَائه ، أو أَن يَستَمِدَّ من ماله وجَاهِه ، وأن لا يُكَلِّفَه التَّواضُعَ والتَّفَقُّدَ له والقِيَامَ بِحُقُوقِه ، بلْ لا يَقْصِدْ بمحَبَّتِه إِلا وجْهَ الله تعالى، ويكونُ محباً لِكَافَّةِ إِخوانِه كَبِيرِهِم وصَغِيرِهِم ، وتَكونُ محبَّتُه لَهم خَالصةً لله تعالى، وأَنْ لا يَنظرَ لَهم إِلى عَورَةٍ ظَهَرتْ ، ولَا إِلى زَلَّةٍ سَبقَتْ ، إِذْ هوَ لا يأْمنْ منَ الوُقوعِ في مِثلها ، فينبغِي أَن يُعَامِلَهُم بعدمِ الازْدِراءِ معَ

إِقامةِ العُذْرِ ، وقَد أَجمعواْ أَنَّ كُلَّ فَقيرٍ أُطْلِعَ عَلى شَيءٍ منَ عُيوبِ النَّاسِ ولَو منْ طَرِيقِ الكَشفِ فلا يَقفُ معهَا ، بلْ يُقَابِلُها بِحُسنِ الظَّنِّ ، كما قالَ سَيدي الشَّيخُ أَبو مَدينَ الغَوثُ رحمهُ اللهُ تعالى: [من البسيط]

وَلَا تَرَى العَيبَ إِلَّا فِيكَ مُعْتَقِداً عَيباً بَدَى بَيِّناً لَكنَّه اسْتَتَرَا

ويَنبغِي أنْ يَقولَ: المؤْمنُ مِرآةُ أَخيه، فَلَعَلَّ ذُنُوبِي حُجِبَتْ عَنِّي فَظَهَرَتْ في غَيرِي، فَيتُوبَ ويَتَوجَّهَ إِلى مَولَاه، وفي الحدِيثِ الشَّريفِ: «مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ ولَو كَانَ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ »(١).

ويُحبُّ لإِخوانِه منَ الخيرِ ما يُحبُّ لِنفسِه فَيُنَبِّهُهُم على الوضوءِ قبلَ الوَقتِ لِيدخلَ وقتُ الصَّلاةِ وهُم عَلى أُهبةٍ فَلا تَفُوتُهم تَكبيرةُ الإِحرامِ معَ الإِمامِ ، وأَن يُنَبِّهَ إِخوانَه في الأَسحَارِ بِرفْقٍ ويَرَى أَنَّ نَومَهُم خَيرٌ مِنْ عِبَادَتِه لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِحَالِه ، لِأَنَّ منْ رَأَى نَفْسَه مُسَاوِياً لِجلِيسِه فمَدَدُه واقفٌ لا يَجرِي عليه ، وإِن رَأى نفسَه أَعلى من جَلِيسِه فَلا يَصْعَدُ إِليه ذَرَّةٌ من مَدَدِه ، ولَا يَطْلب الرِّياسَةِ قبلَ أَن يُقامَ فِيهَا فَيَتأَخَّرَ إِلى أَسفلِ السَّافلينَ ، فإِنَّ من رَأى نَفسَه خيراً من أَصحَابِه فقدْ خَرجَ عن طَرِيقِ القَومِ ، ولُعِنَ كما لُعِنَ إِبليسُ بِسَببِ قَولِه أَنا خَيرٌ منه ، وقالَ بعضُ المشَايخِ :لَا يَصِيرُ الفَقيرُ فَقِيراً – والفَقيرُ هنَا المقصُودُ بِه هوَ السَّالكُ طَريقَ الصُّوفيةِ– حتى يَصيرَ في نَفسِه دُونَ كُلِّ جَلِيسٍ منَ المسْلمينَ ، فإِذا صَارَ كذَلكَ فالوُجودُ كُلُّه يُمِدُّه ، كَما أَنَّ الذِي يَرَى نَفْسَه خَيراً منْ جَلِيسِه المسْلِمِ يَصِيرُ كُلُّ الوُجودِ يَلْعَنُه.

---

(١) رواه الإمام الترمذي في كتابه الجامع [٤/ ٣٧٨] برقم: (٢٠٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان [٧/ ٥٢١] برقم: (١١١٩٦)، والطبراني في المعجم الكبير [١١/ ١٨٦] برقم: (١١٤٤٤)، عن البراء بن عازب رضيَ اللهُ تعالى عنهما، ورجاله ثقات.

ومنْ وصِيَّةِ سَيدِي الشَّيخِ أَحمدَ الرِّفاعِي[١] رحمهُ اللهُ تعالى لأَصحَابِه وهوَ مُحتَضِرْ، قال: "مَنْ تَمَشْيَخَ عَلَيكُم فتَتَلْمَذُواْ لَه ، فإِنَّ مَدَّ لَكُم يَدَه لِتُقَبِّلُوهَا فَقَبِّلُواْ رِجْلَه، وكُونُواْ آخرَ شَعْرَةٍ مِنَ الذَّنَبِ ، ولَا تَكونُواْ رُؤُوساً فإِنَّ أَوَّلَ ضَرْبَةٍ تَقعُ فِي الرَّأسِ "[٢] .

وقالَ له خادمُه يَعقوبُ: يا سَيدِي أَوصِنِي، فقال: "كُنْ خَادِماً لإِخْوَانِكَ مُؤْثراً لهم على نَفسِكَ، مُحتمِلاً أَذاهُم بعدَ ذلكَ ، واحذَرْ أَن تَرى نَفْسَكَ أَعلى مِنْهُم فتقعَ في حُفرَةٍ لا يُسَاعِدُ في خَلاصِكَ مِنهَا أَحدٌ ".

قالَ يعقوبُ: "انظرْ إِلى النَّخْلَةِ لما قامتْ بَصَدْرِها وتَعَلَّتْ على جِيرَانِها جَعلَ الله تعالى حملَها فوقَ رأَسِها ، ولَو حَملتْ مهما حَملتْ لم يُسَاعدْها أَحدٌ ، وانظرْ إِلى شَجرَةِ اليَقطينِ لما وضَعَتْ خَدَّها في التُّرابِ وتَواضَعتْ ؛ جعلَ الله تعالى حِملَها على غَيرِها ، ولَو حَملَتْ مهما حَملَتْ لَا تُحسُّ بِثقلِه ".

---

(١) هو الإمام أبو العباس أحمد بن أبى الحسن علي، الرفاعي نسبةً إلى رفاعة -رجل من المغرب-، ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين رضيَ اللهُ عنه، ولد سنة (٥٠٠)هـ، وهو أستاذ الطائفة المشهورة بالرفاعية، كان أوحد وقته حالا وصلاحاً فقيهاً شافعياً أصله من المغرب، وسكن البطائح-قرى مجتمعة بين واسط والبصرة-بقرية يقال لها " أم عَبيدة " وانضم اليه خلق عظيم من الفقراء، وأحسنوا الاعتقاد فيه ومن كلامه: "من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه؛ والأنس بالخلق انقطاع عن الحق ، وأقرب الطرق الذل والافتقار، وتعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله، وأن يُقتدى بسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم " كان يعظ الناس وكان يسمع صوته البعيد منه في المجلس كالقريب ، ويحضر مجلسه الأصم الذي لا يسمع، فيفتح الله سمعه بكلامه حتى ينتفع بما يقول، وله شِعْرٌ حسن، وكان لا يقوم للرؤساء، ويقول: "النظر إلى وجوههم يقسي القلب" ولما حضرته الوفاة ، قال له بعض أصحابه: أوصنا فقال: من عمل خيراً قدم عليه، ومن عمل شراً ندم عليه، توفي رحمَهُ اللهُ سنة(٥٧٨)هـ، [طبقات الأولياء (١/ ١٥)] .

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني (ص:١٤١) .

وَوَرَدَ في الحديث: « مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ الله»[١]، وقدْ أَمرَ الله تعالى ورسُولُه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم بالتَّواضُعِ لِعبادِ الله تعالى ، فليكنِ التَّواضعُ لهم امتثَالاً لأَمرِ الله تعالى ، ولا يُزَاحِمُ على إِمَامةٍ ولا غَيرِها مما فيه تَقَدُّمٌ ، لأَنَّ ذلكَ من حُبِّ الرِّياسَة المذْمُومةِ .

وأَنْ يُسَامحَ إِخوانَه في كُلِّ شَيءٍ آذَوه به؛ منْ فِعلٍ أَو قَولٍ أَو سُوءِ ظَنٍّ، ويَعْتَذِرَ لإِخوانِه عن التَّقصيرِ في الخِدْمةِ إِذا خَدَمَهُم، ويَقومَ بِواجِبِ حَقِّهِم، وأَنْ يَرى خِدْمَتَهُم هيَ الشَّرفُ، ويُعَامِلَهُم بالكَرَامةِ والإِيثارِ بحقُوقِه، ولَا يكونُ لَه التِفَاتٌ إِلى الدُّنيا وزَخَارِفهَا والإِقامَةِ فيها، وَلَا يُصَدِّقُ في إِخوانِه نَمَّامَاً، وإِن نُقِلَ إِليه أَنَّ إِخوانَه يَكرَهُونَه يقولُ للنَّاقلِ: أَنا منْ مَحبَّةِ إِخْوَانِي عَلى يَقينٍ ، وكَلامُك ظَنٌّ فَلا أَتْرُكَ اليَقِينَ بالظَّنِّ .

وأَنْ يُقَرِّبَ لإِخوانِه طَرِيقَ الوُصُولِ إِلى مَرَاتبِ الكَمالِ ، وذلكَ بالاشْتِغَالِ بالذِّكرِ في الخَلوَةِ والجَلْوَةِ على الدَّوامِ، فإِنَّ الله تعالى جَعلَ لِكُلِّ مُرِيدٍ مَنَازِلَ وعَقَبَاتٍ؛ فَلا يَصِلُ إِلى مَقامَاتِ الكَمالِ إِلا بِقَطْعِهَا كُلِّها ، وَيَذْكُرُ الله تعالى في مَوَاطِنِ غَفْلَةِ إِخوَانِه لِتَنْزِلَ الرَّحمةُ عليه وعلى إِخوانِه ، فَيُحْسِنُ إِليهمْ بِذلِكَ ويُكْتَبُ لَه أَجرٌ عَظيمٌ ، ورُبَّما كَان ذِكْرُ الوَاحدِ في وقْتِ غَفْلَتِهم فِي الأَجرِ والثَّوابِ بِعَدَدِ منْ غَفَلَ منهم ، واللهُ تعالى يُحبُّ منْ عِبادِه منْ يُحِبُّ ذِكْرَه ، وأَنْ يُرَغِّبَ إِخوانَه على الحضُورِ فِي حضْرَةِ الذِّكرِ صَبَاحاً ومَسَاءاً ، ويُرْشِدَ إِخْوَانَه ويُعَلِّمهُم مَا يَلْزَمُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ منْ غيرِ أَنْ يَرى لِنفْسِه عَليهِم حَظَّاً . ويُقَدِّمَ نَفسَه عَلى إِخوَانِه في كُلِّ عَملٍ منْ أَعمالِ الدُّنيَا والآخِرَةِ كَحمْلِ الحطَبِ وكَسَهَرِ اللَّيالِي الكَامِلَةِ وغيرِ ذَلكَ .

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٨/ ١٧٢] برقم (٨٣٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان [٦/ ٢٩٧] برقم (٨٢٢٩)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة [١/ ٣٠٢] برقم (٩٧٧)، عن أوس بن خولي رضيَ اللهُ عنه.

وأَنْ لا يَغْفَلَ عن خِدْمَةِ من مَرِضَ من إِخوانِه ولا سِيما في اللَّيلِ حينَ يَنَامُ النَّاسُ ويَترُكُوه فلا يَتْرُكْه ، وخُصُوصًا من ليسَ لَه أَهلٌ ولا أَولادٌ ولا أَصحَابٌ ، وقدْ وردَ أَنَّ العبدَ يُسأَلُ يومَ القِيامةِ عنْ حُقُوقِ جميعِ إِخْوَانِه وأَصحَابِه[١] فإِذا مَرِضَ أَحدٌ الإِخوانِ ولم يكنْ لَه مالٌ وَجَبَ على بَقِيَّةِ الإِخوانِ أَن يُعْطُوه نَفَقَةً ولَا يُحوِجُوه إِلى شيءٍ، «وَاللهِ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ» [٢] . ويَبذُلَ الدُّعَاءَ لإِخوَانِه بالمغْفِرَةِ والرَّحمَةِ والعَفْوِ ، كلَّما وجدَ الوَقتَ صَافِيَاً معَ رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ في أَيِّ وقتٍ كَانَ ، فإِنَّه إِنْ دَعَا لهمْ قَالَ له الملكُ الموَكَّلُ بالدُّعاءِ: **«ولَكَ مِثْلُ ذَلِكَ»** [٣]، ودُعاءُ الملكِ لَا يُرَدُّ. قالَ سَيدِي عَليُّ الخوَاصُ[٤]:"إِذا وجَدَ أَحَدُكُم الوَقتَ رَائقاً منَ الكُدُورَاتِ فَلْيَسْأَلِ الله تعالى

---

(١) ذكر الإمام ابن جرير الطبري في كتابه " جامع البيان في تأويل القرآن " [٢٩/ ١٣٧] : أن رسول الله صَلَّى اللهُ تعالى عليه وعلى آله وسلم كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين ، فدخل النبي صَلَّى اللهُ تعالى عليه وعلى آله وسلم في غيضة طرفاء ، فقطع سواكين أحدهما معوج والآخر معتدل ، فخرج بهما فأعطى صاحبه المعتدل وأخذ لنفسه المعوج، فقال الرجل: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، أنت أحق بالمعتدل مني! فقال: كلا يا فلان، إن كل صاحب يصحب صاحبا مسئول عن صحبته ولو ساعة من نهار.

(٢) رواه الإمام مسلم برقم (٢٦٩٩)، والبيهقي في الآداب [١/ ٥١] برقم (٨٥٥)، والترمذي في الجامع الصحيح [(٤/ ١٥] (١٤٢٥) ، والنسائي في السنن الكبرى [٤/ ٢٦٨] برقم (٧٢٨٨)، والطبراني في الأوسط [٩/ ٩٨] برقم (٩٢٤١) ، وأحمد في مسنده برقم (٧٤٢٧) ، عن أبي هريرة رضيَ اللهُ تعالى عنه.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه[١/ ٤٧]برقم(٤٣)، والطبراني في كتاب الدعاء[١/ ٤١٥]برقم (٣٩٥).

(٤) هو العارف بالله، علي الخواص البرلسي أحد أعلام التصوف وشيخ الشعراني ، أخذ التصوف عن إبراهيم المتبولي وعن الشيخ بركات الخياط، وكان يقوم بكنس المساجد المهجورة بمصر، كان من ذوي الكشف، يسمى بين الأولياء النسابة لكونه أميا ويعرف نسب بني آدم وجميع الحيوان، وكان إذا نزل بالناس بلاء لا يتكلم ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام حتى ينكشف وله كلام في السلوك جزيل، وكان عالماً أمياً لا يقرأ ولا يكتب فجمع عبد الوهاب الشعراني ما كان يقوله في كتاب سماه "درر الغوّاص في فتاوى سيدي علي الخواص"، توفي رحمَهُ اللهُ في القاهرة سنة (٩٤٩) هـ، [شذرات الذهب (٨/ ٢٣٠)].

المغفِرةَ لجميعِ المسْلِمِينَ"، وهذا مـنْ أَعْظَـمِ حُقُـوقِ المسـلمينَ، وفي الحـدِيثِ: «لَا يُـؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ» (١)، قالَ اللهُ تبارك وتعـالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، ويُقَاسُ بِه منْ تَأَخَّرَ عنَّا بـالإِيمَانِ. وطَلَـبُ المغْفِـرةِ يكونُ عَلى نَوعَينِ : إِمَّا أَنَّ الله تعالى يَحُولُ بَيْنَهُمْ وبينَ الوُقُـوعِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي ، وإِمَّـا أَنْ لَا يُؤَاخِذَهُمْ على مَعَاصِيهِم إِذا عَصَواْ .

ويُؤنِسَ منْ اسْتَوحَشَ منَ إِخوَانِه ، وإِنْ كانَ خَائفاً أَمَّنَـهُ ، ويَتَّخِـذَ عِنْـدَه الموسَـى والإِبْرَةَ والمخْرَزَ والخيطَ والكِبرِيتَ والمشْطَ والسِّواكَ والسّـجَادَةَ لأَجـلِ الصَّـلاةِ عليهـا حيثُ أَدْرَكَتْه في سَـفَرِه وإِقَامَتِه ، ورُبَّـما يَكـونُ علَيـه قَمِيصٌ واحِـدٌ والأَرْضُ مُتَنَجِّسَـةٌ فَيَقِفُ على سُجَّادَتِه ، والقَصْدُ نَفْعُ إِخوانِه بجميعِ ما ذُكِرَ .

ولْيُبَـادِر المُريد في تَنْظِيفِ المسْـتَرَاحِ مـنَ القَـذَرِ ، ولْيَـكُنْ ذلـكَ الوَقـتُ حيـثُ لا يَرَاه أَحَدٌ كَالأَسْحَارِ، وفِي أَوقَاتِ الغَفَـلاتِ ثُـمَّ لَا يُحـدِّثْ بِـما رَأَى مـنَ القَـذَارَاتِ ، وإِنْ رَأَى البِرْكَةَ منْ ماءِ الوضُوءِ نَاقِصَةً كَمَّلَها منَ البِئْرِ ، فَالسُّنَّةُ لِلعَبدِ أَنْ يَتَوَلَّى مَاءَ الطَّهَـارَةَ بِنَفْسِه ، وأَنْ يَمْلَأَ أَكثَرَ مِنَ الذِي يَتَطَهَّرَ بِه وأَجْرُه عَلى الله تباركَ وتعالى.

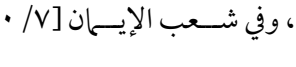

(١) حديث صحيح، رواه البخاري [١/ ١٢] برقم (١٣)، ومسلم [١/ ٦٧] برقم (٧١)، ورواه البيهقي في الآداب [١/ ٦٣]بـرقم (١١٠)، وفي شـعب الإيـمان [٧/ ٥٠٠] بـرقم (١١١٢٥)، والـدارمي في السـنن[٢/ ٣٠٩] بـرقم (٢٧٩٦)، ورواه النسـائي في السـنن الكـبرى ([٦/ ٥٠٠] بـرقم (١١٧٤٧)، والطبراني في المعجم الأوسط [٨/ ١٦٧] برقم (٨٢٩٢)، وفي المعجم الصغير [٢/ ١٨] برقم (٧٠٠)، ورواه الترمذي في سننه [٤/ ٦٦٧] برقم (٢٥١٥)، وغيرهم عن أنس بن مالك رضيَ اللهُ تعالى عنه .

فصل في آداب المريد مع نفسه

كُلُّ جَارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِ العَبدِ لها آدَابٌ تَخْتَصُّ بها، قالَ اللهُ تعالى:﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقالَ بَعضُ المشَايخِ: "حُسْنُ الأَدَبِ معَ الله تعالى أَنْ لا تَتَحَرَّكَ جَارِحَةٌ منْ جَوَارِحِكَ في غيرِ رِضَاءِ الله "[1].

فمن آدابِه معَ نفسِه: أَنْ يكونَ تَقِيّاً ورِعاً عنِ الحَرَامِ والشُّبُهاتِ في مأْكَلِه ومشْرَبِه ومَلْبَسِه وكَلَامِه وقَلبِه وسَمعِه وبصَرِه ويَدِه ورِجْلِه وفَرْجِه ، وعُمدَةُ ذلكَ كلِّه الحَلَالُ في اللُّقمَةِ ، لأَنَّ منْ أَكلَ الحرَامَ تَصَرَّفتْ جَوارِحُه بِمَعاصِي الله تعالى، ومنْ أَكلَ الحلالَ تَصرَّفتْ جوارِحُه بطَاعةِ الله تعالى ، فَلو أَرادَ منْ يأكلُ الحلالَ أَنْ يعصِي الله تعالى لَتَعَسَّرَ عليه ذلكَ ، قَالَ بعضُ المشَايخِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُم:" اطْلُبْ مَطْعَمَكَ منْ حَلالٍ وعليكَ بعدَ ذَلكَ بالتَّنَفُّلِ بالصَّومِ والصَّلاةِ يُبَارِكُ الله تعالى لكَ في حَالِكَ ومَالِكَ " .

وقالَ سَيدي الشَّيخُ زَرُّوقٌ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: "فأَمَّا مَا يَجرِي عَلى اخْتِلَافِ العُلماءِ والرَّاجِحُ والمرْجُوحُ في الحَلَالِ فَهُوَ مَوْجُودٌ".

وقالَ العُلَماءُ: "إذا فُقِدَ الحلَالُ رَأساً أَقيمَ منْ عَشَرَةِ أَشْياءَ وهيَ : تِجَارَةٌ بِصِدْقٍ ، وإِجَارَةٌ بِنُصْحٍ ، وأَعْشَابُ الأَرْضِ غيرُ المَمْلُوكَةِ ، وهَدِيَّةٌ منْ أَخٍ صَالِحٍ ، وصَيدُ البَرِّ حَيثُ يُبَاحُ ، وصَيدُ البَحْرِ ، ومَهْرُ النِّسَاءِ ؛ إِنْ سَمَحَتْ لِزَوجِهَا أَو وَلِيِّها بِطِيبِ نَفْسٍ، وقِسْمَةُ المغْنَمِ عَلى وَجْهٍ شَرْعِيٍّ، والميرَاثُ عَلى وَجْهٍ مَشْرُوعٍ، والسَّؤالُ عندَ الحَاجَةِ ".

وكثْرَةُ ما يَجرِي عَلى أَلسِنةِ المتَدَيِّنينَ أَنَّ الحلَالَ ضَالَّةٌ مَفْقُودَةٌ - أَيْ مَعْدُومَةٌ- هوَ أَمْر يَجعَلُونَه عُكَّازَةً لِلاسْترسَالِ وأَخْذِ مَا وَالَاهمْ، بَلِ الحلالُ موجودٌ، ولَو لم يَكنْ

---

(١) انظر كتاب آداب المريدين لضياء الدين السهروردي ، (ص : ٢٦) .

موجوداً في كلِّ زمانٍ ما كلفنَا بطَلبِه، ولَانْقَطَعَ أَولياءُ الله سبحانه وتعالى إِذْ هوَ قوتُهم وذَلكَ بَاطِلٌ، وأَيضَاً إِذَا حَرَّمْتَ الكُلَّ حَلَّلْتَ الكُلَّ، وكُلُّ منْ بيدِه شَيءٌ يَسْتَأنِفُ فيه حُكمَ الله منَ الآنْ!. وقَالَ بَعضُ المشَايخِ: "منْ بيدِه شيءٌ لا يعرِفُ فيه دُخولَ حَرَامٍ بالأَصَالَةِ ولَا مُعَاملَةً قَبيحَةً مَقْصُودَةً، فمنْ أَينَ يَحرُمُ مَالُه؟ ومَا غلبَ على الناسِ من الجهلِ لِرِقَّةِ الدِّيانةِ لَا يُحرِّمُ ما بأَيدِيهم، لأَنَّ الإِنسانَ لا يخاطبُ إِلا بما في علمِه، وإِنَّ الله تعالى خلقَ المالَ حلالاً كما خَلقَ الماءَ طَهُوراً، فَكما لَا يُنَجِّسُ هَذا إِلا ما غَيَّرَه؛ كذلكَ لا يُحَرِّمُ هَذا إِلا مَا غَيَّرَه". وقد أَهملَ النَّاسُ في هذِه الأَزمنةِ بابَ الحلالِ والحرَامِ فليكنِ الفَقِيرُ على بالٍ، ومنْ يَصحبِ العِلمَ فلا يَضِلُّ ولا يَضِيقُ عَليه الوَاسِعُ، بلْ لا يَزَالُ في فُسْحَةٍ مَا لم يَتَغَيَّرْ. وقالَ سَيدِي الشَّيخُ أَبو الحسَنَ الشَّاذِلِيُّ[1]: "أَحَلُّ الحَلَالِ مَا لمْ يَخطُرْ لَكَ عَلى بَالٍ، ولَا سَأَلتَ فِيه أَحَداً منَ النِّساءِ والرِّجَالِ"[2]. وقالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «طَلَبُ الحَلَالِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[3].

---

(١) هو الإمام العارف بالله تعالى، القطب أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف الشاذلي المغربي، الزاهد، الصوفي، الذي تنتسب إليه الطريقة الشاذلية، ولد سنة (٥٧١)هـ ببلدة (غمارة) في المغرب، تتلمذ في صغره على الإمام عبد السلام بن مشيش في المغرب ، وطلب "الكيمياء " في ابتداء أمره ثم تركها، رحل إلى تونس وبها تفقه وتصوف ، وسكن في مدينة (شاذلة) فنسب إليها ، ثم رحل إلى جبل زغوان، واعتكف فيه للعبادة، وهناك ارتقى المنازل العالية ، ثم رحل إلى مصر وإلى بلاد المشرق فحج ودخل العرق ، ثم سكن الإسكندرية ، وفيها تزوج وأنجب وأصبح له أتباع ومريدون ومن أشهر تلامذته الشيخ أبو العباس المرسي، وذاع صيته في العالم أجمع وانتشرت طريقته بعد ذلك في مصر وغيرها من البلدان ، كان ضريرا ، وله عدة أحزاب وأوراد ، وله "رسالة الأمين" في آداب التصوف ، وتوفي رحمَهُ اللهُ تعالى بصحراء عيذاب وهو متوجهٌ إلى الحج في أوائل ذي القعدة سنة (٦٥٦) هـ. [الأعلام، (٤/ ٣٠٥)].

(٢) إيقاظ الهمم بشرح الحكم [١/ ٧١] .

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٨/ ٢٧٢] برقم (٨٦١٠)، وفي الكبير [١٠/ ٧٤] برقم (٩٩٩٣).

فإذا كانَ طلبُ الحَلالِ فَرِيضَةً عَلى كُلِّ مُسْلمٍ فَتَركُ الحرَامِ فرِيضَةٌ عَلى كُلِّ مُسلِمٍ. وقالَ سَيدِي الشَّيخُ أَحمدُ بنُ عَلوَانَ[١]: "وأَمَّا الاضْطِرَارُ الـذِي يَتَعَيَّنُ بِـه وجْـهُ الإِباحَـةِ فَغَيرُ مُمكنٍ في هَذه السَّاحةِ ؛ لِكثْرَةِ الزِّرَاعـةِ والعَشَـائرِ وَوُجـوهِ الحَـلالِ ، ولَمْ تُجعَـلْ مـدةُ الاضْطِرَارِ ثلاثةَ أيامٍ إلا لِنَطْلُبَ ، فإذا أَعْوَزَ ولمْ يجدْ شيئاً ، فَالميتَةُ دُونَ أَكلِ مَالِ المسْلِمِ، وأَمَّا مَا يَحتَجُّونَ به مما ذُكرَ عنِ الفَقِيهِ محمدِ بنِ حسينٍ البَجَلِيِّ[٢]، والفَقِيـهِ سُـفيانَ رحمـةُ الله تعالى عليهما، من تَنَاوُلِهما لِذلكَ فلا حُجـةَ لهـم، إِذْ يُقَـالُ: إِنَّـه قـدْ يُمكِـنُ بُلـوغُهم إِلى رُتبَةِ قَلْبِ الأَعيانِ معَ شِـدَّةِ الاضْـطِرَارِ إِلى حُضـورِ المجْلِسِ الـذِي يُعْـرَضُ فيـه ذَلـكَ ،

---

(١) هو الإمام العارف بالله ، صفي الدين ، القطب أبو العباس أحمد بن علوان بن عطاف بـن يوسـف بـن علي بن عبدالله ، الحسني ، الشافعي ، اليفرسي ، الملقب بـ «الباهوت» ، إمام الصوفية وعلـم الأوليـاء ، ولـد في قرية عقاقة من ناحية صبر ، ولم يُذكر تـاريخٌ محـددٌ لولادتـه ولعلـه كـان مـا بـين أواخـر القـرن السـادس الهجري وبدايات القرن السابع الهجري ، وأبوه أحد الكتـاب المشـهورين في اليـمن أصـله مـن بلـد (خـاو) قرية شرق مدينة يريم محافظة إب حالياً ، نشأ في أحضان والده ونبت نباتاً حسناً ، وتلقى فنـون العلـم عـلى يد كبار رجال عصره ، سـلك طريـق التصـوف وكـان أخـذه لـه عـلى يـد الشـيخ عمـر الطيـار ، لـزم الخلـوة والعبادة ، واشتهر بحب الوعظ حتى لقب بجوزي اليـمن ، ولـه رسـائل كثـيرة ومؤلفـات عظيمـة النفـع ، تـدور حـول التصـوف والسـلوك ، والمعرفـة والعقـيدة ، منهـا كتـاب التوحيـد الأعظـم ، وكتـاب الفتـوح المصونة والأسرار المخزونـة ،وكتـاب المهرجـان ، ولـه قصـائد تـردد في كثـير مـن المجـالس ، ومناقبـه كثـيرة وكراماته شهيرة يعرفها الصغار والكبار من أهل ناحيته ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى ليلة السبت في العشـرين مـن شهر رجب سنة (٦٦٥)هـ ، ودفن بقرية يفـرس مـن أعـمال جبـل حبَـشِي محافظـة تعـز حاليـاً ، في مسـجده المعروف باسمه ، وتقام له زيارة سنوية في شهر رجب من كل عام.

(٢) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن حسين البَجَلي، كان من المشايخ الكبار، ومن أولياء الله المشاهير، فقيهـاً عالماً إماماً محقِّقاً عارفاً جامعاً بين الشريعة والحقيقة سالكاً في ذلك أحسن طريقة ، أخذ عن العلامة علي بـن عمر بن محمد بن سليمان الأهدل علامة اليمن الذي كان مـن أعـلام التصـوف في زمنـه ، وقـد كـان الشـيخ محمد البجلي صاحبَ آياتٍ وإفاداتٍ وكرامات ومكاشفات، تُوفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٦٢١) هـ .

فمنْ اقتَدَى بهم ممنْ لم يَبلُغْ رُتْبَتَهُم هَلَكَ هَلاكاً بَيِّناً ورَجعَ رُجُوعاً هَيِّنًا لِقُصُورِه عنْ بلوغِ مَا أَطْلَعَهُم الله تعالى عليه وأَوصَلَهُم منَ الكَرَامةِ إِليهِ ، فَلا يُسَلَّمُ ذَلكَ لأَحدٍ لم يَبلغْ إِلى حَالِ الكَشْفِ الجلِيِّ الذِي هوَ حَالُ الاطِّلاعِ بالبرْهَانِ على دَقائِقِ كَيدِ الشَّيطانِ ، ولم يَتَعَيَّنْ لَه عهدُ عينِ التَّبدِيلِ منْ أَيِّ جِهَةٍ لِيَتَّبعَ ، هذا حَظُّ العِبَارةِ ونِهَايَةُ الإِشَارَةِ في هَذا المعنى ، ومَثَلُ المقْتَدِي بِذَلكَ ممنْ قَصَّرَ عَنْ رُتْبَتِهم كَرَجُلينِ صعدَا إِلى ذُروَةِ جبلٍ شَاهقٍ وقدْ أُوتِيَ أَحدُهُما حَالاً يَطِيرُ بِه فِي الهواءِ ولم يُؤتَ الآخَرُ ، فَلما سَبَحَ في الطَّيرَانِ منْ رَأسِ الجبَلِ تَبِعَه الآخَرُ، إِمَّا مُدَّعِيًا أَو مُقَلِّداً ، فَيَقعُ هَاوياً في النَّارِ قَاتلاً لِنفسِه بالاخْتِيَارِ ، فَاسْتَيقِظُواْ مما أَغْمَضْتُم فيه ، واسْتَقِيمُواْ على مَا استَندتُم إِليه ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦] ، فاعْتِقُواْ النُّفوسَ عنِ الحظِّ المنْحُوسِ ، وارْفَعُواْ الرُّؤوسَ عنِ المقَامِ المنْكُوسِ ، واقتَدُواْ بالأَخيارِ منَ السَّادِةِ الأَبرَارِ ، ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣] .[1]

وَالذِي يَنْبَغِي عَلى العَبْدِ في كُلِّ جَارِحَةٍ أَنْ يُسَخِّرَهَا فِي مَرضَاةِ الله تَبَارَكَ وتَعالى:

فآدَابُ اللِّسَانِ: أَنْ يُكثرَ به منْ ذِكرِ الله تعالى وتِلاوةِ كتَابه ، ويُرشِدَ به خَلقَ الله تعالى إِلى طَرِيقِه ، ويَحفَظَها من الكَذِبِ في الجِدِّ والهزْلِ ، فإِنَّ الكَذبَ من أُمَّهاتِ الكَبائرِ، ولا يَتكلَّمُ بها في المرَاءِ والجدَالِ ، ولا في السِّبابِ والشَّتمِ واللَّعنِ ، ولْيَتَجَنَّبِ السُّخريةَ والاسْتِهْزَاءَ ، ويَذكر بها الإِخوانَ بخيرٍ ويَدْعُ لَهم ويَبذُلِ النَّصيحَةَ والوَعظَ ، ولا يُكَلِّمْهم بما يَكرهونَ ولا يَغتَبْ ولَا يَمشِ بالنَّميمَةِ ولَا يَخُضْ فيما لَا يَعْنِيه ، وإِذا كَانَ في جَماعَةٍ تَكَلَّمَ مَعَهم مَا دَامُواْ يَتكَلَّمُونَ فِيما يَعْنِيهم ، وإِذا أَخذُواْ فيما لا يَعْنِيهم تَركَهُم وأَمْسَكَ ، ويَتكَلَّمْ في كلِّ مكانٍ بما يُوافقُه لأَنَّ لكلِّ مَقامٍ مَقالاً .

---

(١) انظر كتاب التوحيد الأعظم ، ص : (٣١٤-٣١٥) .

وقِيلَ : خَلقَ الله تعالى اللِّسانَ تُرجماناً لِلقلبِ ومِفتَاحاً للخَيرِ والـشَّر، فإِنْ أَرَدتَّ صَلاحَ قلبكَ فاستعنْ عليه بِحفظِ لِسَانِكَ والزَمْ الصَّمتَ.

وآدَابُ السَّمْعِ: أَنْ لَا تَسْمَع الفُحشَ والخنَا والغِيبةَ والنَّميمَةَ والمنْكَرَ ، وتَسْتَمعُ الذِّكرَ والوَعظَ والحِكْمَةَ ومَا يَعودُ علَيك فَائدَتُه في الـدُّنيا والآخِرَةِ ، وتُحسِنُ الإِصْغَاءَ إِلى من يُكَلِّمُكَ ويُخاطِبُكَ وتُشْعِرُه بأَنكَ متَلَذِّذٌ بذلكَ .

وآدابُ البَـصَرِ: الغـضُّ عـن المحَـارِمِ، وعـنْ عُيـوبِ الإِخـوانِ وعـنِ المنْكَـراتِ والمحَرَّماتِ، كالنَّظرِ إِلى النِّساءِ الأَجْنَبِيَّاتِ وبيتِ جَارِه أَو مَالِه وكِتَابِه لِغَيرِ رِضَاً وعَورَتِـه، وغَيرِ ذلكَ من المحَرَّماتِ، ويُنَزِّهُ النَّظَرَ عـنْ كُـلِّ مَـا يُشْـغِلُهُ ويُلْهِيـهِ عـنْ ذِكـرِ الله تعـالى وعِبَادَتِه ولَو كانَ مُباحاً، قالَ بعضُ المشَايخِ:"منْ كَثُرَتْ لحَظَاتُه دَامَتْ حَسَرَاتُه"[١].

ويكونُ نَظَرُهُ بِالاعْتِبَارِ والاسْتِدْلَالِ عَلى قُدْرَةِ الله تَعَـالَى وعَظَمَتِه وجَميلِ صُـنْعِه، عَارِيـاً عـنْ حُظُـوظِ الـنَّفسِ الأَمَّـارةِ بالسُّـوءِ، وحُكِـيَ عـنِ بَعضِـهِمْ قـالَ: "نظـرتُ إِلى شَـخصٍ نظـرةَ شَرٍ، فَرأَيـتُ في المنَـامِ قَـائلاً يَقُـولُ لي: الـدُّنيا دَارِي والخَلائـقُ عَبِيـدِي وإِمائِي، فمنْ نَظَرَ إِلى واحدٍ مِنهُم بغيرِ حَقٍ فَقَدْ خَانَنِي ، فَانْتَبَهتُ بعـدَ ذلِـكَ وآليـتُ أَنْ لا أَنْظُرَ إِلى شَخْصٍ بعدَ ذَلكَ إِلَّا عَلى حَدِّ الأَمانةِ ".

وقالَ بعْضُـهُم: "رَأَيـتُ يومـاً شَخْصـاً اسْتَحْسَـنتُه فَـإِذا لَطْمَـةٌ وقَعَـتْ عـلى عَينِـي فَسَالَتْ عَلى خَـدِّي ، فقلـتُ : آه ، فَقِيـلَ لِي لحَظَـةٌ بلَطْمَـةٍ ، ولَـو زِدتَ لَزِدْنَـاكَ "، وقـالَ صَلَّى اللهُ عَليـه وآلِـه وصَـحْبِه وسَـلَّم لِعَـلِيٍّ كـرَّمَ اللهُ وجْهَـه ورضيَ عنـه: «إِيَّـاكَ أَنْ تُتْبـعَ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الأُولَى ولَيسَتْ لَكَ الثَّانِيةُ» [٢].

---

(١) هذه العبارة لأبي بكر بن داود العباسي ، انظر زهر الآداب وثمار الألباب [٢/ ١١٠] .

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى [٧/ ٩٠] برقم (١٣٨٩٨)، ورواه الترمذي [٥/ ٥٧]برقم (٢٧٧٧)، وأبو داود في سننه [١/ ٦٥٢]، والحاكم في المستدرك [٢/ ٤٩٦]، وقال : صحيح على شرط مسلم.

وقَالَ بَعضُهُم: "إِيَّاكَ والنَّظَرَ بِنَقْشِ صُورَةِ المنْظُورِ، وإِنَّما الدُّنيَا عُيُوبُها بَادِيَةٌ، كَمْ فَتَحَتْ بَابَ بَلِيَّةٍ، ولَا حَيلَةٌ كحِيلَةِ عَينٍ كَحِيلَةٍ ".

وآدَابُ القَلبِ: مُرَاعَاةُ الأَحْوَالِ السَّنِيَّةِ المحْمُودَةِ ، ونَفْيُ الخوَاطِرِ المذْمُومَةِ ، والتَّفكِيرُ في آلاءِ الله تعالى ونَعمائِهِ وعَجَائبِ خَلْقِه قالَ اللهُ سبحانه وتَعَالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وَوَرَدَ فِي الحَدِيثِ : « تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيرٌ مِنْ عَبَادَةِ سَنَةٍ»، وهَذا مَحمُولٌ عَلى تَفَكُّرِ أَهلِ الدَّلِيلِ، وفي رِوَايةٍ: «خَيرٌ مِن عِبَادَةِ سَبعينَ سَنَةً»(١).

وهَو مَحمُولٌ عَلى تَفَكُّرِ أَهلِ الشُّهودِ، وأَن يُحسِنَ ظَنَّه بالله تعالى ورَسُولِه وبجميعِ المسْلِمينَ ، ويُطَهِّرَ قَلبَه منَ الغِلِّ والحسَدِ والعُجبِ والكِبرِ والخيَانَةِ وسُوءِ المعْتَقَدِ، ومنْ جميعِ الصِّفاتِ المذمومَة المتقدم ذِكرُها فإنها من الخيانةِ ، قالَ اللهُ تبارك تعالى:﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ، وقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : «أَلا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ» (٢).

وآدَابُ اليَدَينِ: البَسطُ بالبرِّ والإِحسَانِ ، والجُودِ والاكرَامِ ، وخِدْمَةِ الإِخوانِ ، ولا يَسْتَعينُ بهما عَلى مَعصيةِ الله تعالى ، ولا يبْطِشُ بهما في غير مَرضَاته .

---

(١) لم أجده فيما بين يدي من المصادر بهذين اللفظين ، والموجود ما رواه البيهقي في شعب الإيمان [١/ ٢٦١] برقم (١١٧) ، من حديث أبي الدرداء رضيَ اللهُ تعالى عنه بلفظ: " تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ "، وهو في المصنف لابن أبي شيبة [١٣/ ٣٠٧] برقم (٣٥٧٢٨)، وفي جامع الأحاديث للحافظ جلال الدين السيوطي [١١/ ٣٢٤] برقم(١٠٨٩٧)، بنفس اللفظ ، وقال: رواه صالح بن أحمد في كتاب التبصرة عن أنس مرفوعا وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس موقوفا.

(٢) هذا الحديث قد تقدم تخريجه ، (ص:٤٩) .

وآدَابُ الرِّجْلينِ: السَّعيُ بهما في طَاعةِ ربِّه، ولقضَاءِ حَاجَتِه وحَاجَات إِخوانِه، ولَا يَمشِي بهما مَرِحَاً، ولا يَختَالُ ولَا يَتبَخْتَرُ ولَا يَزهُو ، فإِنَّ ذلك مِمَّا يُغضِبُ الله تعالى ، وكذلكَ لَا يَسْتَعينُ بِهما عَلى المعَاصِي .

وآدابُ الفَرْجِ: حِفظُه عنِ المحَرَّماتِ، وإِذا أَتى أَهلَه قصدَ بذلكَ ذريةً صَالحةً لِتكثِيرِ الأَمةِ المحَمَّدِيَّةِ المطْلوبةِ بالسُّنةِ، لما وَرَدَ في الحدِيثِ: « تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١)، والقصْدُ أَيضاً تَحصِينُ نفسِه وإِحرَازُ دِينِه .

وآدَابُ الأَخلاقِ: حُسنُ الظَّنِّ معَ كلِّ مخلوقٍ ، والحلْمُ والعَفوُ والصَّبرُ ومعَامَلةُ الخلقِ بما يحبُّ أَنْ يُعَامَلَ بِه ، ومَرْجِعُها إِلى كَفِّ الأَذى وبَذْلِ النَّدى، والإِنصَافِ فيما خَفِيَ ومَا بَدَا ، وحَملِ الجفَاءِ، وشُهُودِ الصَّفا، ورَمي الدُّنيا بالقَفَا ، وقَالَ الإمام الغَزالي رَضِيَ اللهُ تَعالى عنه: "هِيَ مِلكُ النَّفسِ عِندَ الشَّهواتِ والغَضَبِ"، وكانَ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم خُلُقُه القُرْآنِ ، وقَد أَثْنَى الله تعالى عَليه فِي مُحكَمِ القَرآنِ ، فَقالَ اللهُ تبارك وتعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤] وكانَ لا يُقَابلُ أَحداً بما يَكرَه، فيلْزمُ على أُمَّتِه التَّخَلُّقُ بأَخلاقِه لأَنَّ مَولَانا عزَّ وجَلَّ أَمرَ باتِّباعِه، فَقالَ اللهُ تبارك وتَعَالى:﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولْيحَذر المرِيدُ من الوَرعِ رِيَاءً وسُمْعَةً للنَّاسِ ، فإِنه يَزدادُ بذلكَ مقتاً وبُعداً من مولاه ، وإِذا تَعسَّرَ عليه رِزْقُه وقَسَتْ عليه القُلوبُ فليصبرْ ولا يضْجَرْ ، فَرُبَّما تَتَحولُ الدُّنيا عنِ المرِيدِ عندَ دُخولِه في الطَّريقِ ورُبَّما قالَ : ما كَانَ فيَّ حَاجةٌ بالطَّريقِ فيَنقُضَ

---

(١) رواه البيهقي في السنن الصغرى [٢/ ٢٠٢] برقم (٢٤٥٥)، وفي السنن الكبرى [٧/ ٧٨] برقم (١٣٢٣٥)، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه[٤/ ٣٣٤]برقم(١٠٣٩٠) وهو في مصنف عبدالرزاق [٦/ ١٦٠] برقم (١٠٣٤٣).

عهدَهُ فلا يُفلحُ أَبداً بعدَ ذلكَ ، فإذا وقعَ عليه العُسرُ في الدُّنيَا فليعلمْ أَنَّ الله تعالى يُريدُ أَنْ يُوَالِيَه ويَفتحَ عليه بَصِيرتَه ، لأَن محبةَ الله سبحانه وتعالى لا تجتمعُ معَ محبةِ الدنيا في قَلبٍ، فينبغِي أَن يرفُضَ الدنيا ورَاءَ ظَهرِه ويُخرِجَ حُبَّها مِن قَلبِه .

ويَحفظُ أَوقاتَه بآدَابِ العِبَادةِ في جَميعِها منَ الأَذكارِ وسَائرِ العِبَاداتِ ، ولا يَطلُبُ من مَولاه الأَجرَ على أَعمالِه وعِبَاداتِه ، وأَنْ تَكونَ أَعمالُه عَلى وفقِ الشَّريعةِ المطَهَّرةِ ، فإِنَّ الشَّريعةَ هِيَ الحدُّ القَاطعُ والسَّيفُ اللازِمُ لِعِصْمَتِهَا، لأَنَّ العملَ على خلافِها لا يقبلُه الله تعالى، ويُقَلِّلُ النَّومَ مَا أَمكنَ لا سِيما وقتَ الأَسحارِ ، فإِنَّه وقتُ الإِجابَةِ والعَطَاءِ والتَّجَلِّياتِ والنَّومُ ليسَ فيه فَائِدةٌ إِنما هوَ خُسْرَانٌ ؛ فهوَ أَخو الموتِ .

قالَ سَيدِي إِبراهيمُ الدَّسُوقِي رحمهُ اللهُ تعالى[1]: "كيفَ يَدَّعِي المرِيدُ الصِّدقَ وهوَ ينامُ وقتَ فَتْحِ الغَنَائمِ وفتحِ الخزَائنِ ، وَوقتَ نَشْرِ العُلومِ وإِظهَارِ المكْتُومِ"، ولا يَشْبَعُ إِذا أَكلَ ، بلْ يَكُنْ أَكلُه بِمَنْزِلَةِ الدَّواءِ بِقَدرِ الحاجةِ الضَّرُوريَّةِ مُتَوسِّطَاً بينَ الإِفراطِ والتَّفرِيطِ . وَقالَ سَيدِي إِبراهيمُ الدَّسُوقِي رحمهُ اللهُ تعالى : " قوتُ المرِيدِ الصَّادِقِ الجوعُ، ومَطَرُه الدُّمُوعُ، وَوَطرُه الخشُوعُ ، يَصُومُ حتَّى يَرِقَّ قَلْبُه ويَلِينَ ، وأَمَّا من شَبعَ

---

(١) هو برهان الدين القطب إبراهيم بن عبد العزيز بن قريش بن محمد المختار، الهاشمي ، الشافعي ، الدسوقي ، نسبة إلى مدينة دسوق ، صاحب المحاضرات القدسية ، والعلوم اللدنية ، والأسرار العرفانية ، أحد الأئمة الذين أظهر الله لهم المغيبات، وخرق لهم العادات ، أجمع المؤرخون على اتصال نسبه بالحسين بن علي رضيَ اللهُ عنهما ، ولد بدسوق سنة(٦٥٣) هـ ، سطع نجمه في العلوم والمعارف وانتشرت طريقته ، ووصل صيته إلى كل أرجاء البلاد ،ولما سمع السلطان بعلمه وكثرة أتباعه ،أصدر قراراً بتعيينه شيخاً للإسلام ،وإليه تنسب الطريقة الدسوقية ،وأخباره كثيرة وكراماته مشهورة ، أورد الشعراني مجموعة كبيرة من كلامه اختارها من كتاب له اسمه (الجواهر) قال: وهو مجلد ضخم، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٦٩٦) هـ ، ودفن بمسجده الشهير بدسوق ، [شذرات الذهب (٨/ ٣٤٩) ، الأعلام (١/ ٥٩)].

ونامَ ولَغَا في الكَلامِ وتَرَخَّصَ، وقالَ: مَا عَلى فَاعلِ ذلكَ ملامٌ لا يجيءُ منه شيءٌ في الطَّريقِ ، والسَّلام "[1]. ولا يكونُ عندَه غِلٌّ ولَا حَسَدٌ، ولا غِيبةٌ ولا بغيٌ، ولا مَخادَعةٌ ولا مُكابرَةٌ ، ولا مماراةٌ ولا مُكاذبةٌ ، ولا كِبرٌ ولا عُجبٌ ، ولا افتخارٌ ، ولا شيءٌ من حُظوظِ النَّفسِ ، ولا تَصَدُّرٌ في مجلسٍ ولا رُؤيةٌ وتفضيلٌ لِنفْسِه على أَحدٍ منَ المسلمينَ ، ولا جِدَالٌ ولا امتِحَانٌ ولا تَنقِيصٌ لأَحدٍ منَ المخلوقِينَ أَقبلَ عليه أَو أَدْبَرَ عنه ، ولَا يطلبُ لَه مَقاماً ولَا قيمَةً عندَ أَحدٍ مِنهُم. وأن يَحضُرَ مَجالِسَ أَهلِ العلْمِ السَّالمةِ عنِ النِّزاعِ والمرَاءِ والجِدَالِ وفُضُولِ الكَلامِ ، ويُوَبِّخُ نَفْسَه ويَحُثُّها على السَّيرِ في الطَّريقِ، ولا يَقِفُ معَ حالٍ ولا مَقالٍ، قالَ اللهُ تعالى:﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢] .

ويُزيلُ عنْ نفسِه الحظُوظَ وجميعَ العَلائقِ ، فالوَاقفُ معهَا مأَسُورٌ ، وكُلَّما تَعِبَ من عِبَادَةٍ يقولُ لِنَفسِه: اصْبرِي فإِنَّ الرَّاحةَ أَمَامَكِ غَداً ، وإِنَّما أُرِيُد منْ تَعَبَكِ رَاحتَكِ في الآخرةِ، ويُصَفِّي باطِنَه عنِ الصِّفَاتِ المْذمُومَةِ المتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا ، لأَنَّ بقَاءَ خَصْلَةٍ مِنها تمنَعُه الحضُورَ في حَضْرَةِ الله عزَّ وجَلَّ. قالَ المْرصَفِيُّ رحمهُ اللهُ تعالى[2]: "قدْ عَجَزَ الأَشيَاخُ فَلمْ يَجِدُواْ أَسْرَعَ لجلاءِ القلبِ من مُداومِة الذِّكرِ"[3] ، فلْيُدَاوِمْ عليه في جميعِ الأَوقَاتِ والأَنفَاسِ ، ولَا يَسْتَبطِئُ الفَتْحَ عليه فإِنَّ ذَلكَ مما يُوجبُ الحرْمَانَ ، لأَنَّ من اسْتَعْجَلَ الشَّيءَ قبلَ أَوانِه عُوقِبَ بِحِرْمَانِه.

---

(١) انظر كتاب "الوصية الجلية"، لقطب الدين مصطفى بن كمال البكري (ص: ٦) .

(٢) هو الشيخ العلامة نور الدين أبو الحسن علي بن خليل ، المرصفي ، الشافعي ، شيخ الشعراني صوفي شهير ، له تآليف ، منها "منهج السالك إلى أشرف المسالك " اختصر به مقاصد السلوك من الرسالة القشيرية، و" كشف غوامض المنقول " توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٩٣٠)هـ ، [الأعلام (٤/ ٢٨٦)] .

(٣) انظر كتاب الأنوار القدسية للإمام الشعراني ، (١/ ٧٠) .

وقَالَ الشَّيخُ مُحي الدِّينِ بنُ عَرَبي [١] رحمهُ اللهُ : " إِيَّاكَ أَنْ تَترَكَ المجَاهَدَةَ إِذَا لم تَر أَمَارةَ الفَتْحِ بعدَها ، وهَذَا الأَمرُ لازِمٌ لابُدَّ منه ، ولكنْ لِلفتحِ وقتٌ لا يَتَعَّداه ، فَلا تَتَّهمْ رَبَّكَ فإِنَّه لابُدَّ لأَعمالِكَ منْ الثَّمرَةِ إِنْ كُنتَ مُخلِصَاً لله تعالى في عَمَلِكَ "، ولـيَكُنْ قصْـدُه بِـذِكْرِه ودُعَائه وعِبَادَتِـه امتثـالَ أَمـرِه ، وقِيَامَـه بحـقِّ عُبُودِيَّتِه والتَّلـذُّذَ بمُنَاجَاتِـه تَعـالى والفوزَ بمُجَالَسَتِه ، فمنْ جَالسَ السُّـلطانَ لا يَهْتَمُّ بِمَأكَلِه ومَـشْرَبِه ومَلْبَسِـه مَـا دَامَ في خِدْمَتِه ، قَالَ بَعضُهُمْ : " فَتْرَةُ المرِيدِ بعدَ المجَاهَدَةِ من فسادِ الابتدَاءِ " [٢].

ويَترُكُ مَطَامعَ الـدُّنيا وشَـهَواتِها ويَـتْرُكُ جَاهَهـا، وتَبجِيـلَ النَّـاسِ وقيمتَـه عنـدَهم لأَجلِ تَركِهَا، لأَنَّه إِذا عُرِفَ بالزُّهْدِ في الدُّنيا عَظَّمُوه فيكونُ تَرْكُـه تَعْظِـيمَ الخلـقِ أَعظَـمَ منْ تركِه الأَولَ، لَكنْ إِذا أَخذَ الـدُّنيا بعـدَ إِخـراجِ محبَّتِهـا مـنْ قَلبِـه يَقْصِـدُ السِّـترَ لِنفسِـه ولِعِفَّتِه وغِنَاه عنِ المسْأَلةِ لَا يَكونُ إِلا لمنْ لَا أَتباعَ لَه مُقْتَدِينَ به، أَما منْ لَه أَتبَاعٌ يَقْتَـدُونَ به فَرُبَّما يَتَّبِعُونَه فَيَهْلَكُونَ بزَخَارِفِها وسِحْرِهَا، فإِنها أَسْحَرُ منْ هَارُوتَ ومَـارُوتَ بـنَصِّ

---

(١) هو الإمام محي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد ابن العربي الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بابن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر، من أئمة المتكلمين في كل علم، ولد في مرسية (بالأندلس)سنة (٥٦٠)هـ، وسمع بها من ابن بشكوال ثم انتقل إلى إشبيلية، قام بعدة رحلات، وسكن بلاد الروم، كان ممن تذعر له الأسود، فسئل عن ذلك فقال: خدمت بمكة بعض الصلحاء فقال لي يوماً: الله يذل لك أعز خلقه، برع في علم التصوف وله شطح في الكلام ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته، له نحو من أربعمائة كتاب، منها (الفتوحات المكية) في عشرة مجلدات، في التصوف وعلم النفس، و(محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار) في الأدب ، وله ديوان شعر أكثره في التصوف ، كتب عنه كثيرون قدحا ومدحا ، وصنفت مصنفات كثيرة بعضها في الترجمة له وبعضها في الدفاع عنه، أنكر عليه بعضهم (شطحات) صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه فحبس وسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي فنجا واستقر في دمشق حتى توفي فيها سنة (٦٣٨)هـ،[الأعلام (٦/ ٢٨١)، فوات الوفيات (١/ ١٩٤)] .

(٢) انظر كتاب الرقائق ، (١ / ١٧) .

الحدِيثِ[١]. وأَنْ يأَخذَ بالأَحوَطِ في دِينِه، ويَخرُجَ منْ خِلافِ العُلماءِ إِلى وِفَاقِهِم مَا أَمكَنَ ، طَالِباً وقُوعَ عِبَادَةٍ صَحِيحَةٍ عَلى جَمِيعِ المذَاهِبِ أَو أَكثَرَهَا ، ولَا يَتَّبعِ الرُّخَصَ ، فِلذَا قَالواْ: " إِذا انْحَطَّ الفَقِيرُ عنْ دَرَجةِ الحقِيقَةِ إِلى رُخَصِ الشَّرِيعَةِ فقدْ فَسَخَ عهدَه معَ الله تعالى ونَقَضَه".

ويَنبغِي له أن يُخفِيَ أَعمالَه وأَحوالَه التِي تَكونُ بينَه وبينَ الله عزَّ وجلَّ مَا أَمكنَ فَيَرْسَخَ في مَقامَاتِ مُراعَاةِ الله تعالى وحْدَه دُونَ غيرِه من خَلْقِه ، فَلا يَكَادُ أَحدٌ يَأْخُذُ منَ الفَقِيرِ الصَّادِقِ مَقَاماً ولَا يَعْرِفُ لَه حَالاً منْ شِدَّةِ كِتْمانِه ، وقدْ أَجمعَ أهلُ الطَّرِيقِ أَنَّ كُلَّ منْ يُريدُ حُبَّ الظُّهُورِ وأَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلى كَمالِه ، فَهُوَ مَقْطُوعٌ لا سِيَما إِذَا صَارَ النَّاسُ يَتَبَرَّكُونَ بِه فإِنه يَهْلَكُ بالكُلِّيَّةِ .

❁ ❁ ❁

فصْلٌ فِي آدَابِ الجلُوس

هُنَاكَ آدَابٌ لابُدَّ لِلمرِيدِ الصَّادِقِ أَن يَتَأَدَّبَ بِها فِي جُلُوسِه معَ العُبَّادِ والزُّهَّادِ ، والصَّالحِينَ ، والعُلماءِ العَاملِينَ ، والمسْلمِينَ ، والأَحداثِ ، والأَصَاغِرِ ، والأُمَرَاءِ.

فَالأَدَبُ معَ العُبَّادِ والزُّهادِ : يكونُ بِدَلالَتِهم عَلى الإِخْلاصِ ، وإِسقاطِ الحظُوظِ النَّفسَانِيَّةِ والشَّيطَانيةِ والرَّوحَانيَّةِ، والجلُوسِ معهُم عَلى بِسَاطِ الزُّهدِ والعِبَادَةِ ، ويُجَلِّي لَهم بَيانَ مَا اسْتَمْرَؤُوه ، ويُسَهِّلُ عَليهِم مَا اسْتَوعَرُوه ، ويُذَوِّقُهُم منَ المعْرِفَةِ مَا لَم

---

(١) روى الإمام البيهقي في شعب الإيمان [١٣/ ١٠٣] برقم (١٠٠٢٢)، وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا برقم(١٣٢)، عن أبي الدَّرْدَاءِ الرَّهَاوي ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم :«احْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ».

يَذُوقُوه .**والأَدَبُ معَ الصَّالحينَ:** أَنْ يُقَوِّيهِم عَلى تَحقِيقِ التَّوبةِ والاسْتِقَامَةِ. **والأَدَبُ معَ العُلَماءِ العَامِلِينَ :** إذا جَلسَ مَعَهُم فَلا يُحَدِّثُهم إلا بالعُلومِ المَنْقُولَةِ والرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ المَقْبُولَةِ ، إما أَنْ يُفِيدَهُم أَو يَسْتَفِيدَ منهُم ، وذلكَ غايةُ الرِّبحِ منهُم ، ويَدُلُّهم عَلى تَحقِيقِ الإِخْلَاصِ ، والصَّبرِ والحِلْمِ والتَّواضُعِ . **وَالأَدَبُ معَ المُسْلِمِينَ:** أَنْ يُحِبَّ لَهم مَا يُحِبُّ لِنَفْسِه أَو أَكثَر ، وأَنْ يَشْتَغِلَ بمصَالِحِهم ، ويَتَجَنَّبَ أَذِيَّتَهُم بِيدٍ أَو لِسَانٍ.

والأَدَبُ معَ الأَحدَاثِ: وهم ثَلاثةٌ : حَدَثُ السِّنِّ، وحَدَثُ العَقْلِ، وحَدَثُ الدِّينِ. **فَحَدثُ السِّنِّ:** هوَ الصَّغيرُ الذي لَم يُمَيزْ حَقَائقَ الأُمورِ ، فلَه ولُوعٌ بكُلِّ مَا يَرَاه أَو يَسْمَعُه من مُسْتَحْسَنٍ ، فَلا يَأمنْ غَائلتَه في الانْقِلابِ ، فالأَدَبُ معَه أَنْ يَنْصَحَه ويَزْجُرَه عن الأَوَامِرِ المَذْمُومَةِ ، ويُعَلِّمَه الأُصُولَ وتَرْكَ الفُضُولِ . **وحَدَثُ العقْلِ:** هوَ الذِي لَا يَثْبُتُ عَلى حالٍ ويَقْبلُ كُلَّما يُلقَى إِليه فُيُولَعُ به ولَا يَنْتَهِجُ عَلى طَرِيقَةٍ؛ يَتَّبِعُ كُلَّ نَاعِقٍ وهَذا أَعْظَمُ ضَرَرَاً منَ الذِي قَبْلَه لِفُقْدَانِ الحقِيقَةِ فيه، وعَدَمِ قَابِلِيَّتِها منه، فَالأَدَبُ معه بِنُصْحِه، وتَعْرِيفِه الوَجْهَ الذِي يَقْصِدَه، وبَيانِ الحقِّ له بَوجْهٍ واضِحٍ حَتَّى تَقُومَ الحُجَّةُ وتَظْهَرَ المحَجَّةُ ، فإنه إن كانَ على الفِطْرَةِ سَهُلَ عِلاجُه وقَرُبَتْ هِدَايَتُه. **وحَدَثُ الدِّينِ:** هوَ الذِي يَكُونُ معَ كُلِّ قَومٍ بِما هُم عَليه ، يَمِيلُ معَ كُلِّ رِيحٍ ، فالأَدَبُ معه بنُصْحِه ودَعْوَتِه إِلى إِفرَادِ الوُجْهَةِ ، وتَذْكِيره بِما فِي التّخْلِيطِ والتَّنويعِ من الضَّرَرِ.

والأَدَبُ معَ الأَصَاغِرِ: والمرَادُ بهم صِغَارُ السِّنِّ ، الذِينَ لم يَبْلُغُواْ سِنَّ الحدَاثَةِ والتَّمَكُّنِ فِيهَا ، فالأَدَبُ معَهم بإرشَادِهِم إلى مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ والآدَابِ ، وغَرْسِ الخيرِ والفَضَائلِ فِي قَلوبِهم ، قالَ بعضُ المشَايخِ: "أَرجَى القُلوبِ للخَيرِ التي لَم يَسْبِقِ الشَّرُّ إِليها "[1]. وكذَلكَ يحملُ الشَّفَقَةَ لَهمْ والإِرشَادَ والتَّأْديبَ، ويَحمِلُهم عَلى ما يُوجِبُه

(١) من كلام العلامة أبي زيد المالكي في رسالته المسمّاة بـ"رسالة القيرواني " [١/ ٧] .

المذهبُ، ويَدَلُّهم عَلى ما يُوجِبُه حُكْمُ المذهَبِ ، ويَدُلُّهم على ما فيه صَلاحَهُم لا عَلى مَا فِي مُرادِهِم ، وعلى مَا يُفِيدُهم لا على مَا يَحُبُّونَه ، ويَزْجُرُهم عَما لَا يَعْنِيهِم .

والأَدَبُ معَ السَّلاطِينِ والأُمَرَاءِ : بِطَاعتِهم وتَركِ مُنَازَعَتِهم عَلى ما هُم فيه ، وإِذا صَدَرَتْ مِنْهُم أُمورٌ شَاقَّةٌ أَو أَحْكَامٌ جَائرَةٌ نَصَحهُم إِذا كانَ مَقبُولَ الكَلامِ عندَهم ، لَكِنَّ نُصْحَهَم يَكُونُ معَ لِينِ الكَلامِ ، وضَرْبِ الأَمثَالَ من سِيرَةِ الخلفاءِ الرَّاشِدِينَ ؛ أَبي بَكرٍ وعُمرَ وعُثمانَ[1] وعَليٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم أَجمعينَ ، والمُلُوكِ العَادِلِينَ مِثلُ عُمرَ بنِ عبدِ العَزِيزِ ونحوِهم ممنْ سَلكَ سَبيلَهم واقتدَى بأَفعالِهم وتَخَلَّقَ بأَخلاقِهم ، وتَوضِيحِ المصْلَحَةِ العَائدَةِ لَهم في الدَّارينِ لِيُقْبَلَ المقَالُ ، فإِنَّ المرءَ مجبولٌ على حُبِّ مصَالحِ نفْسِه كما قالَ المثَلُ: "الإِنسانُ عبدُ الإِحسَانِ"[2]. فإِذَا لم تُقبَلِ النَّصِيحَةُ فالأَولَى

---

(١) هو سيدنا أمير المؤمنين ، ذو النورين، عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، القرشي ، الأموي ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، من كبار الذين اعتز بهم الإسلام ، ولد بمكة سنة(٤٧) قبل الهجرة ، وأسلم بعد البعثة بقليل. وكان غنيا شريفا في الجاهلية. ومن أعظم أعماله في الإسلام تجهيزه نصف جيش العسرة بماله، فبذل ثلاث مئة بعير بأقتابها وأحلاسها وتبرع بألف دينار ، لقب بذي النورين لأنه تزوج بنتي النبي صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم رقية ثم أم كلثوم ، كان شديد الحياء من الله تعالى، صارت إليه الخلافة سنة (٢٣) هـ فافتتح عدة بلدان، وأتم جمع القرآن ، وهو أول من زاد في المسجد الحرام والمسجد النبوي، وقدم الخطبة في العيد على الصلاة ، وأمر بالأذان الأول يوم الجمعة، واتخذ الشرطة ، ودارا للقضاء ، روى عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم(١٤٦) حديثا. نقم عليه الناس اختصاصه أقاربه بالولايات والأعمال ، فجاءت وفود من الكوفة والبصرة ومصر، فطلبوا منه أن يخلع نفسه، فلم يفعل، فحاصروه أربعين يوما ، ومنعوه من الماء والخروج للصلاة ، ثم تسور الجدار عليه بعضهم فقتلوه رضيَ اللهُ تعالى عنه بعد عيد الاضحى وهو يقرأ القرآن في بيته بالمدينة سنة (٣٥)هـ. [الأعلام(٤/ ٢١٠)].

(٢) هذا المثل من أمثال أبو بكر محمد بن المظفر الصنعاني ، كان يقول : "الإنسان عبد الإحسان، والحر عبد البر والطاعة على حسب الاستطاعة "، انظر كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبي (ص: ١٥).

لَه الصَّبرُ على البَلْوى ورَفْعُ الشَّكْوَى إِلى منْ يعلمُ السِّرَّ وأَخفَى ، ويَدْعُو لأَميرِه بِالتَّوفِيقِ للخيرِ والصَّلاحِ ، فعسَى أَنْ يهدِيَه الله تبارك وتعالى ، لأَنَّ الأُمَّةَ مَرْحُومَةٌ. وقد وَرَدَ في الحدِيثِ عنهُ عَليه أفضَلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التسْليمِ أَنه قال: «إِنَّ الله حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ» (١) .

ومِنْ أَدَبِ الغَنِيِّ في نَفْسِه: التَّواضُعُ والكَرَمُ ، فإِنْ خَلا مِنْ هَذينِ فَليسَ بأَدِيبٍ، وإِذَا خَلا الغَنِيُّ منَ الأَدَبِ التَحَقَ بالأَرْذَالِ، وانْخَرَطَ في سِلْكِ الأَنذَالِ، ولِذَلِكَ قِيلَ : "خَيرُ مَا أُعطِيَ الإِنسانُ عَقْلٌ يَزْجُرُه ، فإِنْ لم يَكُنْ فَحَياءٌ يَمْنَعُه ، فإِنْ لم يَكُنْ فمالٌ يَسْتُرُه، فإِنْ لم يَكُنْ فصَاعقَةٌ تُحرِقُه؛ يَسْتَرِيحُ منه العِبَادُ البِلَادُ "(٢).

❁ ❁ ❁

(١) حديث حسن، رواه أبو داود في سننه [١/ ٤٦٨] برقم (١٤٨٨) ، والترمذي في الجامع الصحيح [٥/ ٣٥٢] برقم(٣٥٥٦)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى [٢/ ٢١١] برقم (٣٢٧١)، والطبراني في المعجم الكبير [٦/ ٢٥٦] برقم (٦١٤٨) وابن حبان في صحيحه [٣/ ١٦٠] برقم (٨٧٦) ، عن سلمان الفارسي رضيَ اللهُ عنه .

(٢) ذكر الإمام الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام [٣/ ٣٨١] ، عن حبيب الجلاب قال : سألت ابن المبارك: ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل. قلت : فإن لم يكن ؟ قال : حسن أدب. قلت : فإن لم يكن ؟ قال : أخ شفيق يستشيره. قلت : فإن لم يكن ؟قال :صمت طويل. قلت : فإن لم يكن ؟قال : موت عاجل. وروى الإمام الطبراني في المعجم الكبير [١٧/ ١٠٨] حديثا برقم (٤٦٦) ، عن أسامة بن شريك قال : سُئِلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم ، مَا خَيْرُ مَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ ؟ قَالَ: «خُلُقٌ حَسَنٌ».

المرَاتِبُ التي يَمُرُّ بِهَا السَّالِك

إِنَّ تَوَجُّـهَ المرِيـدِ بِكُلِّيَّتِـه مـنْ أَقـوَى الأَسْبَابِ الموصِـلَةِ إِلى مَرْتَبَـةِ العَـارِفِينَ أَهـلِ الكَشْفِ والعيانِ لأَنَّ المجاهدةَ وإِن لم تَكـنْ شَرطـاً في تحصيلِ هـذه المرْتَبـةِ إِذْ قـدْ يَحظَى العبدُ بِرزقٍ من خَزائنِ مَولاه بحَسبِ المواهبِ والأَقدارِ بطَلبٍ وبغيرِ طَلبٍ فهيَ سَببٌ يُوصَلُ بِه غَالِباً كَالسَّبب فِي تَحصِيلِ الرِّزقِ .

وأَمَّا العَجزُ فَداءٌ عَقِيمٌ ، قالَ اللهُ تعَالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥] ، وقالَ اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي الحديثِ القُدُسِي: «ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ» (١)، وَوَرَدَ في الحديثِ: « إِنَّ لِرَبِّكُمْ في أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفحَاتٍ فَتَعَرَّضُوا لهَا لَعَلَّهُ أَنْ يِصِيبَكُمْ نَفْحَةٌ مِنْها فلا تَشْقَوْنَ بَعدَهَا أبداً» (٢) .

ولا يَصْـدُقُ التَّعـرُّضُ إِلا بالتَّوجُـهِ التَّـامِّ للحَـضْرَةِ العَلِيَّـةِ المقَدَّسَـةِ عـنِ الجهَـاتِ الكَونيَةِ، بِالتَّزكِيةِ وقَطعِ الحجُبِ السَّاتِرَةِ على القَلبِ، كَحُبِّ الدُّنيا واتِّبَاعِ الهوَى والشَّهَواتِ وغَيرِهَا ، وإِنفَاقِ الأَوقَاتِ في القُرُباتِ والطَّاعَاتِ معَ قَطْعِ المقَاماتِ التِي لابُدَّ للسَّـالكِ مـن قَطْعِهَـا ، كَالتَّوبـةِ ، والمحَاسَـبَةِ ، والمرَاقَبَـةِ ، والإِخْـلَاصِ ، والصِّـدقِ ، والزُّهْـدِ، والحضُورِ معَ الله تَعالى بالقَلْبِ، والتَّسليمِ، والتَّوَكُلِ وغيرِ ذلكَ، ممَّا هوَ في كُتُبِ القَـومِ مَشْحُونٌ ، والتَّبرِّي منَ الحولِ والقُوَّةِ والرُّجُوعِ إِلى حَولِه وقُوتِهِ سبحَانَه وتَعالى .

---

(١) هذا الحديث قد تقدم تخريجه ، صفحة (٨٦).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [٣/ ١٨٠] برقم (٢٨٥٦) ، وفي المعجم الكبير [١٩/ ٢٣٣] برقم (٥١٩)، عن محمد بن مسلمة الأنصاري رضيَ اللهُ تعالى عنه .

ومَعَ سَبقِ العِنَايةِ والتَّوفيقِ إِذَا تَحلَّى العَبدُ بما ذُكِرَ وتَخلَّى عَما ذُكِرَ معَ مُرَاعاةِ الشُّرُوطِ المعْلُومةِ عندَهم، كُشِفَ لَه الأَمرُ الذِي هوَ غايةُ المقْصُودِ، ونَالَ ما نالَه الرِّجَالُ منْ فضْلِ الله المعْبُودِ ، وانْتَظَمَ في سِلْكِ المعْنِيينَ بقولِ بعضِ الوَاصِفِينَ : [من الطويل]

رَجَالٌ سَمواْ بالصِّدقِ أَعلى المنَازِلِ ... عَلى المنهَجِ الأَسنَى بِسَيرِ المحَافِلِ
عِبادٌ صَفَواْ بالله واسْتَغرقُوا به ... وأُفنُواْ وأُبقُواْ بعدَ محوِ الرَّذائلِ
تَجوهَرتِ الأَسْرَارُ منهُم وقدْ عَلَواْ ... مقاماً لَهم في المجدِ أَسمَى المنَازِلِ
حُظُواْ باتِّباعِ المصطفى فتَصَيقَلتْ ... مَرايا قُلوبٍ أَشرَقتْ بالفضَائلِ
وأَسرَى إِليها منْ نَوَافِحِ سِرِّه ... عَوَاطِفَ سِرٍ لَا لها منْ مُمَاثِلِ
وإِمدَادُه منْ فَيضِ بَحرِ كَمالِه ... مِدَادٌ طَمى هَطَّالُه بالفَواضِلِ
زَكَتْ منهمُ الأَسْرَارُ معْ كُلِّ حَاضرٍ ... ومَشْرَبُهم يُزْرِي بِعَرفِ المنَاهِلِ(١)

ويَحقُّ لمنْ اقتَفَى هَؤلاءِ السَّادَةَ الأَبرَارَ ، واقْتَبَسَ منْ مِشْكاةِ أَسْرَارِهم فأَشْرَقَت عَليه الأَنوارُ أَنْ يقولَ بلسَانِ المقَالِ بعدَ مُسَاعَدَةِ الحَالِ : [من الخفيف]

نحنُ في عَيشَةِ الوِصَالِ الهنيَّة ... نَجْتَلِي الرَّاحَ في الكُؤُوسِ السَّنيةْ
قدْ لَبسْنَا هَيَاكِلَ النُّورِ لما ... فَارَقتْنَا الهيَاكِلُ البَشَرِيَّةْ(٢)

وأَمَّا منْ زَعَمَ أَنَّه يَبْلُغُ مقَامَاتِ الرِّجالِ على مَا هُو عليه منَ التَّلَبُّسِ بالأَخْلَاقِ المذْمُومَةِ، فهُوَ ذُو أُمْنِيَّةٍ محْضَةٍ وغُرُورٍ بَاطِلٍ ، فَعَلى اللَّبيبِ السَّالكِ سَبيلَ الإِنصَافِ المتَجَنِّبِ مَهَاوِيَ الاعْتِسَافِ أَن يَعرِفَ قَدْرَه، ولَا يَدَّعِي بُلُوغَ دَرَجةِ العَارِفِينَ أُولِي الحقَائقِ والأَحْوَالِ ، وهُو سَاقطٌ عنْ مَقامِ الرِّجَالِ، وليعْلَم أَنَّ الله سُبحانَه وتعالى مُطَّلعٌ

(١) هذه الأبيات لم أعثر على قائلها .

(٢) البيتان لم أعثر على قائلهما .

عَليه في جميعِ الأَقوالِ والأَحوَال ، فليَحذَرْ من قَولِه تَعالى :﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[الزمر: ٦٠] .

قالَ بعضُهُم: "إِذَا جَلَسْتَ للنَّاسِ واعِظَاً فَكُن واعِظاً لِنَفسِكَ وقَلبِكَ ، ولَا يَغُرَّنَّكَ اجتِماعُهُم عَليكَ فإِنَّهم يُرَاقِبُونَ ظَاهِرَكَ واللهُ تعالى يُرَاقِبُ بَاطِنَكَ"(١)، ورُوِيَ "أَنَّ الوَاعِظَ إِذَا جَلَسَ لِبَعْضِ النَّاسِ قَالَ لَه كَاتِبَاهُ :يَا عَبدَ الله عِظْ نفسَكَ بِما تَعِظْ بِه أَخَاكَ واسْتَحِ مِنَ سَيدِكَ فإِنَّه يَرَاكَ "(٢).

وعَلى مَا تَقَرَّرَ فلا فَلاحَ ولَا نَجَاةَ إِلا بترْكِ عَلَائقِ الدُّنيا الشَّاغِلَةِ ، والصِّدْقِ معَ الله تَعالى فِي المعَامَلَةِ ، وقَدْ قِيلَ شِعْرَاً : [من البسيط]

بالذَّوقِ والشَّوقِ نَالواْ عِزةَ الشَّرفِ ... لا بالدُّلُوق ولَا بِالعُجْبِ والصَّلَفِ

ومَذْهبُ القَومِ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ ... بها تَخَلَّقَتِ الأَجْسَادُ فِي النُّطَفِ

صَبرٌ وشُكرٌ وإِيثَارٌ ومَخمَصَةٌ ... وأَنفُسٌ تَقْطَعُ الأَنفَاسَ باللهفِ

والزُّهدِ في كُلِّ فَانٍ لَا بقَاءَ لَه ... كَما مضَتْ سُنَّةُ الأَخيَارِ والسَّلَفِ

قَومٌ لِتَصْفِيةِ الأَروَاحِ قَدْ عَمِلُواْ ... وسَلَّمُواْ عَارِضَ الأَشْبَاحِ للتَّلَفِ

لا بالتَّخَلُّفِ في المعرُوفِ تَعْرِفُهم ... ولا التَّكَلُّفِ في شَيءٍ مِنَ الكُلَفِ

مَا ضَرَّهُم رِثُّ أَطْمارٍ ولَا خَلَقٍ ... كَالدُّرِ ما ضَرَّهُ مُحلولَقُ الصَّدَفِ

واشِقْوَتِي إِنْ تَوَلَّتْ أُمَّةٌ سَلَفَتْ ... حتَّى تَخَلَّفتُ في خَلْفٍ مِنَ الخَلَفِ

يُنَمِّقُونَ تَزَاوِيرَ الغُرُورِ لَنا ... بالزُّورِ في القَولِ والبُهتَانِ والحَلِفِ

لَيسَ التَّصَوفُ عُكَّازاً ومِسْبَحَةً ... كَلَّا ولَا الفَقْرُ رُؤيَا دَلقِكَ التَّرفِ

---

(١) انظر كتاب إحياء علوم الدين ، (٤/ ٣٩٧) .

(٢) انظر كتاب الرسالة القشيرية ، (١/ ٩٩) .

وأَنْ تَـــرُوحَ وتَغـــدُو في مُرَقَّعَـــةٍ ... وتحتَهـــا مُوبقَـــاتِ الكِـــبرِ والسَّـــرَفِ
وتُظْهِـرَ الزُّهـدَ في الـدُّنيا وأنـتَ عَـلى ... عكُوفِهـا كَعُكُـوفِ الكَلْـبِ في الجِيَـفِ
الفَقـــرُ سِرٌ وعنـــكَ الـــنَفسُ تَحجبُـــه ... فـارْفَع حِجَابَـكَ تَجلُـو ظُلْمَـةَ الصَّـدَفِ
وفَـارِقِ الجنسَ وافـنِ الـنَّفسَ في نَفَـسٍ ... وغِبْ عنِ الحِسِّ واجْلِبْ دَمعَةَ الأَسَفِ
واخضَـع لَـه وتـذَلْ إنْ دعيـتَ لـه ... واعـرِفْ محلَّـكَ مـنْ إيَّـاكَ واعْـتَرِفِ
وقِـفْ عَـلى عَرَفَـاتِ الـذُّلِّ مُنكَـسِراً ... وحـولَ كَعْبَـةِ عِرْفَـانِ الصَّـفَا فَطُـفِ
وادخُـلْ إلى خُلْـوَةِ الأَفكَـارِ مُبتكِـراً ... وعُـدْ إلى حَانَـةِ التِّـذْكَارِ بالصُّـحُفِ
واتْـلُ المَثَـانِي وَوَحِّـدْ إنْ عَزَمـتَ عـلى ... ذكرِ الحبيبِ وصِفْ مَا شِئتَ واتَّصِفِ
وإنْ سَـقَاكَ مُـديرُ الـرَّاحِ مـن يَـدِه ... كـأسَ الـتَّجَلِّي فُخُـذْ بالطَّاسِ واغْـتَرِفِ
واشْرَبْ وأَسْـقِ ولا تَبْخَـلْ عَـلى ظَمـأٍ ... فـإنْ رَجَعْـتَ بَـلا رَيٍّ فَيَـا أَسَـفِي[1]

وللإمامِ المَقْدِسِيِّ[2] رحمهُ اللهُ تعالى : [من الكامل]

ذَهَـبَ الرِّجَـالُ وحَـالَ دُونَ مجَـالِهِمْ ... زُمَـرٌ مِـنَ الأَوبْـاَشِ وَالأَنـذَالِ
زَعَمُـواْ بـأَنَّهُمُ عَـلَى آثَـارِهِمْ ... سَـارُواْ ولكِـنْ سِـيرَةَ البَطّـالِ

---

(١) هذه القصيدة للشيخ محمد بن جمال الدين العاملي ، الملقب بالشهيد الأول ، من أعلام الشيعة ، ولد سنة (٧٣٤)هـ ، وقتل سنة (٧٨٦) هـ بدمشق ، وله شعر قليل إلا أنه يمتاز بجمال التعبير وجودة الأداء .

(٢) الإمام الحافظ تقيُّ الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور، المقدسي، الدمشقي، الصَّالحي، الحنبلي، ولد بجمَّاعيل من الأرض المقدسة، سنة (٥٤٤)هـ ، قدم إلى دمشق فتتلمذ على علمائها وأخذ عنهم الفقه وغيره من العلوم، ثم ارتحل إلى بغداد فنزل عند الشيخ عبدالقادر الجيلاني وأقام بها نحو أربع سنين، اشتغل فيها بالحديث والفقه، كان أمير المؤمنين في الحديث ، وكان آية في الحفظ لا يكاد يسأل عن حديث إلا ذكره وبينه، وذكر صحته أو سقمه، ولا يسأل عن رجل إلا قال: هو فلان بن فلان الفلاني ويذكر نسبه، كان من المكثرين في التصنيف، ومعظم تأليفه في الحديث، ومنها عمدة الأحكام ، والكمال في أسماء الر جال، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى بمصر، سنة (٦٠٠)هـ. [سير أعلام النبلاء:(٢١/ ٤٤٣)].

لَبِسُوا الدُّلُوقَ مُرَ قَّعاً، وَتَقَشَّفُواْ ... كَتَقَشُّفِ الأَقْطَابِ وَالأَبْدَالِ
عَمَرُوا ظَوَاهِرَهُمْ بِأَثوَابِ التُّقَى ... وَحَشَوْاْ بَوَاطِنَهُمْ مِنَ الأَدْغَالِ
إِنْ قُلْتَ: قَالَ اللهُ، قَالَ رَسُولُهُ ... هَمَزُوكَ هَمْزَ المُنْكِرِ المُتَغَالِي
وَيَقُولُ: قَلْبِي قَالَ لِي، عَنَ سِرَّهِ، ... عَنْ سِرِّ سِرِّي، عَنْ صَفَا أَحْوَالِي
عَنْ حَضْرَتِي، عَنِ فِكْرَتِي عَنْ خَلْوَتِي ... عَنْ شَاهِدِي عَنْ وَارِدِي عَنْ حَالِي
عَنْ صَفْوِ وَقْتِي، عَنْ حَقِيقَةِ مَشهدي ... عَنْ سِرَ ذَاتِي، عَنْ صِفَاتِ فِعَالِي
دَعْوَاه، إِنْ حقَّقْتَهَا، أَلْفَيْتَهَا ... أَلْقَابَ زُورٍ، لُفِّقَتْ بِمُحَالِ
تَركُواْ الحَقَائِقَ وَالشَّرائِعَ، وَاقْتَدَوْاْ ... بِظَوَاهِرِ الجُهَّالِ وَالضُّلَّالِ
جَعَلُواْ المِرَا فَتْحاً، وألفَاظَ الخَنَا ... شَطْحاً، وَصَالُواْ صَوْلَةَ الإِدْلالِ
نَبَذُواْ كِتَابَ الله خَلْفَ ظُهُورِهْم ... نَبْذَ المُسَافِرِ فَضْلَةَ الأَكَّالِ
وتَرَصَّدُواْ أَكلَ الحَرَام تَخَادُعاً ... كَتَخَادُعِ المتَلَصِّصِ المحْتَالِ
فاحْذَرْهُمُ واحْفَظْ مَودَّة سَادَةٍ ... قَامُواْ بِذكْرِ الله في الآصَالِ
القَانِتِينَ المُخْبِتِينَ لِرَبِّهِم ... النَّاطِقِينَ بأَصْدَقِ الأَقْوَالِ
التَّارِكِينَ حُظُوظَهُم ونُفُوسَهُم ... المؤثِرِينَ بخَالصِ الأَمْوَالِ
مَا شَانَهُم فِي شَأْنِهِم كَذِبٌ ولَا ... عَمَلٌ لقَصْدِ رِيَاً ولَا لجدَالِ
عَمِلوا بِما عَلِمُواْ وجَادُواْ بالذي ... وجَدَواْ وما بخِلُواْ بفضْلِ نَوَالِ
وإِذا بَدا لَيلٌ سَمِعْتَ أَنِينَهم ... وحَنِينَهُم بِتَضَرُّع وسُؤَالِ
وعُيونُهم تَجرِي بَفَيضِ دُمُوعِهم ... مِثْلَ انْهِمَالِ الوَابلِ الهطَّالِ
مُتَفَاوِتِينَ بقُربِهم وبِحُبِّهم ... كَتَفَاوتِ العُمَّالِ في الأَعمالِ
في اللَّيلِ رُهْبَانٌ لِخِدْمَةِ رَبِّهم ... وتَرَاهُمُ في الحَرْبِ كَالأَبطَالِ
تَاهُواْ عَلى كُلِّ الملُوكِ وإِنَّهم ... لَهُمُواْ المُلُوكُ بِعِزَّةِ الإِقبَالِ
ولَرُبَّ أَشْعَثَ حَقَّرَتْهُ دُلُوقُهُ ... ولَدَى المليكِ هُو العَزِيزُ الغَالِي

خُمصُ البُطُونِ لِمَا بِهِم مِنْ فَاقَةٍ ... شُعثُ الرُّؤُوسِ لَرَوعَةِ الأَهوَالِ
لم تَخلُ أَرضٌ منهُمُ قَدْ حَكَّمُواْ ... ذَاتَ اليَمِينِ بِهَا وذَاتَ شِمَالِ
مَثْوَاهُمُ بينَ الثُّرَيَّا والثَّرَى ... والعَرْشِ والفَرشِ الرَّفيعِ العَالي
لا يَنظُرونَ إِلى سِوَى مَحبُوبِهِم ... شُغْلاً بِهِ عنْ سَائِرِ الأَشْغَالِ
فَهُمُ إِليكَ وسَيلَتِي يَا سَيِدِي ... إِلَّا وصَلْتَ حِبَالَهُم بِحِبَالِي
وآخَيبَةَ الآمَالِ إِنْ أَقصَيتَنِي ... عَن بَابِهِم وآخَيبَةَ الآمَالِ[1]

واعلمْ أَنَّ من أنفعِ الوسائلِ إلى تهذيبِ النَّفسِ هو التَّخلُّقُ بأَخلاقِ الصَّالحينَ، ومطَالعةُ الكتبِ النَّافعةِ المتَضَمِّنةِ بيانِ طريقِ الآخرةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ ، المشْحُونَةِ بذكرِ الأَخلاقِ المذْمُومَةِ وعِلَاجِها ؛ ككُتُبِ حُجَّةِ الإِسلَامِ أَبي حَامدٍ الغَزالي رحمهُ اللهُ تعالى ، وقدْ لخصَ سَيدي الشَّيخُ عبدُ الله بنُ علوي الحدَّاد رحمهُ اللهُ تعالى فِي بَعضِ مُصَنَّفاتِه زُبدَةً منْ كَلامِ حُجَّةِ الإِسْلَامِ ، وقال إِنَّ الأَولى للمريدِ السَّالكِ أَنْ يُطالعَ الكتبَ الغَزَّاليةِ أَولاً ، ثُمَّ يطالعَ الكتبَ الشَّاذِليةِ .. إِلى آخرِ ما قالَ[2]، وقالَ نفعنا الله به في مدحِ الإِحياءِ العَظيمِ الشَّأنِ الَّشارِحِ للكِتابِ والسُّنةِ أَبياتاً وهيَ هذِه : [من الطويل]

---

(١) هذه القصيدة للإمام شيخ الاسلام العز بن عبد السلام رحمَهُ اللهُ تعالى، ذكرها الشيخ محمد بن الحسن الثعالبي في كتابه "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي [٣/ ٦٢] "، وهي من أعجب القصائد التي تميز الصوفيين الحقيقين من المدعين الكاذبين ، وهي أيضاً من القصائد التي يتشبث بها أعداء التصوف زاعمين أنها تذم الصوفية وهي إنما تذم المدعين للتصوف من غير حقيقة كما هو ظاهر، ولا نختلف معهم في ذلك ، وقد أجروا عليها زيادات وكذا حذف لما لا يروق ..، ويقولون: أنها لابن القيم الجوزية في ذم الصوفية، وبالرجوع الى كتاب ابن القيم المسمى "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان[١/ ٢٣١] "، نجد أنه قال: "وقال آخر وأحسن ما شاء ": .. ثم أورد القصيدة بطولها، ولم ينسبها لنفسه ولم يعزوها إلى معين، كما أنني لم أجد من نسبها للإمام المقدسي. والله أعلم.

(٢) قال رحمَهُ اللهُ تعالى :" لا ينبغي للطالب أن يبتدئ بمطالعة كتب الشاذلية حتى يطالع أولاً غيرَها قبلها ويحكمها، ككتب الإمام الغزالي ، ثم يطالع بعد ذلك كتب الشاذلية ليستفيد" .

بإِحيَـاء عُلـوم الـدِّينِ تَحيـا قُلوبُنـا ... ويُكشَـفُ عنَّـا غَمُّنـا وكُرُوبُنـا
كتَـابٌ حَـوى العلـمَ الـذي هـوَ نَـافعٌ ... مؤَلِّفُـه أُسـتَاذُنا وطَبيبُنـا
كتَـابٌ حَـوى علـمَ الكِتَـابِ وسُـنةٍ ... ومَـا قَالَـه أَوَّاهُنـا ومُنِيبُنـا
مَوَارِيـثُ أَسْـلافٍ لَنـا وأَئمـةٍ ... مَضَـواْ وعَـلى آثَـارِهِم مُسـتَجِيبُنا
إِذا نُشـرَتْ أَعْلَامُـه وعُلومُـه ... وأَبـصَرَهَا عَلَّامُنـا ومُصِـيبُنا
تَحقَّـقَ أَنَّ العِلـمَ فيـه بـأَسْرِه ... ولم يسْـتَرِب في مثـلِ هَـذا أَرِيبُنـا
وقَـدْ أَطنـبَ الشَّـيخُ الإِمَـامُ بِوَصْـفِه ... أَبُـو المكْرُمـاتِ العَيـدَرُوسُ حَبيبُنـا
وكَـم غـيرُه مـن عَـارِفٍ ومُحَقِّـقٍ ... وحَـبرٍ عَلـيمٍ والإِلـهُ حَسِـيبُنا[1]

وقَال الإمامُ الشِّلي رحمهُ الله[2] في المشْرَعِ الروي: " إنَّ من أَنفعِ العُلومِ وأَكثَرِها لِخيرَي الدُّنيا والآخرةِ جمعاً؛ وأَشَدُّها في حياةِ القلوبِ وقْعَاً، معرفةُ سِيَرِ الأَولياءِ العَارفينَ الذينَ هم بأَقوالِهم وأَفعالِهم على الله تعالى دَالِّينَ، فَيحْصُلُ بذلكَ حُسْنُ الظَّنِّ بهم ومحبَّتُهم الموصِلَةُ إِلى أَعلى الرُّتَبِ، بقَولِه صَلى الله عليه وسلَّم: «المرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»"[3]، وخُصُوصَاً الاعصَارُ القَريبَةُ لِكَونِهم أَقبلُواْ على الله تعالى في زَمانِ الإِدبَارِ وبَصَّرَهُم الله حينَ عَمِيَتِ الأَبصَارُ، وزَهِدُواْ وقَنِعواْ باليسيرِ لما عمَّ الحرصُ والطَّمعُ

---

(١) ديوان الإمام الحداد، (ص:٤٩٧)، والأريب: هو الرجل العاقل ذو الأخلاق اللطيفة والفطنة الذكية.

(٢) هو جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد، الحسيني، الشلي، باعلوي، مؤرخ وفلكي، ولد في تريم (بحضرموت) سنة (١٠٣٠) هـ، نشأ مترددا بين ضمار وظفار (باليمن)، رحل إلى الهند ثم إلى الحجاز، ثم أقام بمكة، من كتبه (السنا الباهر بتكميل النور السافر) و(المشرع الروي في مناقب آل أبي علوي)، و(عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر)، توفي سنة (١٠٩٣) هـ، [الأعلام (٦/ ٥٩)].

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم (٦١٦٨)، ومسلم برقم (١٦٥)، ورواه البيهقي في شعب الإيمان [٢/ ٤٧] برقم(٤٩٦)، ورواه والترمذي في الجامع الصحيح [٤/ ٣٢١] برقم (٢٣٨٥)، والإمام أحمد [٢٠/ ٧٤]برقم (١٢٦٢٥)، والطبراني في المعجم الكبير [٨/ ٥٤] رقم (٧٣٤٨)، عن صفوان بن عسال.

في هذِه الدَّارِ . فَتمسَّكْ يا أَخِي بأَذْيَالِهِم ، تَكُن إِنْ شَاءَ الله عزَّ وجلَّ على بَالِهِم ، وتَظْفَر بخَيرَاتِ الدُّنيا والآخِرَةِ بِبَرَكَاتِهِم ، جَعلنا الله ممنْ يُحبُّ أَولياءَ الله تعالى.. آمين[١].

وفي الفتحِ المبينِ لِسَيدِي عبدِ الرَّحمنِ بنِ مصطفى العيدرُوس[٢] قدَّسَ الله تعالى سِرَّه، قال: ومنْ نتائجِ الوُصُولِ حُسْنُ الظَّنِّ في المشَايخِ ، وحُسنُ الظَّنِّ في أَولياءِ الله تعالى.. إِلى أَنْ قالَ-بَعدَ أَن ذَكرَ ما ذَكرَ مما يَتعلَّقُ بذلِكَ- : فإِن قُلتَ أَينَ المشَايخُ ؟ أَينَ الأَولياءُ ؟. فالجوَابُ: أنّ " مَنْ جَدَّ وَجَدَ "، ولَو طَلبتَهم كطَلبِكَ لِلماءِ البَاردِ عندَ العَطَشِ لَوَجَدتَّهم، فإِنَّه لابُدَّ في كُلِّ عصرٍ من وجُودِ أَهلِ الدَّرَكِ فيه، مثلُ القُطْبِ والإِمَامَينِ والأَوتَادِ وغَيرِهِم، ولابُدَّ في كلِّ عصرٍ من وجودِ مائةِ أَلفِ وليٍّ وأَربعةٍ وعِشْرِينَ أَلفِ وَليٍّ على عَدَدِ الأَنبياءِ ،وقَد يَزِيدُونَ ولَا يَنقُصُونَ فافهَم . وعَلى تقديرِ عَدَمِ وجْدَانِهم لِعدَمِ رُؤيتِكَ إِيَّاهُم لَا لِعَدَمِهِم ، كَما قالَ شَيخُنَا العَلَّامةُ الوَجِيهُ ؛ السَّيدُ عبدُ الرَّحمنِ بنُ عبدِ الله بَلْفَقِيه العَلَوي[٣] قدَّسَ الله سِرَّه: [من الطويل]

---

(١) انظر كتابه المسمى "المشرع الرَّوي في مناقب السادة آل باعلوي (١/ ٣١٣)" .

(٢) الإمام العلامة عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس، الحسيني، الإمام الكبير والعلم الشهير، أديب وشاعر ، ولد في مدينة تريم سنة (١١٣٥) هـ ، أخذ عن والده وعن السيد عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه ، وعن السيد العلامة غلام حيدر الحسيني، والسيد فضل الله بن أحمد الهندي والحافظ المسند محمد حياة السندي وغيرهم، له تصانيف كثيرة ؛ ومنها: (تنميق الأسفار) فيما جرى له الأدباء في أسفاره، و(تنميق السفر) فيما جرى عليه وله بمصر، و(العرف العاطر في معرفة الخواطر)، و(النفحات المدنية)، وله ديوان: (ترويح البال وتهييج البلبال)، وغير ذلك توفي رحمَهُ اللهُ بمصر سنة (١١٩٢) هـ [الأعلام (٣/ ٣٣٨)].

(٣) الإمام العلامة وجيه الدين عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه ، العلوي ، الحسني ، الشافعي ، التريمي ، علامة الدنيا ، محدث مسند ، ولد بمدينة تريم سنة (١٠٨٩) هـ ، نشأ في بيئة علم وصلاح وتقوى ، وتلقى فنون العلم عن والده وعن عدد من شيوخ عصره ، ومن أجل شيوخه الإمام الحداد وقد كان يقول فيه : والله ما في الأكوان مثل عبدالرحمن ، وقد لازمه حتى مات ، انتفع به خلق لا يحصون ، له كتب عده ومنها رفع الاستار عن مفاتيح الانوار ، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (١١٦٢) هـ . [معجم المؤلفين (٥/ ١٤٨)] .

ومَا قَلَّ أَهلُ النُّورِ والفَضْلِ والصَّفَا ولكنَّهَا قَلَّتْ عُيونُ البَصِيرَةِ

وقد كانَ سيدي العارفُ بالله تعالى أَبو العباسِ أَحمدُ بنُ عُقبةَ الحضْرَميُّ[١] تِلميذُ العَيدروسِ[٢] يقولُ: وعلَيكَ بدوامِ الذِّكرِ وكثْرةِ الصَّلاةِ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم، فهيَ سُلَّمٌ ومِعْرَاجٌ إِذَا لم يَلْقَ الطَّالبُ شَيخاً ومُرْشِداً "[٣].اهـ .

ويَنبغِي معرفةُ شيءٍ منْ مُصْطَلَحَاتِ القَومِ لا سِيما لمرِيدِ السُّلوكِ، وذلكَ أَنَّ كلَّ طائفةٍ منَ العُلماءِ لهم أَلفاظٌ اصْطَلَحُواْ عليها ، تَقْريباً على المخَاطبينَ وتَفْهيماً للطَّالبينَ، وللقَومِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم أَلفَاظٌ يَسْتَعْمِلُونها فيما بينَهم ، قصَدُواْ بها الكشفَ عن معانِيهِم لبعضِهم معَ بعضٍ، والإِجمالِ والسَّترِ على منْ بَايَنَهُم في طَريقِهم، لتكونَ معاني أَلفاظِهم مُشْتَبِهَةً على الأَجانبِ غيرَةً منهُم على أَسْرَارِهم أَنْ تَشيعَ في غيرِ أَهلِها ، لأَنها معادنُ أَودعَها الله تعالى قُلوبَهم ، واسْتَخْلَصَ لها أَسْرَارَهُم ، قال سَيدِي عبدُ الله بنُ عَلَوي الحدّاد نفعنَا الله به مُشيراً إِلى قليلٍ منها ومُحَرِّضاً عَلى مَعْرِفتِها[٤]: [من الطويل]

وحقِّقْ طَريقَ القَومِ واعْرِفْ أُصُولَها وكُلَّ اصْطِلَاحٍ بينَهم في الطَّرِيقَةِ

كَفَرْقٍ وجَمْعٍ والحضُورِ وغَيبَةٍ وصَحْوٍ ومَحْوٍ وانفْصَالٍ وَوصْلَةِ

---

(١) قال عنه صاحب كتاب: [الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع(١٠/ ٤١٨)]: هو أحمد بن عقبة اليماني الحضرمي، ثم المكي، دام بالقاهرة مدة حتى مات في شوال سنة (٨٩٥)هـ ، بتربة من الصحراء.

(٢) هو الإمام الشهير والعلم الكبير القطب أبو محمد عبد الله العيدروس بن أبي بكر السكران بن عبد الرحمن السقاف ، العيدروس ، العلوي، الحسيني، التريمي ، صوفي كبير، ولد بتريم في العشر الأول من ذي الحجة سنة (٨١١)هـ ، وشهرته تغني عن التعريف به ، من مؤلفاته : الكبريت الأحمر ، وشرح قصيدة سعيد بلحاف ، وله مؤلف في مناقب شيخة سعد بن علي ، وتوفي لاثنتي عشرة خلت من رمضان سنة (٨٦٥) هـ، ودفن في تريم بمقبرة زنبل وقبره مشهور ويزار. [معجم المؤلفين (٦/ ٣٨)]

(٣) الفتح المبين للعلامة عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس ، (ص: ٤٧١-٤٧٣) .

(٤) ديوان الإمام الحداد ، (ص: ١١٧).

مُصْطَلَحَاتُ القَوْمِ

سَنَقْتَصِرُ على بيانِ ذلكَ على وجهِ الاخْتِصَارِ منْ كَلامِهم ، فَنَقُولُ : إِنَّ منْ اصْطِلاحِهم :

الأَوَّلُ : مَقَامُ الفَرْقِ والجمْعِ :

فالجمْعُ: هوَ الاسْتِغْرَاقُ في شُهود عظَمَةِ الله تعالى وصِفَاتِ جَمالِه وجَلالِه ، فصَاحبُ هذا المقَامِ دَائمُ المرَاقبَاتِ مغمورٌ بالرَّحَماتِ رَضِيعُ ثَديِ المشَاهَداتِ بإِشْرَاقِ أَنوارِ التَّجَلِّياتِ.

والفَرْقُ: يقالُ لَه التَّفرِقَةُ مأَخوذٌ من تَفْرقَتِه في الكائناتِ معَ الحقِّ ، فمنْ أَشهَدَه الحقُّ سبحَانَه وتَعالى أَفعالَه منْ طَاعَاتِه ومُخالفَاتِه فهوَ عبدٌ بِوَصفِ التَّفرِقَةِ.

ولابُدَّ للعبدِ في حالِ سُلوكِه منْ هَذينِ المقَامينِ أَعنِي الفَرْقَ والجمْعَ، فمنْ لا فرقَ لَه لا عُبودِيَّةَ لَه، ومن لا جمعَ له لا مَعْرِفةَ لَه، ففِي قولِه تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]، إِشَارةٌ إلى الفرقِ المقْتَضِي للتَّفْرِقَةِ بينَ العَابدِ والمعْبُودِ، والاسْتِقلَالُ باعتبارِ ظَاهرِ الحالِ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، إشارةٌ إلى الجمعِ المقتَضِي للتَّبرِّي من الحولِ والقُوَّةِ إلا بالحقِّ ، والرُّجوعِ إلى الكَبيرِ المتَعَالِ ، وعلى مَا تقرَّرَ فالمرادُ بلفْظِ الجمعِ المَواهبُ وبلفظِ التَّفرقةِ المكَاسِبُ ، وهذا المقامُ مما يَدِقُّ على الفِكْرِ إِدْرَاكُه ولا يَتَحَقَّقُه إِلا من حضِيَ به ذَوقاً.

وقدْ قالَ الجنيدُ شَيخُ الطَّريقةِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه:" التَّصديقُ بطَرِيقتِنا هذِه ولايةٌ صُغرَى"[1]، فَلا يَنبغِي لمنْ لا يَعلم إِلا التَّسليمُ لمنْ يَعلم، لِيكُونَ على أَيِّ حَالتَيه أَسلم.

---

(١) ذكره ابن عجيبة في إيقاظ الهمم ، (ص: ١٦٩) عن الشيخ أبي الحسن رحمَهُ اللهُ تعالى .

الثَّاني : مقَامُ الغَيبةِ والحضُورِ:

أَمَّا الغَيبَةُ: فَغيبةُ القلبِ عنْ عِلمِ ما يجرِي من أَحوالِ الخلْقِ، لاشْتِغَالِ الحسِّ بما وردَ عليه، ثُمَّ قد يَغيبُ عن إِحسَاسِه بنفسِه وغيرِه ، بِوَارِدٍ من تَذَكُّرِ ثَوَابٍ أَو عِقَابٍ .

وأَمَّا الحضُورُ: فقدْ يكونُ حَاضِراً بالحقِّ لأَنه إذا غَابَ عن الخلْقِ حَضَرَ بالحقِّ، على معنى أَنه يَكونُ كأَنَّه حَاضرٌ ، وذلكَ لاسْتِيلَاءِ ذكرِ الحقِّ جَلَّ وعَلا على قلْبِه فهوَ حَاضرٌ بقلبِه بينَ يدَي رَبِّه ، فحَسَبَ غَيبَتِه عنِ الخلْقِ يكونُ حُضُورُه بينَ يدَي الحقِّ .

الثَّالثُ : مَقامُ المحْوِ والإِثْبَاتِ :

فَالمحْوُ : رَفعُ أَوصَافِ العَادةِ بغيرِها. والإِثْبَاتُ :إِقامةُ أَحكامِ العِبَادةِ، ومَنْ نَفَى عنه أَحْوالَه الذَّمِيمَةَ وأَتى بدَلها بالأَفعَالِ والأَحوالِ الحميدَةِ فهوَ صَاحبُ محوٍ وإِثْبَاتٍ.

الرَّابعُ : مَقَامُ الصَّحْوِ والسُّكْرِ:

فالصَّحوُ: رجوعٌ إِلى الإِحسَاسِ بعدَ الغَيبةِ مُطلقاً.

والسُّكرُ: غيبةٌ بواردٍ قويٍّ، وهو زِيادةٌ على الغَيبةِ من وجهٍ، وذلكَ أنَّ صاحبَ السُّكرِ قد يكونُ مَبسوطاً إِذا لم يكنْ مُستوفياً في حالِ سُكرِه، وقد يسقطُ إِخطَارُ الأَشياءِ عنْ قلْبِه في حالِ سُكرِه، وقدْ يَقوَى سُكرُه حتى يزيدَ على الغيبةِ، فربما يكونُ صَاحبُ السُّكرِ أَشدَّ غيبةً من صَاحبِ الغَيبةِ إِذا قويَ سُكرُه.

وربَّما يكونُ صَاحبُ الغيبةِ أَتمَّ في الغيبةِ منْ صَاحبِ السُّكرِ ، إِذا كانَ غيرَ مُسْتَوفٍ ، والغيبةُ قد تكونُ للعِبادِ ، بِما يَغلبُ عَلى قُلوبِهم منْ مُوجِبِ الرَّغبةِ والرَّهبةِ والخوفِ والرَّجاءِ، والسُّكرُ لا يكونُ إِلَّا لِأَصْحابِ المَوَاجِيدِ .

الخَامسُ : مَقَامُ الوَصْلِ : وهوَ تَلَذُّذُ القَلبِ بشُهودِ الحقِّ، بعدَ زَوالِ الحُجُبِ الظُّلمانِيَّةِ والنَّورَانِيَّةِ، فإِن دَامَ له الشُّهودُ يُقالُ لَه وصَلَ الوَصْلَ الكَامِلَ، كقَولِهم سِرُّ

السِّرِّ وعَينُ العَينِ، مُبالغَةً في كمالِ الشَّيءِ، ومن ذلكَ الشُّربُ والذَّوقُ، ويُعَبِّرونَ بذلك كما قالَ الإمام القُشَيريُّ[١] عما يجِدونَه من ثمراتِ التَّجَلي ونتائجِ الكُشُوفاتِ وبَوَادِرِ الوَارِدَاتِ في أَول ذلكَ الذَّوقِ ثم الشُّربِ والرَّيِّ.

السَّادِسُ: مَقَامُ السَّترِ والتَّجَلي: فالعمُومُ يكونُ في غِطَاءِ السّترِ، والخصُوصُ في دَوَامِ التّجلي، فهوَ كما قالَ السَّيدُ الشَّريفُ الجُرجَانِي [٢] في تَعْرِيفَاتِه: هوَ ما يَنكَشِفُ للقُلوبِ منْ أَنوَارِ الغُيوبِ[٣]، والسّترُ كما قالَ القُشَيريُّ[٤] للعَوَامِ عُقُوبَةٌ وللخَواصِ رحمةٌ، وقالَ غيرُه: ليسَ كذَلكَ بلْ رَحمةٌ أَي للعَوامِ لاشْتِغَالهم بقوَامِ الدنيا من الحرَفِ والصَّنائعِ وهيَ فَرضُ كِفَايةٍ فِي حَقِّهِم، والله أَعلم .

السَّابعُ : مقامُ المحَاضَرةِ والمكَاشَفَةِ والمشَاهَدَةِ:

فَالمحَاضَرةُ تَكونُ ابتِدَاءً ثمَّ المكَاشَفَةُ ثُمَّ المشَاهَدةُ .

والمحَاضَرَةُ : هيَ حُضورُ القَلبِ معَ الحقِّ تعالى بالبرْهانِ ، وقد يَكونُ بِتَواتُرِ البُرهَانِ ، وهوَ يُعَدُّ وراءَ السَّيرِ ، وإِن كانَ حَاضِراً لاسْتِيلاءِ سُلطَانِ الذِّكرِ .

والمكَاشَفةُ: هيَ حُضُورُه بنَعتِ البيَانِ غَيرُ مُفْتَقِرٍ في هذه الحالةِ إِلى تأَمُّلِ الدَّليلِ وتَطَلُّبِ السَّبِيلِ ، ولا مُسْتَجِيرٍ من دَوَاعِي الرَّيبِ ، ولا محجُوبٍ عنْ نعْتِ الغُيوبِ.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية ، (ص:٧٠) .

(٢) هو العلامة الشريف علي بن محمد بن علي ، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف، من كبار الأدباء والعلماء بالعربية، ولد في تاكو (قرب استر اباد) سنة (٧٤٠) هـ ، درس في شيراز ، ولما دخلها تيمور سنة (٧٨٩)هـ فرَّ إلى سمرقند ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور فأقام إلى أن توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٨١٦) هـ، وله نحو من خمسين مصنفا. [الأعلام للزركلي(٥/ ٧)].

(٣) كتاب التعريفات للشريف الجرجاني ، (ص:٧١) .

(٤) الرسالة القشيرية ، (ص:٧٤) .

والمُشَاهَدَةُ: هيَ حُضُورُ الحقِّ من غيرِ بقاءِ تُهمةٍ ، وتُطْلَقُ المشَاهدَةُ على رُؤيةِ الأَشْياءِ لأَدِلَّةِ التَّوحيدِ ، وعَلى رُؤيةِ الحقِّ في الأَشياءِ ، وعلى حَقيقَةِ اليقينِ.

الثّامنُ: مقامُ التَّلوِينِ والتَّمكِينِ:

فالتَّلوينُ لأَرْبَابِ الأَحوالِ، والتَّمكينُ صِفَةُ أَهلِ الحقائقِ ، فما دَامَ العبدُ في الطَّريقِ فهوَ صاحبُ تَلْوِينٍ ، لأَنَّه يَتَرَقَّى من حَالٍ إلى حَالٍ ، وإذا وصَلَ تمكنَ فاتَّصَلَ.

التَّاسِعُ: مقامُ القُرْبِ والبُعدِ: أَولُ رُتبةٍ في القُربِ منَ الله تعالى القُربُ من طَاعَتِه بِدَوامِ عِبَادَتِه، أَمَّا البُعدُ فهوَ التَّدَنُّسُ بِمُخَالفَتِه والتَّجَافِي عن طَاعتِه، فأَوَّلُ البُعدِ بُعدٌ عنِ التَّوفِيقِ، ثمَّ بعدٌ عنِ التَّحقِيقِ .

العَاشِرُ: مَقَامُ المَقَامِ: وهوَ ما يَتحقَّقُ به العَبدُ بِمُنازَلَتِه أَيْ بالتَّحلِّي به منَ الآدَابِ والرِّيَاضَةِ، وشَرْطُه أَن لَا يَرْتَقِي من مَقَامٍ إلى آخرَ حتَّى يَسْتَوفِيَ أَحكامَ ذلكَ المقام، فإِنَّ منْ لا قَنَاعةَ له لَا يَصِحُّ لَه التَّوكُّلُ، ومنْ لَا تَوَكُّلَ لَه لا يَصِحُّ لَه التَّسْلِيمُ، ومن لَا تَوبةَ لَه لا تَصِحُّ له الإِنَابَةُ، ومن لا وَرَعَ لَه لا يَصِحُّ له الزُّهدُ . وقالَ بَعْضُهُم مُتَمَثِّلاً بهذِه الأَبيَاتِ عندَ ذِكرِ المقَامِ : [من الطويل]

وَلا تلْتفِتْ في السَّيرِ غَيراً فَكلُّ مَا ... سِوى الله غيرٌ فَاتخِذْ ذِكرَه حِصْنَا

وكلُّ مَقامٍ لا تقُمْ فيهِ إِنَّه ... حجابٌ فجِدَّ السَّيرَ واستَنْجِدِ العَوْنا

ومهْما تَرى كلّ المراتِبِ تجْتلي ... عليْكَ فحلْ عنها فعَن مِثْلها حُلْنا

وقُلْ ليْس لي في غَيرِ ذاتِكَ مَطْمعٌ ... فلا صُورةٌ تُجْلى ولا طُرفةٌ تُجْنى

وسِرْ نحْوَ أعْلامِ اليَمينِ فإنها ... سَبيلٌ بها يُمْنٌ فلا تَتركِ اليُمنَا[1]

(١) الأبيات لأبي الحسن الشَّشْتري رحمَهُ اللهُ تعالى ، وهي في ديوانه (ص:٣٧) .

الحادِي عَشرَ : مَقَامُ الحَالِ:

قالَ الإمام القُشَيريُّ: هو ما يَرِدُ على القلبِ من غيرِ اجْتِلابٍ ولا اكتِسَابٍ كالفَرَحِ والحزَنِ، والقَبضِ، والبَسْطِ، والشَّوقِ، والإزْعَاجِ ، والهيبةِ، والابتِهَاجِ، فالأَحوالُ مَواهبُ من عينِ الجودِ والمقَامَاتُ مكَاسِبُ بَبَذلِ المجْهُودِ.

الثَّاني عَشَرَ: مقامُ القَبْضِ والبَسْطِ:

وهما حالتَانِ بعدَ تَرقِّي العبدِ عنْ حالَتَي الخوفِ والرَّجاءِ، فالقبضُ للعَارفِ بمنزلةِ الخوفِ للمُسْتأنِفِ ، والبسطُ لَه بمنزلَةِ الرَّجاءِ للمُسْتَأنِفِ ، ومنَ الفَرقِ بينَ القَبضِ والخوفِ والرَّجاءِ والبَسْطِ ، أَنَّ الخوفَ يكونُ منْ شيءٍ مُسْتَقْبَلٍ منْ فَوتِ مَحْبُوبٍ أَو هُجُومِ محذُورٍ ، وكذلكَ الرَّجاءُ يكونُ بِتَأْمِيلِ مُسْتَقْبَلٍ أَو تَطَلُّعٍ إِلى زَوَالِ محذُورٍ وكِفَايةِ مَكْرُوهٍ مُسْتَقْبَلٍ، وأَما القبضُ فالمعنى حَاصِلٌ في الوَقت، وكذلكَ البسطُ، وقبضُ كُلِّ أَحدٍ على حسبِ بَسْطِه، وبَسْطُه على حَسَبِ قَبضِه.

الثَّالثَ عَشرَ: مَقَامُ التَّواجُدِ والوُجْدِ والوجُودِ:

فالتَّواجُدُ: اسْتِدْعَاءُ الوَجدِ بنَوعٍ منَ الاختِيَارِ ، ورُخِّصَ فيه للفُقَرَاءِ المتَجَرِّدِينَ المتَرَصِّدِينَ لِوجدَانِ هذِه المعَاني ، لحدِيثِ: « فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فتَبَاكَوْا »[1]، وليسَ لصَاحبِه كمالُ الوَجْدِ ، وقالَ قومٌ التَّواجُدُ غيرُ مُسَلَّمٍ لصَاحبِه لتَضَمُّنِه التَّكَلُّفَ وبعدِه عنِ التَّحْقِيقِ.

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى [١٠/ ٢٣١] برقم (٢١٥٨٩) ، وفي شعب الإيمان [٢/ ٣٨٨] برقم (٢١٤٧) ، ورواه ابن ماجة في سننه [١/ ٤٢٣] برقم (١٣٣٧) ، وأبي يعلى في مسنده [٢/ ٤٩] برقم (٦٨٩) ، والحديث بتمامه عن سعد بن أبي وقاص رضيَ اللهُ تعالى عنه قالَ: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا».

والوَجْدُ: مَا يَرِدُ على القَلبِ بغيرِ تكلُّفٍ واسْتِدْعَاءٍ، ولهذا قَالواْ الوَجدُ المصَادَفةُ، والمَوَاجِيدُ ثَمَراتُ الأَورَادِ، فمنْ لا وِرْدَ لَه بظَاهِرِه لَا وَارِدَ لَه في سَرَائِرِه.

قُلتُ: منْ لم يكن وِرْدُه على الله تعالى وَارِداً لم تَرِدْه منَ الله تعالى المَوَارِدُ، ومنْ كانَ وِرْدُه على الله عزَّ وجلَّ وَارِداً وَرَدَتْ عليه المَوَارِدُ، أَورَدَ عليكَ الوَارِدَ لِتكُونَ عليه وَارِداً، فاحْرِص على أَنْ يكونَ وِرْدُكَ عليه وَارِداً لِتَنَالَ منه المَوَارِدَ، فإِذَا كانَ لكَ وَارِدٌ ورَدَتْ عليكَ المَوَارِدُ، الوَارِدُ منكَ تَذَلُّلٌ وعِرْفَانٌ، والمَوَارِدُ منه تَفَضُّلٌ وإِحْسَانٌ، إِذا أَورَدَ عليكَ مَوَارِدَ الإِحسَانِ عَلَّمَكَ عِلْمَ مكْنُونِ الأَكوَانِ، إِذا كانَ وِرْدُكَ وَارِداً أَورَدَ عليكَ المَوَارِدَ، فَشَتَّانَ بين وردِك المورُودِ عليه وبينَ مَوارِدِه المورُدَةِ عليكَ، ورْدُكَ ورْدُ عبدٍ شَمَلَه العَجْزُ والنُّقصَانُ، ومَوَارِدُه مَوارِدُ مَلكٍ كَريمٍ عَظيمٍ مَنَّانٍ، فَسُبحَانه سَبْحَانَه مَا أَعْظَمَ شَأْنَه وأَعزَّ سُلطَانَه.

وأَمَّا الوُجُودُ: فهوَ بعدَ الارتِقاءِ عنِ الوَجدِ، ولا يكونُ وجودُ الحقِّ إِلا بعدَ خُمولِ البَشرِيَّةِ، لأَنَّ البَشَريةَ لا بقاءَ لها معَ ظهورِ سُلطانِ الحقيقةِ، وهذا معنى قولِ الجنيدِ رحمهُ اللهُ: عِلمُ التَّوحِيدِ مُبَاينٌ لِوُجُودِه، وَوُجُودُه مُبَاينٌ لِعِلْمِه [1]، وفي مَعنَاه أَنشَدُواْ: [من الوافر]

وجُودِي أَن أَغيبَ عنِ الوُجُودِ ... بما يَبدُو عَليَّ منَ الشُّهودِ

ومَا في الوَجدِ مَوجُودٌ ولكنْ ... فخَرْتُ بَوَجْدِ مَوجُودِ الوُجُودِ [2]

وقالَ بعضُهم :"الوَجدُ سِرُّ صِفَاتِ البَاطنِ، كما أَنَّ الطَّاعةَ سِرُّ صفاتِ الظَّاهرِ"، ومن صِفاتِ الظَّاهرِ الحرَكةُ والتَّمايُلُ، وعندَ اشْتِدَادِه إِذا كَثُرَتْ دَواعِيه المخَامِرَةُ للعَقلِ

(١) انظر كتاب التعريفات (ص:٣٢٤)، والرسالة القشيرية (ص :١٣٦).

(٢) البيتان لم أجد قائلهما، وهما في كتاب مدارج السالكين (٣/ ٤٤٨).

والقَلبِ، فرُبَّما حصَلَ منه الرَّقصُ والسُّكرُ المطْرِحُ صَاحبَه أَرضاً لا حِرَاكَ له ، فيَخْرُجُ إِلى صَعْقَةِ غَوصٍ في شُهُودِ آلاءِ الله تعالى ، وهَذا عندَ بعضِ الخَوَاصِ.

وأَمَّا الوَجْدُ البَاطِنُ فأَحْوَالٌ وأَخْلَاقٌ يُسقَى بِها المتَواجِدُ قَلباً وعقلاً وفِكْراً وجَناناً معَ هُدُوءٍ كُلِّيٍّ ، وهوَ لِخَواصِّ الخوَاصِ ، وقد قُلتُ شِعْراً : [من البسيط]

وفِتْيَـــةٌ زَهـــرُ الآدَابِ بيـــنَهمُ ... أَبهَـى وأَنظَـرُ مـنْ زَهْـرِ الرَّيـاحِينِ
يَسْـمُونَ بـالعِلْمِ والتَّعلِـيمُ أَوصَـلَهُم ... إِلى رِيَـاضٍ بهـا كُـلُّ الأَفَـانِينِ
تَزَلَّفُـواْ نحـوَ مـن تُرضِـيه زُلْفَـتُهُم ... فَرضَـاً ونَفْـلا بُـدَعوَاتٍ وتَـأمِينِ

الرَّابعَ عَشَرَ: مَقامُ النَّفَسِ:

وهـوَ تَـرويحُ القُلـوبِ بلطَـائفِ الغُيـوبِ، وصَـاحبُ الأَنفَـاسِ أَرقُّ وصْـفاً مـن صَاحبِ الأَحوالِ، وكأَنَّ صَاحِبَ الوَقْتِ مُبْتَدِأٌ، وصَـاحبَ الأَنفاسِ مُنتهٍ، وصَـاحبَ الأَحوالِ بينهما فالأَوقاتُ بدايةٌ ، والأَنفاسُ نهايةٌ ، والأَحْـوالُ وسَـائطُ ، ومـن ذلـكَ القلبُ والنّفسُ والرّوحُ والعَقلُ والسِّرُ.

أما السرُّ: فقالَ القُشَيريُّ: "هو لَطِيفَةٌ مُودَعةٌ في قَالبِ الإِنسانِ كالرُّوحِ"، وقالَ: وأصولُ الصّوفيةِ تقتَضِي أَنَّـه محـلُّ المشَـاهدَةِ، كـما أَنَّ الأَرواحَ محلٌّ للمحبَّـةِ ، والقلـوبَ محلٌّ للمعَارفِ ، فعلى مُوجبِ مُواضَـعَتِهم ومُقتَـضَى أُصُـولِهم يَكـونُ الـسِّرُّ أَلطفَ مـن الرَّوحِ ، والرُّوحُ أَشرفَ من القلبِ ، قال : وقد يُطلقُ لفظُ السرِّ عـلى مـا يكـونُ مَصُـوناً مكتومـاً بـين العبـدِ وبـين الحـقِّ تعـالى مـن الأَحـوالِ"[1]، أَي كـالإخلاصِ، والمحبَّـةِ ، والخوفِ ، والرَّجاءِ ، ونحوِ ذلكَ منَ المواهبِ.

---

(١) كتاب الرسالة القشيرية (ص :٨٨) .

الخامسَ عَشَرَ : مقَامُ الخوَاطِرِ:

وهيَ خِطابٌ يَرِدُ على الضَّمائِرِ ، وقد يكونُ بإلقاءِ مَلَكٍ وقد يكونُ بإلقاءِ شَيطَانٍ، وقد تكونُ أَحاديثَ نَفْسٍ، وقد تكونُ من قِبَلِ الحقِّ سُبحانَه وتَعالى بلا وَاسِطَةٍ ، فإذا كانَ من الملَكِ فهوَ إلهامٌ ، وهو: إلقاء معنىً في القلب بطريق الفيض ، وإذا كانَ من طَرِيقِ الشَّيطانِ قيلَ له الوَسْوَاسُ ، وإذا كانَ من قِبَلِ الله سُبحَانَه وتَعالى وإلقَائِهِ في القَلبِ فهوَ خَاطِرُ حَقٍّ ، وجُملةُ ذلكَ من قَبيلِ الكَلامِ النَّفْسِيِّ الملْقَى في الضَّمائِرِ.

السَّادِسَ عَشَرَ : مقَامُ عِلْمِ اليَقِينِ وحَقِّ اليَقِينِ وعَينِ اليَقينِ:

وقد تقَدَّمَ الكَلامُ على ذلك ، وهذه الاصْطِلاحَاتُ معانِيها ذَوقِيَّةٌ لا تُعلمُ إلا بالأَذْوَاقِ والعِبَارَةُ عنهَا لا تُفِيدُ بشَيءٍ ، إذِ المقصُودُ غيرُ مُنضَبِطٍ بالعِبَارَةِ ، وإنَّما المقصُودُ منها التَّقرِيبُ والإِشَارَةُ ، وهذِه أُمورٌ لا يَسَعُها إلا الإِيمانُ ، حتَّى يَمنَّ الله تعالى على السَّالكِ بمقَامِ الإِحسَانِ ، قال سَيدِي عبدُ الله بنُ عَلَوِي الحدَّادُ : [من الطويل]

وسَلِّمْ لأَهلِ الله في كُلِّ مُشْكِلٍ لَدَيكَ ، لَدَيهِمْ وَاضِحٌ بالأَدِلَّةِ [1]

وذلكَ لأَنَّ الوَليَّ قد تَجرِي على لِسَانِه أَو غيرِها من جَوَارِحِه ، أَشْياءٌ في الظَّاهرِ مُسْتَنْكَرَةٌ ، وباطِنُها حَقٌّ ، حتَّى إذَا عُرِفَ وَجْهُ ذلكَ ، حصَلَ الاعْتِرَافُ بصِحَّتِه ، كمَسَائلِ الخضِرِ عليه السَّلامُ التي نَقرأُها في سُورَةِ الكَهفِ.

❁ ❁ ❁

(١) ديوان الإمام الحداد ، (ص: ١١٧).

مَقَامَاتُ الشَّيْخ المُرَبِّي

كَما أَنَّ للمُرِيدِ مَقَامَاتٍ فَكذَلكَ الشَّيخُ لَه مَقَامَاتٌ ، نَسْرُدُها باختِصَارٍ كالتَّالي:

الأَوَّلُ : مَقَامُ التَّوجِيهِ.

الثَّاني : مقَامُ جِهَادِ النَّفسِ وعَوَامِلِها.

الثَّالثُ : مَقَامُ الاجْتِهَادِ والذِّكرِ والعِبَادَة.

الرَّابعُ : مقامُ الخلوةِ والفِكرِ في الآلاءِ.

الخامسُ : مقامُ تَرْكِ الحظُوظِ وكَبْتِ رُعُونَاتِ النَّفسِ.

السَّادسُ: مقامُ العِبادَةِ.

السَّابعُ: مقامُ العُبُودَةِ.

الثَّامنُ: مقامُ التَّوكُّلِ القَطْعِيِّ.

التَّاسِعُ: مقَامُ الرِّضَى.

العَاشِرُ: مَقَامُ التَّسلِيمِ.

الحادِي عَشَرَ: مقامُ الاخْبَاتِ.

الثَّانِي عشَرَ: مقامُ الخلَاءِ والتَّجَرُّدِ.

الثَّالثَ عَشَرَ : مَقَامُ المثُولِ .

الرَّابعَ عَشَرَ : مقامُ الأَدَبِ المؤَهِّلِ لِشُهُودِ الكَونِ .

الخامِسَ عَشَرَ : مقامُ الشُّهُودِ الكَوني المعَبِّرِ عنْ وجُودِ مُوجِدِه .

السَّادِسَ عَشَرَ : مَقَامُ الفَنَاءِ.

السَّابعَ عَشَرَ: مقَامُ البَقَاءِ.

الكَلام عَلى الفِرَاسَة

من أَنوارِ القُلوبِ الإِلهيةِ نورِ الفِرَاسةِ والمكَاشفَةِ لأَولياءِ الله تعالى ، باطِّلاعِهم على ما يَخفَى على غيرِهم ، ففي الحديث: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله»(١). وقالَ العَلَّامَةُ ابنُ حَجرٍ رحمهُ اللهُ تعالى: "الفِرَاسَةُ ؛ هيَ أَروَاحٌ تَتَقَلَّبُ في الملكوتِ ، فتشْرِقُ عليها أَنوارُ الجلَالِ "(٢).

ومما ينبغِي التَّنبُّهُ له أَنَّ الفِرَاسَةَ ثَلاثةُ أَنوَاعٍ :

الفِرَاسَةُ الإِيمَانِيَّةُ : وسَبَبُها نُورٌ يقذِفُه الله تعالى في قَلبِ عبدِه ، وحقِيقَتُها أَنَّها خَاطرٌ يَهجُم على القَلبِ ويَثِبُ عَليه كَوُثُوبِ الأَسَدِ عَلى الفَرِيسَةِ ، وهذِه الفِرَاسَةُ تكونُ على حَسَبِ قُوَّةِ الإِيمانِ ، فمن كانَ أَقوَى إِيماناً فهوَ أَحدُّ فِرَاسةً .

قالَ الإمام أَبو سُليمانَ الدَّارَاني رحمهُ اللهُ تعالى(٣): الفِرَاسةُ مكَاشَفَةُ النَّفسِ ومُعَاينةُ الغَيبِ ، وهيَ منْ مقامَاتِ الإِيمانِ(٤).

---

(١) رواه الترمذي في سننه [٥/ ٢٩٨] برقم (٣١٢٧) ، والطبراني في المعجم الكبير [٨/ ١٠٢] برقم (٧٤٩٧) ، وفي المعجم الأوسط [٣/ ٣١٢] برقم (٣٢٥٤) ، عن أبي أمامة رضيَ اللهُ تعالى عنه .

(٢) انظر كتاب الفتاوي الحديثية ، [١/ ٢٢١].

(٣) الإمام الزاهد أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية ، العنسي ، الداراني، الزاهد المشهور ، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، كان من كبار الصوفية وأحد رجال الطريقة ، وكان من جلة السادات وأرباب الجد في المجاهدات ، له أخبار كثيرة في الزهد. من كلامه: "خير السخاء ما وافق الحاجة" كانت وفاته رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٢١٥) هـ . [وفيات الأعيان (٤/ ٤٣)] .

(٤) كتاب كرامات المجاهدين ، (١ / ١٣).

الفِرَاسَةُ الخَلْقِيةُ: وهِيَ التي صَنَّفَ فيها الأَطباءُ وغيرُهم، واسْتدَلُّوا بالخَلْقِ على الخُلُقِ لما بينَهم منَ الارْتبَاطِ الذِي اقتَضَتْه حكمةُ الله تعالى. أَفادَ ذلكَ بعضُ الفُضَلاءِ[1].

---

(١) الفراسة: علم من العلوم الطبيعية تعرف به أخلاق الناس الباطنة من خلال النظر إلى أحوالهم الظاهرة ، كالألوان والأشكال والأعضاء ، أو هي: الاستدلال بالخَلْق الظاهر على الخُلُق الباطن ، والمراد بها هنا الاستدلال على قوى الإنسان وأخلاقه بالنظر إلى ظواهر جسمه ، واستخلاص مكوناته الشخصية بمجرد دراسة المظهر الخارجي للجسم وخاصة الوجه ، كالاستدلال بصغر الرأس-الخارج عن العادة - على صغر العقل، وبكبره وسعة الصدر وبعد ما بين جانبيه على سعة خُلق صاحبه واحتماله وبسطته ، وبضيقه على ضيق خلقه ، وبخمود العين وكلال نظرها على بلادة صاحبها وضعف حرارة قلبه ، وبشدة بياضها مع إشرابه بحمرة على شجاعته وإقدامه وفطنته ، وبتدويرها مع حمرتها وكثرة تقلبها على خيانته ومكره وخداعه ، وكالاستدلال بإفراط الشعر في السبوطة على البلادة ، وبإفراطه في الجعودة على الشر وباعتداله على اعتدال صاحبه ، وأصل هذه الفراسة : أن اعتدال الخلقة والصورة : هو من اعتدال المزاج ، ومعظم تعلق الفراسة بالعين لأنها مرآة القلب وعنوان ما فيه ثم باللسان فإنه رسوله وترجمانه ، وهذا النوع من الفراسة هو الذي صنف فيه علماء النفس ، أما التي صنف فيها الأطباء فهي الأعراض التي يستدل بها على الأمراض ، وهذا النوع واضح ومعروف ، وللفراسة سببان: **أحدهما:** جودة ذهن المتَفَرِّسِ وحدة قلبه وحسن فطنته . **والثاني:** ظهور العلامات والأدلة على المتَفَرَّسِ فيه.

وقد كان الإمام الشافعي رحِمَهُ اللهُ تعالى حجة في علم الفراسة ، فقد قيل أنه قضى في اليمن ثلاث سنوات يتعلم الفراسة وأتقنها أيما إتقان ، وعند عودته إلى مكة توقف في إحدى الليالي عند بيت رجل ليرتاح عنده فطرق عليه الباب وقال له أنا مسافر فهل لك في ضيافتي ؟ ففتح له فلما رأى الشافعي ذلك الرجل أدرك أنه رجلٌ لئيم لا يكاد يقوى على ضيافة أحد ، فتفاجئ أن الرجل رحب به وأدخله منزلة بل وأطعمه من أفضل الأطعمة وأوجد له أفضل غُرفة لينام فيها .. فجعل الشافعي يتقلب في فراشه طوال الليل وهو يقول : ما أصنع بهذه الكتب لو خابت فراستي في الرجل.. أيذهب علم ثلاث سنوات ؟! لكنه لما أصبح وعزم على الرحيل قال للرجل - من باب رد الجميل-: إذا قدمت مكة ومررت بذي طوى فاسأل عن الشافعي ، فقال له الرجل: وهل أنا خادِمُ أبيك ؟!، ثم أخرج له ورقة كان قد سجل بها كل ما أعطاه للشافعي وطلب منه أن لا يخرج حتى يدفع له قيمتها !! فأعطاه الشافعي ما أراد وعاد فرحاً بأنه لم يكن ليخيب علمه الذي تعلمه.

الفِرَاسَةُ الرِّيَاضِيَّةُ : وهذه الفرَاسةُ تحصلُ بالجوعِ والسَّهرِ والتَّحَلِّي بالفضائل، فإنَّ النَّفسَ إذا تجرَّدت عن العوائقِ والعَلائقِ بالخلائقِ صارَ لها منَ الفراسةِ والكَشفِ بحسَبِ تجرُّدِها ، وهذِه فِراسةٌ مُشْتَرَكَةٌ بينَ المؤمنِ والكَافرِ ، ولا تدَلُّ على إيمانٍ ولَا ولَايةٍ ، لأَنَّ كثيراً منَ الأَشياءِ لها خَوَاصُّ ، فمن علمَ ذلكَ استَخْرَجَ منها أَشياءَ خَارِقَةً للعَادَةِ ، وكثيرٌ من ضُعفَاءِ العُقولِ يضِلُّونَ إِذا رَأَوا ذلكَ ، فتَفْسُدُ عقَائدُهم.

ومما يَنبَغِي أَن يُتَنَبَّه لَه أَنَّ صُدُورَ الأَمرِ الخَارِقِ للعَادَةِ، والنُّطقِ بالمغَيَّباتِ من بعضِ الأَشخَاصِ الذينَ لا استقَامةَ لهم لا يَدُلُّ على وِلايتِهم، ولَيس لِهؤلاءِ شَرَفٌ عندَ أَربَابِ المقامِ الأَعلى، لأَنَّ هَؤلاءِ أَصْنافٌ: صِنفٌ يُقَدِّرُ الله تعالى صُدُورَ ذلكَ منه بِوَاسِطَةِ الرِّياضَةِ ، وصِنفٌ بِوَاسِطَةِ الرَّوحَانيَّاتِ ، وصِنفٌ بالأَسماءِ ، وصِنفٌ بالتَّخيلَاتِ الآخِذَةِ بالعُيونِ ، وهيَ الشَّعْوَذَةُ ومَا يَجرِي مَجرَاهَا. وصِنفٌ بِوَاسِطَةِ أَنوَاعِ السِّحرِ، كالسِّيميَاءِ، والهيميَاءِ، والطَّلسَماتِ[1] المجْهُولَةِ المعَاني، لا الطَّلسَماتِ المعْروفَةِ التِي لا بأَسَ بها. وأَما الأَوفَاقُ[2] فليسَت منَ السِّحرِ، وكانَ الإِمامُ الغَزالي رحمهُ اللهُ

---

(١) الطّلسمات: جمع طلسم ، وهي أسماء خاصّة كانوا يزعمون أنّ لها تعلّقاً بالكواكب، تجعل في أجسام من المعادن أو غيرها ، ويزعمون أنّها تحدث آثاراً خاصّةً .

(٢) الأوفاق: هي أعداد توضع في أشكال هندسيّة على شكل مخصوص ، كانوا يزعمون أنّ من عمله في ورق وحمله يؤدّي ذلك إلى تيسير الولادة ، أو نصر جيش على جيش ، أو إخراج مسجون ونحو ذلك . وينسب للإمام الغزالي رحمَهُ اللهُ تعالى كتاب الأوفاق، ولعله إنما نسب إليه لاعتنائه به . قال العلامة ابن حجر الهيتمي رحمَهُ اللهُ تعالى في الفتاوي الحديثية [١/ ٢٥] عندما سئل: ما حكم علم الأوفاق؟: " علم الأوفاق لا محذور فيه إن استعمل لمباح ، فقد نقل عن الغزالي وغيره الاعتناء به حتى نسب إليه ، كذلك حُكيَ لي عن شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري سقى الله عهده أنه كان يحسنه وأن له فيه مؤلفا نفيسا أما إذا استعين به على حرام فإنه يكون حراما إذ للوسائل حكم المقاصد، وعليه يحمل جعل القرافي علم الأوفاق من السحر، وقال: علم الأوفاق يرجع إلى مناسبات الأعداد وجعلها على شكل مخصوص، وهذا كأن يكون بشكل من تسع بيوت مبلغ العدد من كل جهة خمسة عشر، وهو ينفع لإخراج المسجون ووضع الجنين وكل ما هو من هذا المعنى وضابطه(بطد، زهج، واح).اهـ.

تعالى يعتَني بها كثيراً، ولَكنْ إذا اسْتُعِينَ بها على حَرَامٍ فَحَرَامٌ. وأَمَّا العَزَائمُ[١] والعُقَدُ فإن اسْتُعمِلَت للتَّأثيرِ في الأَبدَانِ والقُلوبِ، بالتَّمرِيضِ والقَتلِ والتَّفرِيقِ بينَ المرْءِ وزَوجِه، وغيرِ ذلكَ مما هوَ حرَامٌ فمنَ السِّحرِ حَينئذٍ، وإلا فلَيسَ حَراماً بشَرطِ خُلُوِّها عن الأَلفاظِ المحْذُورَةِ، وعن تَسْمِيةِ بعضِ الكَواكِبِ وغيرِها آلهةً، وتَجرُّدِها عنِ الاعتقَادِ الفَاسِدِ، وإلا فاسْتعمالُ العَزائمِ منَ القَرآنِ العَظيمِ لا بأسَ به، لأَن فِيه شِفاءً للنَّاسِ؛ شِفَاءَ الظَّاهِرِ وشِفَاءَ البَاطنِ. ويدل لهذا قولُ رسُولِ الله صَلَّى اللهُ تعالى عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم: «خُذْ منَ القُرْآنِ مَا شِئْتَ لما شِئْتَ»[٢]، بل كلُّ ما فيه ذكرٌ لله تعالى فهوَ من أَحسنِ المباحِ كما قالَه غير واحدٍ من الأَئمة الأَعلامِ.

وفي حَوَاشِي المنْهَجِ للعَلَّامةِ السَّيدِ مُصطَفى الذَّهبيّ[٣] مَا لفظُه "مَسألةٌ في أَقسَامِ السَّحرِ وحُكمِه؛ السِّحرُ أَنواعٌ: **منها:** سحرُ قومٍ نَسبُواْ للأفلاكِ والكَواكبِ تأثيراً كونَها آلهةً، وأَنَّ الإِلهَ أَعطَاها قوةً نَافذَةً في العَالمِ، وفوَّضَ تدبيرَه إليها. **ومنهَا:** سِحرُ أَصحابِ الأَوهامِ، الزَّاعمينَ أَنَّ الإِنسانَ يبلغُ بالتَّصْفِيَةِ في القُوَّةِ إلى حيثُ يَقدِرُ على الإِيجادِ، والإِعدَادِ والإِحياءِ والإِماتَةِ، وقلبِ الأَشكَالِ وكِلَا النَّوعينِ كُفرٌ، عَمَلاً وتَعَلّماً. **ومنها:** التَّخيلَاتُ الآخِذَةُ بالعُيونِ، وهيَ الشَّعْوَذَةُ وما يجرِي مجرَاها من إِظهارِ الأُمورِ

---

(١) العزائم: جمع عزيمة، وهي من الرّقى الّتي كانوا يعزمون بها على الجنّ، يقال: عزم الرّاقي: كأنّه أقسم على الدّاء، وأصلها فيما ذكره القرافيّ: الإقسام والتّعزيم على أسماء معيّنة زعموا أنّها أسماء ملائكة وَكّلهم سليمان عليه السلام بقبائل الجانّ، فإذا أقسم على صاحب الاسم ألزم الجنّ بما يريد.

(٢) الحديث لم أجد له تخريجا فيما بين يدي من المصادر، وهو من الأحاديث التي تدور على ألسنة الناس، وقد ذكر بعض أهل العلم أنه لا أصل له، حيث لم يرد في شيء من كتب الحديث.

(٣) هو العلامة مصطفى بن حفني بن حسن الذهبي: عالم فاضل، وكاتب متقن مولده ووفاته بمصر، تصدر للتدريس، وصنف عدة رسائل منها: (تحرير الدرهم والمثقال والرطل)، و(تفسير غريب القرآن)، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى في سنة (١٢٨٠)هـ، [الأعلام للزركلي(٧/ ٢٣٢)].

العَجِيبةِ بَواسِطَةِ تَرتِيبِ الآلَاتِ الهنْدَسِيَّةِ وخِفَّةِ اليَدِ والاسْتِعَانةِ بخَواصِ الأَدوِيةِ والأَحجَارِ ولَيسَت كُفْرَاً، وإِطْلاقُ السِّحرِ عليهَا تَجوُّزٌ، وفي التَّحرِيمِ إِنْ لم يَتَرَتَّبْ عليها مفسدةٌ خِلافٌ. **ومنها :** الاسْتِعَانَةُ بالأَروَاحِ الأَرضِيَّةِ، وذلكَ بِوَاسطةِ الرِّياضةِ وقِرَاءَةِ العَزائمِ إِلى حيثُ يخلقُ الله تعالى عقبَ ذلك على سبيلِ جَرْيِ العَادَةِ بعضَ الخوَارِقِ ، وهذِا النَّوعُ قالت المعْتَزِلَةُ أَنه كُفرٌ، لأَنَّه لا يُمكنُ معَه معرِفَةُ صِدقِ الرُّسُلِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ وذلكَ للالتِبَاسِ، ورُدَّ بأَنَّ العَادَةَ الإِلهيةِ جَرَتْ بصَرْفِ المعَارِضِينَ للرُّسُلِ عن إِظهارِ خَارقٍ. ثمَّ التَّحقيقُ أَن يُقالَ: إِنْ كانَ منْ يَتَعَاطَى ذلكَ خَيِّرَاً مُتَشَرِّعاً في كُلِّ مَا يَأْتِي ويَذَرُ، وكانَ منْ يَسْتَعِينُ به منَ الأَروَاحِ الخيِّرةِ أَيضَاً وكانت عَزَائمُه لا تُخالفُ الشَّرعَ ، ولَيسَ فيما يَظْهَرُ عَلى يَدِه منَ الخوَارِقِ ضَرَرٌ شَرعيٌّ على أَحدٍ فَليسَ بكفرٍ إِنْ اعتَقدَ حِلَّ ذلكَ، فإِنَّ تَعَلَّمَه لِيَتَوَقَّاهُ فَمُبَاحٌ، وإِلا فمَكْرُوهٌ "[1]. اهـ.

قلتُ: أَمَّا في طَرِيقَتِنا الشَّاذِلِيَّةِ فمُحَرَّمٌ محضٌ، وممنُوعٌ ومنكَرٌ ولا اعتمادَ عليه، والسِّحرُ كُلُّه حَرامٌ ؛ دِقِيقُه وجَليلُه، وفاعلُه وكاتبُه ومحترِفُه، والمعْتَقِدُ به ، كَافرٌ مَحضٌ، وثُبُوتُ القَتلِ على فاعلِه وجْهاً شَرْعِيَّاً، والسِّحْرُ لا يُقِرُّه التَّصَوفُ ولا غيرُه من المذَاهِبِ الأَربعَةِ المشْهُورَةِ، ولا من المذاهبِ السَّبعةَ عَشَرَ السَّابِقَةِ التِّي أُخذَت عنها الأَربعَةُ المذَاهبُ، كلُّهم حَرَّمُوه قَطْعَاً ، وحَكَمُواْ على صَاحبِه وكَاتِبِه، ومُعْتَقِدِه بالكُفرِ، ويجبُ القَتْلُ إِذَا أَضَرَّ بمخْلُوقٍ مَشْهُودٍ عَليه ، نسأَلُ الله العَافيةَ والسَّلامة ، وحَسْبِيَ الله ونعْمَ الوَكيلُ ، واللهُ تعالى أَعلم[2].

---

(١) حاشية الجمل على فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب ، بتعليقات مصطفى الذهبي ، [٢/ ١٥١] .

(٢) قد يستغرب البعض من ذكر الشيخ لمسألة السحر وأقسامه؛ وربما قال: ما علاقة ذلك بالتصوف ؟! والجواب على ذلك أن الشيخ ذكر ذلك استطرادا منه عند كلامه على الفراسة والكرامات ، لأن السحر في مرأى العيون يعتبر أمراً خارقا للعادة ، وقد يشتبه على الناس ويلتبس عليهم التفريق بين الكرامة والسحر.

ثُبُوت كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاء

اعلَمْ أَنَّ اعتقادَ ثُبوتِ كَرَاماتِ الأَولياءِ هوَ الحقُّ الذِي ذَهبَ إِليه جَماهيرُ أَهلِ السُّنةِ والجماعَةِ ، فهيَ جَائزةُ الوُقوعِ إِكرَاماً منَ الله تعالى ، ومنْ قالَ بعدَمِ جَوازِهَا لا يُعَوَّلُ على كَلامِه ، بلْ هوَ بَدِيهي البُطلانِ ، لما يأْتي قَريباً.

والوَلِيُّ: هُوَ منْ وَالى الله تعالى بالطَّاعةِ فَوَالاهُ الله تعالى بِالكَرَامَةِ ، وهوَ العَارِفُ بالله تعالى وبصِفَاتِه حَسبَ الإِمكَانِ ، المَوَاظِبُ على الطَّاعَةِ ، المجْتَنِبُ للمَعَاصِي ، بمعنى أَنَّه لا يَرتكِبُ معصِيةً بدُونِ تَوبةٍ ، لا أَنَّه لم تقعْ منه معصِيةٌ بالكُلِّيةِ ، لأَنَّ ذلكَ شَأْنُ المعصُومينَ منَ الأَنبياءِ والملائكَةِ.

ومن شَأْنِ الوَلِيِّ الإِعرَاضُ عنِ الانهماكِ في الملَذَّاتِ والشَّهَواتِ المبَاحَةِ ، وليسَ ذلكَ شَرطاً بلْ لكي يسهُلَ عليه الانقِطَاعُ إِلى مَولاه والمدَاومَةُ عَلى عِبادِتِه، منْ غيرِ عِصْيَانٍ يُؤَدِّيه إِلى الإِعرَاضِ عنْ ذلكَ ، اكتِفَاءً بقوتِ القُلوبِ ، وهوَ ذِكرُ الله تَعالى ، ولا يَتأَثرُ الجسَدُ حِينئذٍ لِغَلبةِ سُلْطَانِ الرُّوحِ وتَسَلُّطِه عَليه.

والكَرَامَةُ : هي أَمرٌ خَارقٌ للعَادَةِ ، لا يَظْهرُ إِلا عَلى يدِ عبدٍ ظَاهرِ الصَّلاحِ ، والأُمُورُ الخارِقَةُ للعَادَةِ سِتَّةٌ ، جمعَها بعْضُهُم فِي قَولِه : [من الطويل]

إِذَا مَا رَأَيتَ الأَمرَ يخرِقُ عَادَةً ... فَمُعْجِزَةٌ إِنْ منْ نَبِيٍّ لنَا صَدَرْ

وإِنْ بَانَ منهُ قبلَ وصْفِ نُبُوَّةٍ ... فَالارهَاصَ سَمِّهْ تَتْبَعِ القَومَ بالأَثَرْ

وإِنْ جَاءَ يَومَاً منْ وَلِيٍّ فإِنَّهَا الـ ... ـكَرَامَاتُ في التَّحْقِيقِ عنْدَ ذَوِي النَّظَرْ

وإِنْ كَانَ من بَعضِ العَوامِ صُدُورُها ... فَكَنَّوهُ حَقَّاً بالمعُونَةِ واشْتَهَرْ

ومنْ فَاسِقٍ إِنْ كَانَ وِفْقَ مُرَادِه ... تُسَمَّى بالاسْتِدْرَاجِ فِيمَا قَدِ اسْتَمَرْ

وإِلَّا فَيُـــدعَي بالإِهَانـــةِ عِنـــدَهم وقَـد تَمَّـتِ الأَقسَـامُ عنـدَ مـنِ اخْتَـبرْ (١)

وقد كثُرتْ في أَولياءِ الزَّمَنِ المتَأخرِ أَكثرَ من أَهلِ الزَّمنِ المتَقَدِّمِ ، وقد أَجَابَ بعضُهم لأَنَّ ذلكَ لضعفِ اعتِقَادِ المتأَخِّرينَ ، فاحْتِيجَ لتأليفِهم لِيعْتقدُواْ الاعتقادَ الحسَنَ في الأولياءِ والصَّالحينَ، وأَمَّا في زمانِ المتَقَدِّمينَ فقد كانَ اعتِقَادُهم تَابعاً لميزَانِ الشَّرعِ ، وإِنْ لم يَرَواْ ذَلِكَ. والعَجَبُ منْ قَومٍ يُبَادِرُونَ إِلى إِنكارِ كَرَامَاتِ الأَولياءِ وينفُونها ، وليسَ لهم حُجَّةٌ سِوَى تعْلِيلهم بأَنَّه ما ورَدَ في ذلكَ نصٌّ صَرِيحٌ في الكِتَابِ العَزيزِ ، وهَذا غَلطٌ مِنهُم ، فإِنَّ الكَرامَاتِ قد ثَبتَت بالنَّصِّ القُرآني فمنْ ذلكَ قِصَّةُ مَريمَ عَليها السَّلامُ ، قالَ اللهُ تعالى :﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ﴾ [آل عمران: ٣٧] ، وقد كَانَت في كفَالةِ زكريا عليه السَّلامُ ، وكانَ لا يَدخُلُ علَيها أَحدٌ غيرُه ، وكَانَ إِذا خَرجَ منَ عندِها أَغلَقَ سَبعةَ أَبوَابٍ ، وإِذَا دَخلَ عليها وجدَ عندَها فَاكِهةَ الشِّتاءِ في الصَّيفِ ، وفَاكِهةَ الصَّيفِ بالشِّتاءِ ، فتَعَجَّبَ منْ ذلكَ، وعندما سَأَلها عن ذلكَ أَجابتْه : ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[آل عمران: ٣٧].

ومن ذلكَ قصَّةُ آصِفِ بنِ بَرْخِيَا وإِتيَانُه بعَرشِ بلْقِيسَ قبلَ ارْتِدَادِ طَرْفِ سُليمانَ عليه الصلاة والسَّلام، ومن ذلكَ قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهفِ ، ولُبْثُهم في الكَهفِ مئاتِ السِّنينَ بلا طَعامٍ ولا شَرَاب.

---

(١) الأَبيات لم أَعثر على قائلها ، وهي في شرح منظومة المنجية (ص:٣٩) ، ثُمَّ إنَّ الأَمر الخَارق للعَادَة يطلق على " **المعجزة** " ، وهي ما يَعجز الخلق عن الإتيان بمثله يقع على يدِ مُدَّعِي الرسالة ، يَكونُ مقرونًا بالدعوى، فإِذَا وَقَعَ من النبي قبل نبوته كتظليل الغَمَامَة سيدَ الوجود صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم فإِنَّه يُسَمَّى " **إرهاصًا** "، وإِذَا وَقَعَ على يد الوليِّ يُسَمَّى: " **كرامةً** "، وإذا وقع على يد المؤمن " **فَمَعُونَة** "، وإن وَقَعَ عَلَى يَد الفَاسق فإِنْ بَرَزَ عَلَى خلاف ما أراده فَيُسَمَّى " **إهانة** "، كَمَا وَقَعَ لمسيلمة الكذاب، فإِنَّه تَفَلَ في عين أعورَ لِتَصِحَّ عَينُه فَعَمِيَتْ الصَّحيحة .وإِنْ بَرَزَ كَمَا أَرَاد وَقَصَدَ فهو " **الاستِدرَاج** " وَالمَكْر مِنَ الله تعالى به.

ومنَ الكَرَاماتِ المشْهُورةِ في الصَّحابةِ جَريَانِ النِّيلِ بكِتَابِ عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه[١] ، ورُؤيَتِه وهوَ عَلى المنْبرِ جَيشَه في نَهاوَند ، حتَّى قالَ لأَميرِ الجيشِ: يَا سَارِيَةُ الجبَلَ الجبَلَ!، مُحذِّراً له منْ وَراءِ الجبَلِ ، لمكْرِ العَدوِّ هنَاكَ، وسَماعِ سَارِيَةَ لَه ، معَ بُعدِ المسَافَةِ[٢].

---

(١) ذكر الحافظ السيوطي في كتابه [تاريخ الخلفاء (ص: ٥١)]، أنه لما فتحت مصر ـ أتى أهلُها إلى عمرو بن العاص رضيَ اللهُ عنه حين دخل شهر بؤنة من أشهر العجم ، فقالوا يا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سُنَّةً لا يجري إلا بها ، قال وما ذاك؟ قالوا إذا كان إحدى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكرٍ بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الثياب والحلي أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل ، فقال لهم عمرو رضيَ اللهُ عنه إن هذا لا يكون أبدا في الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله ، فأقاموا أياماً والنيل لا يجري حتى هموا بالجلاء ، فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمرَ بن الخطاب رضيَ اللهُ عنه بذلك فكتب له أن قد أصبت بالذي قلت، وبعث ببطاقة في داخل كتابه وكتب إلى عمرو إني قد بعثت إليك ببطاقة في داخل كتابي فألقها في النيل ، فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها "من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله يجريك فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك"، فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم فأصبحوا وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة فقطع الله تلك السُّنَّةَ عن أهل مصر إلى اليوم.

(٢) أخرج الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة في معرفة الصحابة [١ / ٤١٠]وقال: إسناده حسن ، عن ابن عمر ، أن عمر رضيَ اللهُ عنه وجه جيشا ورأس عليهم سارية بن زنيم الأنصاري ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الفرس والأكراد ودهم المسلمين منهم أمر عظيم وجمع كثير ، فبينما عمر يخطب يوم الجمعة اذ قال : يا سارية بن زنيم الجبلَ الجبلَ (ثلاثاً) ظلم من استرعى الذئب الغنم ، ثم خطب حتى فرغ، فلجأ المسلمون الى جبل هناك فلم يقدر العدو عليهم الا من جهة، ثم جاء كتاب سارية الى عمر ان الله قد فتح علينا يوم الجمعة ساعة كذا وكذا لتلك الساعة التي خرج فيها عمر فتكلم على المنبر قال سارية فسمعت صوتا يا سارية بن زنيم الجبل الجبل ظلم من استرعى الذئب الغنم فعلوت بأصحابي الجبل ونحن قبل ذلك في بطن واد ففتح الله علينا. وقد ذكر هذا الإمام ابن كثير في البداية والنهاية [٧/ ١٣٠] بطرق يشهد بعضها لبعض ، وكذا ذُكرت هذه الواقعة في عدد من كتب التاريخ والسير .

ومنها قِصَّةُ خالدِ بنِ الوليدِ[١] يومَ شُرْبِه للسُّمِّ[٢]، وقد تواترتْ كَرامَاتُ الصَّحابةِ والتَّابعينَ ومن بعدَهم منَ الأَولياءِ والصَّالحينَ، كما يُعلَمُ ذلكَ من تَراجِمِ

---

(١) سيدنا أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة، القرشي، المخزومي، كانت إليه أعنة الخيل في الجاهلية، أسلم سنة (٨)هـ، وشهد غزوة مؤتة، وفيها لقب بسيف الله المسلول، ولم يزل من حين أسلم يتولى أعنة الخيل، شهد فتح مكة، وكان على مقدمة الجيش يوم حنين في بني سليم، وجُرِحَ فعَادَه رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم، ونفث في جرحه فبرأ، ثم إن أبا بكر أمَّره على قتال المرتدين وله في قتالهم الأثر العظيم، ثم بعثه إلى العراق وله الأثر المشهور في قتال الفرس والروم، افتتح عددا من البلدان، وكان في قلنسوته التي يقاتل بها شعرٌ من شعر رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم يستنصرُ بها وببركتها، فلم يزل منصوراً، ولما حضرته الوفاة قال: لقد شهدت مائة زحف، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجى عندي من" لا إله إلا الله" وأنا متترس بها، توفي رضيَ اللهُ عنه، بحمص سنة (٢١)هـ. [أسد الغابة (١/ ٣١٢)].

(٢) لما توجه خالد رضيَ اللهُ عنه نحو الحيرة تحصن منه أهلها، فقال لهم: ابعثوا إليَّ رجلاً من عقلائكم أسأله عنكم، فبعثوا إليه عبد المسيح بن بقيلة الغساني وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلما رآه خالد قال: ما لهم أخزاهم الله بعثوا إلي رجلاً لا يفقه، فلما دنا منه قال له خالد: من أين أقصى أثرك؟ قال: من ظهر أبي، قال: من أين خرجت؟ قال: من بطن أمي، قال: على ما أنت؟ قال: على الأرض، قال: فيم أنت ويحك؟ قال: في ثيابي، قال: أتعقل؟ قال: نعم وأقيد، قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال خالد: ما رأيت كاليوم قط أسأله عن شيء وينحو في غيره، فقال: ما أجبتك إلا عما سألت عنه، فاسأل عما بدا لك، قال: كم أتى لك؟ قال: خمسون وثلاثمائة، قال: أخبرني ما أنتم؟ قال: عرب استنبطنا، ونبط استعربنا، قال فحرب أنتم أم سلم؟ قال: بل سلم، قال: فما بال هذه الحصون؟ قال: بنيناها لنحبس السفيه حتى ننهاه بالحليم، ومعه سم يقلبه في يده، فقال له: ما هذا معك؟ قال: هذا سمٌّ ساعة، قال: فما تصنع به؟ قال: أتيتك فإن رأيت عندك ما يسرني وأهل بلدي حمدت الله، وإن كانت الأخرى لم أكن أول من ساق إليهم ضيماً وبلاءً فآكله وأستريح، فقال: هاته فوضعه في يد خالد، فقال: بسم الله وبالله، رب الأرض ورب السماء، الذي لا يضر مع اسمه داء ثم أكله فتجلته غشية فضرب بذقنه على صدره، ثم عرق وأفاق كأنما نشط من عقال، فرجع ابن بقيلة إلى قومه فقال: جئتكم من عند شيطان أكل سم ساعة فلم يضره، صانعوا القوم وأخرجوهم عنكم، فإن هذا أمرٌ مصنوع لهم.. [بغية الطلب في تاريخ حلب (٣/ ٢٧٣)].

الأَولِيَاءِ المَشْهُورِينَ، فمنهُم منْ مشَى عَلى الماءِ[١]، ومنهم منْ قَطَعَ المَسَافاتِ واخْترقَ العَاداتِ، ومنهُم منْ ظهرَ له الطَّعامُ والشَّرَابُ واللبَاسُ ، وظهَرَ لهم كثيرٌ منَ الخوَارِقِ تكريماً لَهم منَ الله تعالى ، والعَقلُ السَّليمُ لا يأْبى وقوعَ ذلكَ على أَيدِي المتَّقينَ الذينَ لا يَشْهَدُونَ غيرَه تَعالى في الأَقوَالِ والأَفعَالِ ، والحرَكَاتِ والسَّكنَاتِ ، فإنَّ مَوَاهبَ الله تعالى لا تَبيدُ ولا تنقَضِي إلى أَبَدِ الآبِدِينَ .

وقَد رَتَّبَ الفُقَهاءُ على كَرامَاتِ الأَولياءِ كثيراً منَ المَسَائلِ الشَّرعِيَّةِ ، منْ ذلكَ قولُ العَلَّامَةِ ابنِ حَجرٍ رحمهُ اللهُ تعالى في فَتَاويه: "إِذَا غَرَبت الشَّمسُ في بَلدٍ وكَانَ هناكَ صَاحِبُ خطْوَةٍ فَحَضرَ مَطْلعاً آخرَ لم تَغْرُبْ فيه بعْدَما صَلى المغْرِبَ في البَلَدِ الأَوَّلِ لا يَلزَمُ عليهِ إِعَادَتُها."[٢]

---

(١) ومن أجل من حصل لهم ذلك سيدنا العلاء بن الحضرمي في قتاله للمرتدين حين قصد (دارين) فوصل بجيشه إلى ساحل البحر وقد أخلاه الأعداء من السفن ، فخطب في جيشه وقال : إن الله تعالى قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرد الحرب في هذا البحر وقد أراكم من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر فانهضوا إلى عدوكم ثم استعرضوا البحر إليهم فإن الله قد جمعهم فقالوا نفعل ، فارتحل وارتحلوا ، وفيهم الراكب والراجل ودعا ودعوا وكان دعاؤه ودعاؤهم : يا حليم يا عليم يا علي يا عظيم ، وفي رواية أخرى كان دعاؤهم : يا أرحم الراحمين يا كريم يا حليم يا أحد يا صمد يا حي يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت يا ربنا ، فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله تعالى جميعا يمشون على مثل رملة ميثاء وإن ما بين الساحل ودارين مسيرة يوم وليلة لسفن البحر في بعض الحالات فالتقوا بها واقتتلوا قتالا شديدا فما تركوا بها مخبرا وسبوا الذراري واستاقوا الأموال فبلغ نفل الفارس ستة آلاف والراجل ألفين قطعوا ليلهم وساروا يومهم فلما فرغوا رجعوا عودهم على بدئهم حتى عبروا وفي ذلك يقول عفيف بن المنذر: [من الطويل]

ألم تـــــر أن اللهَ ذلَّـــــل بحـــــرَه ... وأنـــزلَ بالكفَّـــار إِحـــدَى الجلائِـــلِ

دعونـــا الـــذي شـــقّ البحـــارَ فجاءنـــا ... بأَعجـــب مـــن فلـــقِ البحـــار الأَوائـــلِ

ذكر ذلك الإمام الطبري في كتابه "تاريخ الأمم والملوك ، (٢/ ٢٨٩)" ، وغيره من المؤرخين .

(٢) انظر كتاب الفتاوى الحديثية ، [١/ ٤٦٣] .

وإذا ظَهرتْ الخوَارِقُ على أَيدِي الكفَّارِ كفرعونَ والسَّامريِّ اسْتِدْرَاجاً لهم منَ الله تَعالى ، فالأَولى ظُهورُها على أَيدِي الأَولياءِ إِكرَاماً لهم منْ مَولَاهم ، على أَنَّ وقُوعَها مما لا يَحتَاجُ إِلى إقامَةِ بَراهينَ ، لِشيُوعِ كَرامَاتِ الأَوليَاءِ قرناً بعْدَ قَرْنٍ بالتَّواتُرِ بحيثُ صَارَ ذلكَ بمنزِلَة العِلْمِ الضَّرُورِيِّ أَو قَرِيباً منه ، وَمُشاهَدَةُ أَهلِ كُلِّ عَصْرٍ مَا يَقَعُ منْ صُلحَائه إِلى حَاضِرِ الدَّهرِ ، حَاسِمَةٌ للنِّزاعِ ، فليتَ شِعرِي مَا يَقُولُ النَّافي في أَمرٍ شُوهِدَ وقُوعُه أَو عُلِمَ بالنَّقلِ المتَواتِرِ، فمَن نَفَى كَرامَاتِ الأَوليَاءِ فقد نَفَى بلِسَانِ حَالِه مُعجِزَاتِ الأَنبياءِ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إِذْ كُلُّ كرَامَةٍ للوَليِّ مُعْجِزَةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم دَالةٌ على ثُبوتِ رِسَالَتِه ونُبُوتِه ، لأَنها ظَهَرتْ على يَدِ منْ هوَ مؤْمنٌ به مُتَابعٌ له ، فلَو لَم تكنْ نُبُوتُه حقاً لما ظَهرَ الحقُّ على يَدِ مُتَابعِه.

وبالجمْلَةِ؛ فكَيفَ يمْتَرِي عَاقلٌ في كَرامَاتِ الأَوليَاءِ أَو يُنكِرُها وقَد صَرَّحَ جُلُّ عُلَماءِ الدِّينِ وأَئمَّةِ الهُدَى بأَنَّها ثَابتةٌ في الدُّنيا وصَارَت باتِّفاقِ العُلماءِ كالمجْمَعِ عَليهِ ، أَيُخَطِّأُ المنْكِرُ هَؤلاءِ الأَئمَّةَ الذِينَ أَماطُواْ عنْ وجْه الدِّينِ شُبَه المبْطِلينَ ، ويَسْتَصْوِبُ مَا يَتَرآءى لَه منْ ضَلالِ المتَفَلسِفِينَ ، و يَا عَجباً كيفَ يأَخذُ بأَقوالِهم في الأَحكامِ ، ويَعتَمِدُ علَيهِم في التَّحليلِ والتَّحرِيمِ ، ولا يَعتَمِدُ على مَا نَهجُواْ عَلَيهِ ، ودَانُواْ بِه واعْتَقَدُوه في أَئمةٍ مُسْلِمينَ اشْتَغَلُواْ بصَفَاءِ قُلوبِهم حتَّى أَشْرَقتْ وتَنَوَّرتْ، فأَجرَى الله تعالى عَلى أَيدِيهم الخوَارِقَ التِي لا يُنكِرُها إِلا ذُو عِنَادٍ ، واللَّائقُ فِيه قَولُ القَائلِ: [من المتقارب]

إِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي وَاحِدٍ ... وخَالَفَهُمْ فِي الرِّضَا وَاحِدُ

فَقَدْ دَلَّ إِجمَاعُهُم دَونَه ... عَلى عَقْلِه أَنَّهُ فَاسِدُ(١)

(١) البيتان أوردهما محمد السماوي في كتابه " الطليعة (ص:٣٢٤) " ، ونسبهما ليوسف الواسطي ، وهما أيضاً في كتاب " زهر الأكم في الأمثال والحكم " لليوسي ، (ص:٩٠٦).

نعمْ؛ ليسَ الإنكارُ بِعَجِيبٍ ممنْ ذُكروا، لأَنَّهم لم يُشَاهِدُوا ذلكَ منْ أَنْفسِهِم، ولم يَسْمَعُوهُ ولم يُشَاهِدُوه أَيضاً منْ رُؤَسَائِهم معَ اجْتِهَادِهم في العِبَادَاتِ وكثرَةِ الصَّلَوَاتِ، بسَبَبِ خَوضِهم في أَولياءِ الله أَصحَابِ الكَرَاماتِ، يأْكُلُونَ لحومَهُم، ويُمَزِّقُونَ أَدِيمَهُم جَاهِلينَ أَنَّ هَذا الأَمرَ مَبْنِيٌّ عَلى صَفَاءِ العَقِيدَةِ، ونَقَاءِ السَّرِيرَةِ، واقْتِفَاءِ الطَّرِيقَةِ[١] .

قالَ العَلَّامةُ ابنُ حَجَرٍ رحمهُ اللهُ تعالى: "وبِمُطَالَعَةِ كُتُبِ الصُّوفِيَّةِ يَحصُلُ العِلْمُ بِوُقُوعِهَا ضَرُورَةً ، وقدْ رَأَينَا منْ كَرَامَاتِهم أَحيَاءً وأَمواتاً مَا يُوجِبُ ذلكَ ، فَلا يُنكِرُها إلا مَخذُولٌ ، فَاسِدُ العَقِيدَةِ ، فَاسِدُ الاعتِقَادِ في أَولِيَاءِ الله تعالى ، وفي خَوَاصِ عِبَادِه ، نفعَنَا الله عزَّ وجَلَّ بهم أَجمعِينَ ..آمين "[٢] .

ومن أَجَلِّ الكَرِامَاتِ وأَعظَمِهَا ما يَقَعُ لِخَوَاصِ الأَولِيَاءِ، منَ الاجْتِمَاعِ بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم ، وسُؤَالهم إِيَّاهُ عمَّا أَشْكَلَ علَيهِم ، كما صَرَّحَ به غَيرُ

---

(١) شدد الشيخ – نفعنا الله تعالى به – النكيرَ على من أنكر الكرامات ؛ لكثرة حصول ذلك في أبناء هذا الزمان على وجه الخصوص ، ربما بسبب الأفكار التي تلقوها من المترسمين بالعلم ، والتي خالفت ما عليه السواد الأعظم من صلحاء الأمة وعلمائها . وقد قال بعض مشايخنا رضيَ اللهُ تعالى عنهم : أن من علامات قرب خروج الدجال أمرين : **الأول:** ظهور المجسمة، وهم الذين يزعمون أن الله تعالى جسم والعياذ بالله تعالى وأنه في جهة محددة وفي مكان معين، فيغرسون هذه العقيدة في قلوب الناشئة والأجيال الذين ليس لهم أخذ للعلم الشرعي عن أهله إلا ما تلقوه من القنوات والكتيبات ، فما أن يخرج الدجال فيقول لهم : أنا ربكم !، إلا ويكونون هم أول الأتباع له لما خامر عقولهم وقلوبهم من هذه العقيدة الفاسدة وهي أن الله تعالى له جسم كالمخلوقات .. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . **الثاني** : ظهور منكري الكرامات، وهم من يزعمون أن الأمر الخارق للعادة لا يمكن حصوله إلا من الله تعالى معجزة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقط ، فإذا أظهر لهم الدجال خوارق العادات ليثبت لهم أنه إلههم صدقوه وءامنوا به ، نسأل الله تعالى السلامة من الآفات ، والحفظ من الفتن المعضلات .

(٢) ذكر هذا شيخ الإسلام وخاتمة المحققين الإمام شهاب الدين أحمد الحموي الحسيني في كتابه : [نفحات القرب والاتصال بإثبات التصرف لأولياء الله تعالى بعد الانتقال ، (ص : ٧٠)] .

واحِدٍ ، إِذْ هُوَ حيٌّ في قَبرِه ولَيسَ ذلكَ بِبَعِيدٍ ، كمُشَاهَدِةِ أَربابِ القُلوبِ الزَّكيَّةِ في يَقَظَتِهِم الملائكةَ وأَروَاحَ الأَنبيَاءِ ، وسَماعِهم منهُم أَصْوَاتاً واقْتِباسِهم منهُم الفَوائدَ.

وممنْ حصلَ لَهم ذلكَ كما فِي كتاب عَوَارِفِ المعَارِفِ سيدنا الإِمَامُ العَارفُ بالله تعالى أَبو الحسَنِ الشَّاذِلِي ، كَما حَكَى ذلك عنه التَّاجُ ابنُ عَطَاءِ الله ، وكذا صَاحِبُه الإِمامُ أَبو العَبَّاسِ المرسِي رَضِيَ اللهُ تبارك وتعالى عنهم أجمعين ، وممنْ حصلَ لَهم ذلكَ أيضاً ؛ الإِمَامُ العَارفُ بالله تعالى قطبُ الأولياء وسلطانُ العارفين الشيخُ محي الدينِ عبدُ القَادِرِ الجيلَانِي رَضِيَ اللهُ تبارك وتعالى عنه[1].

وقالَ الإمام العَلَّامةُ ابنُ حَجَرٍ رحمهُ اللهُ تعالى -في بعضِ كُتُبِه-: "ولَقَدْ كَانَ شَيخِي وشَيخُ وَالدِي الشَّيخُ محمدُ بنُ أَبي الحَمَائلِ يَرَى النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم يَقَظَةً كَثِيراً، حتَّى يَقَعَ لَه أَنه يُسْأَلُ عنِ الشَّيءِ، فيَقُولُ حتَّى أَعْرِضَه عَلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم، فَيُدخِلُ رَأْسَه في جَيبِ قَمِيصِه، ثُمَّ يقُولُ: قالَ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم فيه كَذَا، فيكونُ كما أَخبرَ، لا يَختَلِفُ ذَلكَ أَبداً، فاحْذَرْ إِنكَارَ ذَلكَ فإِنه السُّمُّ"[2].اهـ.

---

(١) هو الإمام، القطب، أستاذ العارفين، الشيخ محي الدين، أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي، الحسني، الجيلاني، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والصوفين، ولد في جيلان سنة (٤٧١)هـ، انتقل إلى بغداد شاباً سنة (٤٨٨)هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه وسمع الحديث، وقرأ الأدب واشتهر ، وتصدر للتدريس والإفتاء ببغداد سنة (٥٢٨)هـ، وكان لا يأكل إلا من عمل يده ، جلس للوعظ سنة(٥٢٠) هـ، وحصل له القبول من الناس، واعتقدوا ديانته وصلاحه، وانتفعوا بكلامه ووعظه ، وقد كان إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيها صالحا، ديِّنا خيِّرا، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة، وله كتب ومصنفات منها: (الغنية لطالب طريق الحق)، (الفتح الرباني) و(فتوح الغيب)، و(الفيوضات الربانية)، ومناقبه كثيرة وكراماته شهيرة، وقد أُفْرِدَت مصنفات بترجمته، توفي رحمَهُ اللهُ تعالى ببغداد سنة (٥٦١) هـ . [الأعلام (٤/ ٤٧)] .

(٢) انظر كتاب المنح المكية في شرح الهمزية للعلامة ابن حجر الهيتمي ، (ص: ٣٤٢) .

وقد نُقِلَ عنِ الحَافِظِ السُّيوطِي رحمهُ اللهُ تعالى أَنه اجتَمَعَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم باليَقَظَةِ أَكثَرَ من سَبعِينَ مَرَّةً ، ومنَ المتَواتِرِ مَا وقَعَ لِقُدوَةِ الأَوليَاءِ سَيّدِي أَحمدَ بنِ أَبي الحَسَنِ الرِّفَاعِي المشْهُورِ بجَلالَتِه بينَ الرِّجَالِ، وذَلكَ أَنه حَجَّ بيتَ الله الحرَامَ ، وَوَفَدَ زَائرَاً لِقَبرِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسَلَّم ، فَلمَّا وقَفَ تجَاه الحضْرَةِ الشَّرِيفَةِ وحَيَّا ونَاجَا، وَأُدْرِجَ في أَكفَانِ الشُّهُودِ إِدْرَاجَاً، قَالَ نَفعَ الله تعالى به: [من البسيط]

في حَالَـةِ البُعْـدِ رُوحِـي كُنـتُ أُرْسِـلُها تُقبِّـلُ الأَرضَ عنِّـي فَهِـيَ نـائِبَتي[1]

وهَـذِه دَولـةُ الأَشْـبَاحِ قـد حَضَـرَتْ فامْـدُدْ يَمِينَـكَ كَـي تَحْظَـى بِهَـا شَـفَتِي

---

(١) حكاية تقبيل سيدي أحمد الرفاعي ليد الرسول صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ذكرها جمع غفير من أهل العلم، وهي مشهورة بين أهل التصوف، ومعدودة في ضمن كرامات سيدي أحمد الرفاعي رحمَهُ اللهُ تعالى. وقد ذكرها الحافظ السيوطي في كتاب [الحاوي للفتاوي (٢/ ٣٨٩)]، قال: لما حجّ الإمام الرفاعي سنة (٥٥٥)هـ وقف تجاه الحجرة النبوية الشريفة وقال على رؤوس الأشهاد السلام عليك يا جدي رسول الله ، فقال له عليه الصلاة والسلام : وعليك السلام يا ولدي سمع ذلك كل من في المسجد النبوي فتواجد الإمام أحمد الرفاعي وأرعد واصفر لونه وجثا على ركبتيه ، ثم قام وبكى وأنَّ طويلاً وقال: يا جَدّاه ؛ ثم ذكر البيتين، فمد له رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يده الشريفة العطرة من قبره الأزهر فقبلها في ملأ يقرب من تسعين ألف رجل والناس ينظرون إلى اليد الشريفة وكان فيهم الشيخ عبدالقادر الجيلاني. اهـ .

وقد حاول بعضهم إنكار هذه الكرامة، ويزعمون أنها مكذوبه، وأنّى لهم أن يحجبوا ضوء الشمس عن عيون المبصرين!، فإن إنكار هذه الكرامة بعد استفاضتها وشيوعها بين الناس يفتح على الناس إنكار ما استفاض واشتهر من الأنساب والمعالم .. وإن سلمنا بشهرتها. والبيتان قد شطرها وخمسها الكثير من العلماء والشعراء وضمنوها في قصائدهم، وممن شطرها الإمام تقي الدين عمر الرافعي، وبهاء الدين الصيادي، وغيرهم. وممن خمسها العلامة عبد الغني النابلسي، وتخميسه يقول فيه: [من البسيط]

مقالـة ابـن الرفـاعي كـان حاصـلها لحجـرة المصـطفى شـوقا يخاللهـا
قـد جـاء هـائم ناداهـا يسـائلها في حالـة البعـد روحـي كنـت أرسـلها
تقبّل الأرض عني وهي نائبتي
لـواعج الشـوق في أحشـائه اسـتعرت والقلـب يرعـد والأجفـان قـد مطـرت
يـا طالمـا عـين قلبـي وجهـك انتظـرت وهـذه دولـة الأشـباح قـد حضـرت
فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فخَرَجَت اليَدُ الشَّرِيفَةُ منَ القَبرِ فَقَبَّلهَا كما في بعضِ الرِّوَاياتِ ورَآه منْ كانَ حَاضِراً.

وقَال فِي الميزَانِ بَعْدَما جَزَمَ أَنَّ المجْتَهِدِينَ جميعَهم، كمالكٍ[١] والشَّافعِي وغيرِهما، يَقُولُونَ برؤْيَتِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم في اليَقَظَةِ ، فَيَسأَلُونَه عمَّا يحتَاجُونَ للسُّؤَالِ عنْه ما نَصُّه :"وقَدِ اشْتَهَرَ عنْ كثِيرٍ منَ الأَولياءِ الذِينَ هُم دُونَ الأَئمَّةِ الأَربَعَةِ المجْتَهِدِينَ في المقَامِ بِأَنَّهم يَجتَمِعُونَ بِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم، ويُصَدِّقُهم أَهلُ عَصْرِهِم، وذَكَرَ بعضاً ممنْ رَآه منْ كُمَّلِ الأَولياءِ والعَارفينَ؛ كسَيدِي العَارفِ بالله تعالى الشَّيخِ أَبي مَدينَ المغْرِبي، وسَيدِي العَارفِ بالله تعالى الشَّيخِ إِبرَاهيمَ الدَّسُوقِي، وسَيدِي العَارفِ بالله تعالى الشَّيخِ عبدِ الرَّحيمِ بن أحمد الحسيني القَنَاوِي[٢]، وسَيدِي الشَّيخِ أَبِي السُّعُودِ بنِ أَبي العَشَائرِ[٣]، إِلى أَنْ قالَ وجَماعَاتٌ ذَكرْنَاهُم في طَبَقاتِ الأَولياءِ.

---

(١) هو الامام الحافظ أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن ابي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري المدني ، فقيه الأمة وشيخ الاسلام إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية، ولد في المدينة (٩٣)هـ ، كان صلبا في دينه، بعيدا عن الأمراء والملوك ، وجه إليه الرشيد ليأتيه فيحدثه فقال له: العلم يؤتى، فقصد الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقال مالك: يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله إجلال العلم، فجلس بين يديه، فحدثه. وسأله المنصور أن يضع كتابا للناس يحملهم على العمل به ، فصنف "الموطأ". وله رسالة في "الوعظ " وكتاب في "المسائل" ورسالة في "الرد على القدرية"، و"تفسير غريب القرآن" وأخباره كثيرة. ولجلال الدين السيوطي " تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك" حدث عنه أُممٌ لا يحصو ، قال عبد الرزاق في حديث: « يوشك الناس ان يضربوا اكباد الابل في طلب العلم فلا يجدون عالما اعلم من عالم المدينة »: كنا نرى انه مالك، وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم. توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (١٧٩) هـ ، [تذكرة الحفاظ (١/ ٢٢٤) ، الأعلام (٥/ ٢٥٧)] .

(٢) هو الأمام العلامة أبو محمد عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن أحمد ، الحسيني ، شيخ الإسلام ، ولد في سنة (٤٧٥) هـ ، وكان ذا كرامات ، قانتاً أوّاباً ، وصل من المغرب ، فأقام بمكة سبع سنين ، ثم قدم قنا، وأقام بها إلى حين وفاته ،توفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٥٩٢) هـ ، [طبقات الأولياء (ص: ٧٢)] .

(٣) هو العلامة أبو السعود بن أبي العشائر بن شعبان بن الطيب بن إبراهيم الهاشمي العقيلي القرشي، ولد بباذبين سنة(٥٧٧)هـ، توفي بالقاهرة سنة (٦٤٤)هـ، ودفن بسفح المقطم.[طبقات الأولياء (ص:٦٧)] .

واْعلَمْ أَنَّه ليسَ المرَادُ كما أَوضَحَه غيرُ واحدٍ خُرُوجَه صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم من قبرِه برُوحِه وجَسَدِه إلى مكَانِ الرَّائي، وإنما المرَادُ أَنَّ الحجُبَ تزُولُ خَرْقاً للعَادَةِ، بأَنْ تُجعَلَ تلكَ الحجُبُ كالزُّجَاجِ الذِي يُجلى ما ورَاءَه فيرَاه أَولِيَاءُ الله تعالى بعينِ سِرِّهم ، معَ كونِه في قبرِه ، وهذا أَحسَنُ ما يُوجَدُ به إِنْ كانت هُناكَ رُؤيَةٌ لاثْنينِ فأكثرَ في آنٍ واحدٍ معَ تبَاعُدِهما، أَو أنَّ رُوحَه الشَّريفَةَ تَتَشَكَّلُ بصُورَتِه الكَرِيمة وتجُولُ في عَالَمِ المُلْكِ والملَكُوتِ وتحضُرُ عندَ الموعُودِ بِرُؤيَتِهَا فيرَاهَا عَيَاناً كَما يَراهَا أَحيَاناً بعينِ البصِيرَةِ، ويكُونُ نُورُها وشُعَاعُهَا عندَ جَوَلَانِها مُتَّصِلاً بجَسِدِه الشَّرِيفِ المطَهَّرِ في قبرِه ، أَلا تَرَى أَنَّ نُورَ الشَّمسِ مثَلاً مُشْرِقٌ في الأَرضِ معَ بُعدِ المسَافَةِ ، فَنُورُ رُوحِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم أَولَى منْ نورِ الشَّمسِ وغيرِهَا ، لأَنَّه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم أَصْلُ كُلِّ نُورٍ .

وفي كَلامِ بَعضِ أَهلِ التَّحْقِيقِ نَفَع الله تعالى بهِم[1] أَنَّ حَاصِلَ الوُجُوهِ التِي يمكنُ بِها ظُهُورُ الوَلِيِّ في أَماكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ ، ثَلاثَةُ أَوجُهٍ :

الأَوَّلُ: تَعَدُّدُ الصُّورَةِ بالتَّمَثُّلِ والتَشَكُّلِ ، كَما يَقَعُ للجَانِ ، وكَما يَقَعُ لِلمَلائكَةِ عَليهِمُ الصلاة والسَّلامُ.

الثَّاني: عَدَمُ التَّعدُّدِ ؛ لَكنْ بِتَقرِيبِ المسَافَةِ بالطَّيِّ لها وزَوي الأَرضِ ، وقَد يَكُونُ الموضِعَانِ في ذلكَ كمَوضِعٍ وَاحِدٍ ، بِرَفْعِ مَا يَحْجُبُ بَينَهما ، فَيرَاه الرَّاؤُونَ في كُلِّ مُوضِعٍ ، منْ غَيرِ انتِقَالٍ ، فَيحْسَبُونَه في أَحَدِهما .

الثَّالثُ: تَعظِيمُ جُثَّةِ الوَلِي بحَيثُ يَملأُ الكُونَ فَيُشَاهَدُ في كُلِّ مكَانٍ ويُحجَبُ مَا زَادَ على صُورَتِه المعْتَادَةِ عنِ الرَّأْيِ وبِدَمجِه بَعضَه في بعضِه، ويُمكِنُ مجيءُ الوُجُوهِ الثَّلاثَةِ في عَزرَائيلَ عليه السَّلامُ في قَبضِ الأَروَاحِ، والملكِينِ مُنكَرٍ ونكِيرٍ عليهما السَّلامُ ، في القَبرِ

---

(١) هو الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي رحمَهُ اللهُ تعالى.

للسُّؤالِ، وغيرِ ذَلكَ، قالَ : والوَجْهُ الأَوَّلُ مَبنيٌّ على عَالمِ المثَالِ الذَّي اعتَمَدَه الصُّوفِيَّةُ نفعنَا الله تعالى بهِم وجَعَلُوه مُتَوسِطاً بينَ عالَمَي الأَجسَادِ والأَروَاحِ وهوَ أَحسَنهَا.

قَالَ القُونوي[1] نفَع الله به:"وبه تَنْدَفِعُ إِشْكَالَاتٌ كثِيرَةٌ، وهوَ أَيْ عَالمُ المثَالِ شَبيهٌ بما يَرَاهُ النَّائمُ في الرُّؤْيا الصَّحِيحَةِ، إلا أَنهُ حَقِيقٌ في ذَاتِه بخِلَافِها، قالَ: وإِيضَاحُ الوَجهِ الأَوَّلِ أَنْ تُخلَقَ صُورَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ تَنْبَسِطُ رُوحُه عَليها فَتَتَصَرَّفُ كَلُّ صُورَةٍ منهَا لأَنه هُوَ كَما يَقعُ للمَلائكَةِ ويُسْتَأْنَسُ لَه بقَولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم:١٧]، ويُسْتَأْنَسُ بِمَجِيءِ جِبرِيلَ عليهِ السَّلامُ إِلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم في صُورَةِ دِحْيَةَ الكَلبِيِّ[2] رَضِيَ اللهُ عنه وغَيرِ ذَلكَ، وقَد جَوَّزَ بعضُهم كَونَه منَ الثَّالثِ والأَوَّلُ أَحسَنُ، وإِيضَاحُ الوَجه الثَّاني نَقْلُ عَرشِ بلقِيسَ منْ سَبأ لسُليمانَ عليه الصَّلاةُ السَّلامُ وهوَ أَحسَنُ ما يُحملُ عليه رَفْعُ بيتِ المقْدِسِ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم صَبيحَةَ لَيلَةِ الإِسْراءِ والمعْراجِ حتَّى رَآه دُون دَارِ عَقِيلٍ رَضِيَ اللهُ عنه[3] بِمَكَّةَ المشَرَّفَةِ، وَوَصَفَه لقُريشٍ وهوَ

---

(١) هو العلامة أبو الحسن علاء الدين علي بن إسماعيل بن يوسف ، القونوي ، فقيه الشافعية ، ولد بقونية سنة (٦٦٨) هـ ، نزل بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة ، فتصوف، وتلقى علوم الأدب والفقه ، ثم ولي قضاء الشام سنة(٧٢٧)هـ فأقام بدمشق إلى أن توفي، له "شرح الحاوي الصغير" في الفقه، و"الابتهاج" و"التصرف في التصوف" و"الطعن في مقالة اللعن" توفي رحمَهُ اللهُ سنة (٧٢٩)هـ ، [الأعلام (٤/ ٢٦٤)] .

(٢) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي صحابي جليل، بعثه رسول الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام، وكان رجلا جميلا يضرب به المثل في الحسن وكان جبريل عليه السلام يأتي في صورته، أسلم قبل بدر وشهد المشاهد، توفي رضيَ اللهُ عنه سنة(٤٥)هـ، [الوافي بالوفيات(١٠/ ٤٤)].

(٣) سيدنا أبو يزيد عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها، كان فصيح اللسان شديد الجواب، برز اسمه في الجاهلية، وكان في قريش من الذين يتحاكم الناس إليهم في المنافرات، وبقي على الشرك إلى أن كانت وقعة بدر، فأخرجته قريش للقتال كرها، فشهدها وأسره المسلمون ففداه عمه العباس فرجع إلى مكة، ثم أسلم بعد الحديبية، وهاجر إلى المدينة سنة(٨)هـ وشهد موتة ولم يسمع له بخبر في فتح مكة ولا الطائف وثبت يوم حنين عمي، في أواخر أيامه، كان الناس يأخذون عنه الأنساب والأخبار، توفي رضيَ اللهُ تعالى عنه سنة (٦٠)هـ، [الأعلام (٤/ ٢٤٢)].

ينْظُرُه، ويَصْلُحُ لكلٍ منهُما تَمْثِيلُ الجنَّةِ والنَّارِ لَه في عَرضِ حَائطِ المسْجِدِ حتَّى هـمَّ بأَخـذِ عُنقُودٍ منَ الجنَّةِ، معَ أَنَّ عَرضهَا كَعَرضِ السَّماءِ والأَرضِ. (١) اهـ.

وذُكِرَ في تاريخ ابـنِ خَلّكَـانِ في تَرجَمـةِ الإِمـامِ أَبي يُوسفَ بـنِ أَيـوبَ الهمَـدَاني(٢)، الزَّاهِدِ صَاحِبِ المقَامَاتِ والكَرامَاتِ والأَحوَالِ الظَّـاهِرَاتَ، أَنَّـه جَلسَ يَومـاً فـاجتَمعَ عليه خَلقٌ كَثِيرٌ، فقَامَ من بينِهم فقِيهٌ يُعرَفُ بابنِ السَّقَّاءِ وآذَاه وسَـأَله عـنْ مَسْـأَلةٍ، فقَـالَ له الإِمامُ يُوسُفُ: اجلسْ فإِني أَجدُ مـنْ كلامِـكَ هـذا رَائحَـةَ الكُفْـرِ، ولَعَلَّـكَ أَن تَمـوتَ عَلى غَيرِ دِينِ الإِسْلَامِ، فما كَانَ إِلَّا يَومـاً حتَّـى قَـدِمَ عـلى الـبِلَادِ رَسُـولُ مَلـكِ الـرُّومِ إِلى الخلَيفَةِ فَخَرجَ ابنُ السَّقَّاءِ معه إِلى القُسْطَنْطِينِيَّةِ فتَنَصَّرَ هُناكَ ومَاتَ نـصْرَانيَّاً، وكانَ ابـنُ السَّقَّاءِ قَارِئاً محمُوداً في تِلَاوَتِه، وحَكَى منْ رَآهُ في القُسْطَنطِينيَّةِ قال: رَأيتُه مَرِيضـاً مَلْقِيَّـاً على دِكَّةٍ وبِيَدِه مَذَبَّةٌ يَذُبُّ بها الذُّبابَ عن وَجهِهِ، فقُلتُ لَه: هَل القُرْآنُ بَـاقٍ عَـلى قَلبـكِ

---

(١) ذكر هذا الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه " الحاوي في الفتاوي " [١/ ٣١٨] ، في رسالة سماها " المنجلي في تطور الولي " ، وهي رسالة قيمة كتبها جواباً على سؤال وجه إليه ، في رجل حلف بالطلاق أن ولي الله الشيخ عبد القادر بات عنده ليلة كذا ، فحلف آخر بالطلاق أنه بات عنده في تلك الليلة بعينها ، فهل يقع الطلاق على أحدهما أم لا؟ ، قال : فأرسلت قاصدي إلى الشيخ عبدالقادر، فسأله عن ذلك ، فقال: ولو قال أربعة أني بت عندهم لصدقوا ، فأفتى بأنه لا يحنث واحد منهما ، ثم قرر ذلك من حيث الفقه ، ونقل في المسألة نقولا مفيدة عن العلماء، كما استشهد لها من الكتاب والسنة ، فلتراجع للفائدة .

(٢) الإمام العارف بالله تعالى، أبو يعقوب يوسف بن أيوب ابن يوسف بن حسين بن زهرة، الهمذاني ، الصوفي العالم الفقيه القدوة، العارف التقي، شيخ الاسلام، وشيخ مرو، ولد في حدود سنة (٤٤٠) هـ ، قدم إلى بغداد شابا، وسمع عن عدد من علمائها، اعتنى بالحديث وأكثر الترحال، وقصد الشيخ أبا إسحاق فتفقه عليه ولازمه مدة حتى برع وفاق أقرانه خصوصا في علم النظر، وقد كان أبو إسحاق يقدمه مع صغر سنه، ثم ترك كل ما كان فيه من المناظرة، واشتغل بالعبادة ودعوة الخلق وإرشاد الاصحاب، كتب الكثير من الكتب ولم يتفرغ لإخراجها لأنه كان مشغولا بالعبادة، انتهت إليه تربية المريدين الصادقين، واجتمع في رباطه جماعة كبيرة من المريدين، وكان طوال عمره على طريقة مرضية، وسداد واستقامة، وعظ الناس وظهر له القبول التام، وتوفي رحمَهُ اللهُ تعالى سنة (٥٣٥) هـ ، [أعلام النبلاء (٢٠/ ٦٦)] .

كَما كُنتَ حَافِظاً، فقَالَ: ما أَذكرُ منه إلا آيةً واحِدَةً وهِيَ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[الحجر:٢]، (١). اهـ ، نَعُوذُ بالله مِنْ سَخَطِه وخُذَلَانِه ونَسْأَلُه حُسْنَ الختَامِ والموتَ على دينِ الإسلامِ.

فانظُرْ يا أَخِي كيفَ هَلكَ هَذا الرَّجُلُ وخُذِلَ بِسَبَبِ الانتِقَادِ وتَرْكِ الاعْتِقَادِ ، نسأَلُ الله تعالى السَّلامَةَ والعَافِيةَ، فعَليكَ يا أَخِي بالاعْتِقَادِ بأَولِيَاءِ الله تعالى، وبِالمشَايخِ الأَعلامِ العَارِفينَ بالله عزَّ وجَلَّ حَقَّ المعْرِفَةِ، ولَا تُزَكِّ عَليهِم نَفْسَكَ فَتَضِلَّ ، واقتَدِ بِهِم وحِذَارِي منْ المرُوقِ عنْ عِلْمِهِم فإِنَّ حِرَابَهُم مَسْمُومَةٌ ، تَقْتُلُ منْ تَعَرَّضَ لَهم ويَسْلَمُ منْهَا من سَلَّمَ لَهم ، فلا تَنْتَقِدْ تَنْدَمْ. واقْتَدِ بإِمَامِ المحَقِّقِينَ العَارِفينَ ورَأْسِ الصِّدِيقينَ وعَلَّامةِ العُلماءِ العَامِلينَ في وقْتِه؛ الشَّيخِ مُحيِ الدِّينِ عبدِ القَادِرِ الجيلَاني أَوِ الكَيلَانِي رحمهُ اللهُ تعالى ونَفَعنَا بِعُلومِه لما عَزَمَ عَلى زَيارَةِ القُطْبِ الغَوثِ بمَكَّةَ المكَرَّمَةِ ، وقَالَ رفِيقَاهُ وكانَ لَه رَفيقَان مَا قَالَا، فقَالَ لَهم: أَمَّا أَنا فَذَاهِبٌ على قَدَمِ الزِّيارَةِ والتَّبرُّكِ لا عَلى قَدَمِ الإِنكَارِ والامتِحَانِ، فآلَ أَمرُه إلى أَنْ قَالَ قَدِمي هذه عَلى رَقَبةِ كُلِّ وليٍّ لله وآلَ أَمرُ أَحدِ رَفيقَيهِ للكُفرِ وتَرْكِ الإِيمانِ، نَسْأَلُ الله تعالى السَّلامَةَ ، وذَلكَ بِسَبَبِ تَركِ الاعْتِقَادِ كما اتَّفَقَتْ في هذِا الحكَايَاتُ، وآلَ أَمرُ الآخَرِ إلى اشْتِغَالِه بالدُّنيا، وتَركِه خِدْمَة الله جَلَّ وعَلا لِقَلَّةِ تَوفِيقِه، نَسْأَلُ الله تعَالى التَّوفِيقَ والهدَايةَ والإِمَاتَةَ على الإِيمانِ بالله

---

(١) انظر كتاب "وفيات الأعيان وأنباء الزمان (٨/ ٣٤٩)" لابن خلكان، وقد ذكر هذه القصة عدد كثير من المؤرخين ، منهم ابن الأثير في كتابه "الكامل في التاريخ (٤/ ٤٣١)"، وابن الجوزي في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٩/ ١٧١)"، والذهبي في "سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٦٧)"، وابن السقاء هذا اسمه الحسن، وهو من موالي بني سليم، قالوا : أنه كان حزَّاراً ، وأنه لم يكن في الأرض أحزر منه ، وأنه كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطئ وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء ، كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا ويأخذ العود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطئ .

تعالى ورَسُولِه صَلَّى اللهُ عَليه وآلِه وسَلَّم، والاعْتِقَادَ الحسَنَ في أَولِيَائِهِ وأَصْفِيَائِهِ، بِمُحَمَّدٍ وآلِه". انتهى نقلاً من كِتَابِ حَيَاةِ الحيَوَانِ الكُبرَى(١).

---

(١) حياة الحيوان الكبرى [١/ ٣٥٨] للإمام الدميري . وقد ذكر الحكاية كاملة العلامة ابن حجر رحمَهُ اللهُ في [الفتاوى الحديثية (١/ ٧٤١)]، عن عبد الله بن أبي عصرون قال: دخلت بغداد في طلب العلم فوافقت ابن السقا ورافقته في طلب العلم، وكان ببغداد رجل يقال له الغوث يظهر إذا شاء ويختفي إذا شاء، فقصدنا زيارته أنا وابن السقا والشيخ عبد القادر الجيلاني وهو يومئذ شاب، فقال ابن السقا: لأسألنه مسألة لا يدري لها جوابا، وقلت: لأسألنه مسألة وأنظر ما يقول فيها. وقال الشيخ عبدالقادر: معاذ الله أن أسأله شيئا أنا بين يديه أنتظر بركة رؤيته، فدخلنا عليه، فنظر إلى ابن السقا مغضبا، وقال: ويحك يا ابن السقا تسألني مسألة لا أدري بجوابها؟، هي كذا وجوابها كذا، إني لأرى نار الكفر تلتهب فيك، ثم نظر إلي وقال: يا عبد الله أتسألني عن مسألة لتنظر ما أقول؟ هي كذا وجوابها كذا ، لتخرَّنَّ الدنيا عليك إلى شحمة أذنيك بإساءة أدبك، ثم نظر إلى الشيخ عبد القادر وأدناه منه وقالَ: يا عبد القادر لقد أرضيت الله ورسوله بحسن أدبك كأني أراك في بغداد وقد صَعَدت الكرسي متكلما على الملأ وقلت: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، وكأني أرى الأولياء في وقتك وقد حنوا رقابهم إجلالا لك ثم غاب عنا فلم نره. فأما الشيخ عبدالقادر فظهرت أمارات قربه وأجمع عليه الخاص والعام، وقال مقالته، وأقرَّت الأولياء في وقته له بذلك. وأما ابن السقا فإنه اشتغل بالعلوم حتى برع فيها وفاق كثيرا من أهل زمانه، واشتهر بقطع من يناظره في جميع العلوم وكان ذا لسان فصيح فأدناه الخليفة منه وبعثه رسولا إلى ملك الروم، فرآه ذا فنون وفصاحة فأعجب به وجمع له القسيسين فناظرهم وأفحمهم فعَظُم عند الملك، فتراءت له بنت الملك فأعجبته وفتن بها فسأله أن يزوجها له فقال: إلا أن تتنصر، فتنصر وتزوجها، ثم مرض فألقوه بالسوق يسأل القوت فلا يجاب وعَلَتْهُ كآبةٌ وسواد حتى مرَّ عليه من كان يعرفه فقال له: ما هذا؟ قال: فتنة حلت بي سببها ما ترى. قال له: هل تحفظ شيئا من القرآن؟ قال: لا، إلا قوله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾[الحجر:٢] قال: ثم خرجت عليه يوما فرأيته وكأنه قد أُحرق وهو في النزع فقلبته إلى القبلة فاستدار إلى الشرق إلى أن خرجت روحه، وكان يذكر كلام الغوث ويعلم أنه أصيب بسببه. قال ابن أبي عصرون: وأما أنا فجئت إلى دمشق فأحضرني السلطان وأكرهني على ولاية الأوقاف فتوليتها، وأقبلت عليّ الدنيا فصدق قول الغوث فينا كلنا، قال ابن حجر رحمَهُ اللهُ: وفي هذه الحكاية التي كادت أن تتواتر في المعنى لكثرة ناقليها وعدالتهم فيها أبلغ زجر وآكد ردع عن الإنكار على أولياء الله تعالى خوفا من أن يقع المنكر فيما وقع فيه ابن السقا من تلك الفتنة المهلكة الأبدية التي لا أقبح منها ولا أعظم منها، نعوذ بالله من ذلك، وقد أوردتها كاملة لتتم الفائدة، وتحصل العظة والعبرة.

فعَليكَ يا أَخِي أَنْ تَقُولَ كُلَّ يومٍ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ: اللَّهُمَّ إِني أَعُوذُ بِكَ منَ السَّلْبِ بعْدَ العَطَاءِ، وكُفْرَانِ النِّعَمِ وحِرْمَانِ الرِّضَاءِ، وأَعُوذُ بِكَ منْ سُوءِ المنْقَلَبِ. اللَّهُمَّ آمينَ.

❁ ❁ ❁

خَاتِمَة فِيمَا قِيل فِي التَّصَوّفِ مِنَ الشّعر

مِمَّا قِيلَ فِي التَّصَوفِ شِعْرَاً ؛ قَالَ وَاحِدٌ منْ أَهْلِ العِلْمِ : [من البسيط]

لَيسَ التَّصَوُّفُ لُبْسَ الصُّوفِ تَرْقَعُه ... ولا بُكَاؤُكَ إِنْ غَنَّى المغَنُّونَا

ولا اضْطِرَابٌ ولا رَقْصٌ ولا طَرَبٌ ... ولا اجْتِذَابٌ كأَنْ قَد صِرْتَ مَجْنُونَا

بَلِ التَّصَوفُ أَنْ تَصْفُواْ بِلَا كَدَرٍ ... وتَتْبَعَ الحقَّ والقُرْآنَ والدِّينَا

وأَنْ تُرَى خَاشِعَاً لله مُكْتَئِباً ... عَلى ذُنُوبِكَ طُولَ العُمْرِ مَحْزُونَا[1]

وقال آخر: [من الوافر]

لَبِسْتَ مُرَقَّعَاً وغَدَوتَ قُلْتَا ... أَنَا الصُّوفِيُّ ، لَسْتَ كَما زَعَمْتَا[2]

وَقُلتُ: [من الخفيف]

لَيسَ فِينَا بَنِي التَّصَوُّفِ ممَّا ... يَعْتَقِدْهُ الجهُولُ أَو يَزْدَرِيهِ

نَحْنُ نَمْشِي عَلى المحَجَّةِ بَيضَا ... لَيلُهَا كَالنَّهَارِ لا لَبْسَ فِيهِ

حُبُّنَا الله والرَّسُولَ أَثِيلٌ ... نَنْهَجُ الخَيرَ ثُمَّ نَدْعُو إِلَيهِ

عَامِلِينَ بِما أُمِرْنَا ونُنْهَى ... بِمَنَاهِي الكِتَابِ لا تَمْوِيهِ

ثُمَّ مِنَّا النُّهَاتُ رُوَّادُ تَقْوَى ... فَذُنَا صَالِحٌ وَبَرٌّ فَقِيهِ

نَرْفِضُ الادِّعَاءَ نُنْكِرُهُ ذَاتَاً ... لَا نُحِبُّ الظُّهُورَ أَو نَرْتَجِيهِ

---

(١) الأبيات لأبي عبدالله محمد بن الحسن الطوبي، كما في [خريدة القصر (٤/ ٦٥٧)] لابن الكاتب.

(٢) هذا البيت لم أعثر على قائلة .

لَازِمِينَ البُيُوتَ نَعْمَلْ بَقَدْرٍ ... نَرْتَضِي بالكَفَافِ مِنْ صَافِيهِ
وأَخَذْنَا العُلُومَ عَنْ كُلِّ شَيخٍ ... بَارِعٍ عَارِفٍ عَفِيفٍ نَزِيهِ
وأَخَذْنَا العُلُومَ مِنْ كُلِّ فَنٍّ ... عِلْمُنَا خَالِصٌ لَا دَجْلَ فِيهِ
طَالِبِينَ العُلُومَ لَا القَصْدَ دُنيَا ... عِلْمُنَا لِلإِلَهِ نَهدِي إِلِيهِ
لَم نَبِعْ دِينَنَا وَلَا نَتَقَاضَى ... عُمْلَةً مِنْ دَجُول غِرٍ سَفِيهِ
والفَضِيحَةُ الصِّرَاطُ يَا مَنْ ظَنَنْتُم ... مَنْ يَفُزْ فِي هُنَاكَ فَهُوَ النَّبِيهِ(١)

---

(١) وقد قيلت في التصوف وبيان منهجه الحقيقي أشعار كثيرة وحكم شهيرة ، وذلك لأنَّ أناساً انتسبوا إلى التصوف وفي الحقيقة أن التصوف منهم ومن سلوكهم بريء ، فانبرى أئمة التصوف يبينون هذا الأمر بحالهم وقولهم، ويوضحون الفرق بين الصوفي المتحقق وبين الصوفي المدعي والصوفي المتكلف، وسأذكر بعض الأبيات تتميما لما ذكره الشيخ نفعنا الله تعالى به .

قال الإمام أبو الهدى الصيادي، والأبيات في ديوانه(ص: ٢٥٥) : [مجزوء الكامل]

ليس التصوف بالخرقْ ... أو بالتَّوهم والعِلَقْ
أو بالتَّعالي والجفا ... من قال هذا ما صدقْ
إن التصوفَ يا فتى ... سرٌ على القلب اتَّسقْ
ويَنشَأُ من مكنُونِه ... حُرَقٌ يُزِعجُها قَلَقْ

وقال الإمام العارف بالله تعالى أبو بكر العيدروس ، والأبيات في ديوانه (ص: ١٥٣) : [من الحميني]

ليس التصوف لبس الأصوافْ ... ولا التَّواجد والزعاق الشنيعْ
ما صوفي إلا زين الأوصاف ... وقالبه والقلب دائم مطيعْ
فذاك محفوفٌ بالألطاف ... وفتحه فيما يريده سريعْ

وقال الحسين بن منصور الحلاج ، والأبيات في ديوانه (ص: ١٠٤) : [من الكامل]

لا تَسأَمَنَّ مَقالَتي يا صاحِ ... وَاقبَل نَصيحَةَ ناصِحٍ نَصّاحِ
لَيسَ التَصَوُّفُ حيلَةً وَتَكَلُّفاً ... وَتَقَشُّفاً وَتَواجُداً بِصِياحِ
لَيسَ التَصَوُّفُ كِذبَةً وَتفوُهاً ... وَجَهالَةً وَدُعابَةً بِمِزاحِ
بَل عِفَّةٌ وَمُروءَةٌ وَفتوَّةٌ ... وَقَناعَةٌ وَطَهارَةٌ بِصَلاحِ
وَتُقىً وَعِلمٌ وَاقتِداءٌ وَصَفا ... وَرِضىً وَصِدقٌ وَوَفاً بِسَماحِ=

هَذا وقد تَمَّ بِحمْدِ الله تعَالى وحُسْنِ تَوفِيقِه إِتْمَامُ ما أَردنَا بيَانَه ورَسْمَه ، ونَسْأَلُ الله تَعَالى أَنْ يَمُنَّ علينا بالقَبُولِ وحُسْنِ الخاتِمَة ، وأَنْ يجْعَلَ هذَا الكِتَابَ خَالِصَاً لِوَجْهِه الكَرِيم ، وَأَنْ يَنْفَعَ به النَّفْعَ العمِيمَ ، وصَلَّى اللهُ تعالى وسَلَّم وبارَكَ على سَيدنَا ومولانَا مُحمدٍ ، وعلى آلهِ وصَحْبِه أَجمعِينَ ، ومن تبعهم بإِحسان إلى يَومِ الدِّين آمين.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

=مَـــن قـــام فيـــهِ بِحَقِّـــهِ وَحُقوقِـــهِ ... وَخَـــلا عَـــنِ الحَـــدَثانِ وَالأَشـــباحِ

مُتَيَقِّنـــاً مُتَصَـــبِّراً مُتَشَـــمِّراً ... مُســـتَمطِراً مُتَقَصِّـــدَ السُـــيّاحِ

مُتَعَـــزِّزاً مُتَحَـــرِّزاً مُتَواضِـــعاً ... مُتَبَـــدِّلَ الأَشـــباحِ وَالأَرواحِ

تَتَشَعشَـــعُ الأَنـــوار مِـــن أَسرارِهِ ... كَتَشَعشُـــعِ المِشـــكاةِ في المِصـــباحِ

تـــاءُ التُقـــى صـــادُ الصَـــفا وَاوُ الوَفـــا ... فـــاءُ الفُتُـــوَّةِ فَـــاِغتَنِم يـــا صـــاحِ

وقال طاهر بن حسن المخزومي : [من الكامل]

لـــيس التصـــوف أن يلاقيـــك الفتـــى ... وعليـــه مـــن نســـج المســـوح مرقـــع

بطرائـــق بـــيض وسُـــود لفّقـــت ... فكأنّـــه فيهـــا غُـــرَابٌ أبقـــع

إن التصـــوف ملـــبس متعـــارف ... يخشـــى الفتـــى فيـــه الإلـــه ويخشـــع

أَهَمّ مَصَادِرِ وَمَرَاجِعِ التَّحْقِيْق

١- " **إحياء علوم الدين** "، المؤلف: حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المنهاج-جدة-السعودية، الطبعة الأولى، سنة النشر:١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

٢- " **أدب الدنيا والدين** "، المؤلف: الإمام العلامة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر:١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٣- "**الأدب المفرد**" ، المؤلف: الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية بيروت، الطبعة الثالثة، السنة:١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٤- " **الأذكار النووية** "، المؤلف: الإمام الحافظ أبو زكريا محيى الدين يحيى بن شرف بن مري النووي الدمشقي، الناشر: دار الفكر- بيروت-لبنان، سنة الطبع: ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٥- " **البحر الزخار(مسند البزار)**"، المؤلف: الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق: حققه عدة اشخاص، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٦- " **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**"، المؤلف: الإمام العلامة أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢ م.

٧- " **البداية والنهاية** "، المؤلف: الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: الدكتور علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ستة النشر: ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

٨- " **الجامع الصحيح** "، المؤلف: الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، سنة النشر: ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

٩- "**الجامع الصحيح**"، المؤلف: الإمام الحافظ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت- لبنان.

١٠- " **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير** "، المؤلف: الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الفكر - بيروت-لبنان.

١١- " **الجامع لأحكام القرآن** "، المؤلف: الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، الناشر: دار عالم الكتب- الرياض- المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، سنة: ١٤٢٣ هـ-٢٠٠٣ م.

١٢- " **السنن الكبرى** "، المؤلف: الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية- حيدر آباد-الهند، الطبعة الأولى، سنة: ١٣٤٤ هـ.

١٣- " **السنن الكبرى** "، المؤلف: الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري+ سيد كسراوي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر:١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٤- "**المستدرك على الصحيحين**"، المؤلف: الحافظ أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة النشر:١٤١١هـ -١٩٩٠م.

١٥- " **المستطرف في كل فن مستظرف** "، المؤلف: شهاب الدين محمد بن أحمد الأبهيشي، تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: ١٩٨٦م.

١٦- " **المصنف في الأحاديث والآثار** "، المؤلف: الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد-الرياض الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ.

١٧- " **المعجم الوسيط** "، المؤلف: (إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر- محمد النجار) ، تحقيق : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، الناشر: دار الدعوة.

١٨- " **المقاصد الحسنة في الأحاديث المشتهرة على الألسنة** "، المؤلف: الحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السَّخاوي، الناشر: دار الكتاب العربي-بيروت-لبنان.

١٩- " **الوافي بالوفيات** "، المؤلف: الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفديّ.

٢٠- " **تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** "، المؤلف: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق : الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، الناشر : دار الكتاب العربي

-بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٢١- **"تفسير الكشف والبيان"**، المؤلف : الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقق: الإمام أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر:١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٢٢- **" حياة الحيوان الكبرى "**، المؤلف: الإمام العلامة كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، الناشر: دار الفكر-بيروت لبنان.

٢٣- **" سنن ابن ماجه "**، المؤلف: الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر - بيروت-لبنان.

٢٤- **" سنن أبي داود "**، المؤلف: الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني، تحقيق: سعيد محمد اللحام، الناشر: دار الفكر-بيروت-لبنان.

٢٥- **" سنن الترمذي "**، المؤلف: الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومعه آخرون، الناشر: دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان.

٢٦- **" سنن الدارمي "**، المؤلف: الإمام الحافظ أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، الناشر: دارالكتاب العربي-بيروت، الطبعة الأولى، السنة: ١٤٠٧هـ.

٢٧- **"سير أعلام النبلاء"**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي(ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ، سنة النشر: ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٢٨- **" شذرات الذهب في أخبار من ذهب"**، المؤلف: العلامة أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد المعروف بـ ابن العماد الحنبلي، الناشر: دار المسيرة-بيروت-لبنان، سنة النشر:١٣٩٩هـ.

٢٩- **" شرح صحيح مسلم "**، المؤلف: الإمام الحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت-لبنان- سنة الطبع:١٤٠٧ هـ-١٩٨٧ م.

٣٠- **"شرح السنة"** ، المؤلف : الإمام الحافظ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، تحقيق : شعيب الأرناؤوط + محمد زهير الشاويش ، الناشر : المكتب الإسلامي- دمشق - سوريا، الطبعة الثانية، سنة النشر: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣١- " **شعب الإيمان** "، المؤلف: الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: محمد سعيد زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ.

٣٢- " **صحيح ابن حبان** "، المؤلف: الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ، سنة النشر: ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣م.

٣٣- " **صفة الصفوة** "، المؤلف : الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد المعروف بـ ابن الجوزي ، تحقيق : محمود فاخوري + د. محمد رواس قلعه جي، الناشر : دار المعرفة - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ، سنة النشر: ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٣٤- " **فتح الباري شرح صحيح البخاري** "، المؤلف: الحافظ أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة-بيروت-لبنان، سنة الطبع: ١٣٧٩هـ.

٣٥- " **فيض القدير شرح الجامع الصغير** "، المؤلف: الحافظ زين الدين محمد بن عبد الرؤوف المناوي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى-القاهرة، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٣٥٦هـ.

٣٦- " **كتاب الموطأ** "، المؤلف: الإمام أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحي، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان، الطبعة الاولى: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٣٧- " **كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس** "، المؤلف: الإمام إسماعيل بن محمد العجلوني، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت-لبنان.

٣٨- "**لباب التأويل في معاني التنزيل**"، المؤلف : العلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، الناشر: دار الفكر-بيروت-لبنان، سنة النشر:١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٣٩- " **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** "، المؤلف: الإمام الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: دار الفكر- بيروت-لبنان، سنة الطبع: ١٤١٢هـ.

٤٠- "**مسند أبي داود الطيالسي**" ، المؤلف: أبو داود سليمان بن داود الطيالسي، تحقيق: محمد عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر- مصر، الطبعة: الأولى، السنة: ١٤١٩هـ -١٩٩٩م.

٤١- "**مسند أبي يعلى الموصلي**"، المؤلف: أبو يعلى أحمد بن علي بن المُثنى الموصلي، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون - دمشق، الطبعة الأولى، السنة: ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

٤٢- " **مسند الإمام أحمد** "، المؤلف: الإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، المحقق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ.

٤٣- " **مصنف عبد الرزاق** "، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي-بيروت-لبنان، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ.

٤٤- " **معجم البلدان** "، المؤلف : العلامة الأديب أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر : دار الفكر - بيروت - لبنان.

٤٥- "**معجم الطبراني الكبير**"، المؤلف: الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة ، الطبعة الثانية.

٤٦- "**معجم الطبراني الأوسط**"، المؤلف: الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد + عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، الناشر: دار الحرمين - القاهرة.

٤٧- " **معجم الطبراني الصغير** "، المؤلف: الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي-دار عمار-بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر:١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٤٨- " **معرفة الصحابة** "، المؤلف: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن-الرياض، الطبعة الأولى، سنة النشر: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٤٩- "**مكارم الأخلاق**"، المؤلف: الحافظ أبو بكر بن عبد الله البغدادي الملقب بـ ابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، الناشر: مكتبة القرآن-القاهرة، السنة: ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٥٠- "**منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين**" ، المؤلف: حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الناشر: دار المنهاج-جده-السعودية، الطبعة الأولى سنة النشر:١٤٢٧هـ-٢٠٠م.

٥١- " **وفيات الأعيان وأنباء الزمان** "، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان، تحقق: الدكتور يوسف علي طويل + الدكتورة مريم قاسم طويل، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، سنة النشر:١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

مُحتويات الكتاب

أَبْيَاتٌ قِيلَتْ فِي كِتَابِ التَّطَوُّفِ ٥

تَقْدِيمٌ ٧

تَعضيدٌ ٩

بينَ يَدَي الكِتَابِ ١٤

التَّعْرِيفُ بالمؤَلِّفِ ١٦

مُقَدِّمَةُ المحَقِّقِ ٢٣

مَنهَجُ العمَلِ في الكتَاب ٣٨

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ ٤١

الكَلَامُ على البَسْمَلةِ ٤٦

سَبَبُ الإبتداءِ بالبسمَلةِ ٤٩

الخِلَافُ في البَسْمَلَةِ ٥٠

عَدَمِ كِتَابَةِ البَسْمَلَةِ في بَرَاءَة ٥٢

أَوَلُ نُزُولِ البَسْمَلَةِ ٥٣

حِكْمَةُ البدءِ بِالبَسْمَلَةِ ٥٥

بَرَكَاتُ البَسْمَلَةِ ٥٥

مَبَادِئُ عِلْمِ التَّصَوفِ ٥٦

شُرُوطُ التَّصَوُّفِ ٦٢

شَرْحُ شُرُوطِ التَّصَوُّفِ..... ٦٢
أَرْكَانُ التَّصَوُّفِ ٦٥
آدَابُ الصُّوفِيّ..... ٦٥
شَرْحُ آدَابِ الصُّوفِيّ ٦٥
أُصُولُ التَّصَوُّفِ ٧٣
تَحقِيقُ أُصُولِ التَّصَوُّفِ..... ٧٣
شَرْحُ الأُصُولِ وتَحقِيقَاتِهَا ٧٤
الأصل الأَوَّلُ؛ وتَحقِيقُ التَّقْوَى ٧٤
ثَمَرَاتُ التَّقْوَى وَفَوائدُهَا..... ٧٥
حَقِيقَةُ الوَرَعِ ٨٧
حَقِيقَةُ الاسْتِقَامَةِ..... ٩٣
الأصل الثَّاني ؛ وتحقيقُ السُّنَّةِ..... ٩٩
حَقِيقَةُ التَّحَفُّظِ ١٠١
حَقِيقَةُ حُسْنِ الخُلُقِ ١٠٣
الأصل الثَّالثُ ؛ وتَحقِيقُ الإِعرَاضُ عَنِ الخَلْقِ ١٠٦
حَقِيقَةُ الصَّبرِ ١٠٦
الأَخلاقُ المحْمودَةُ ١١٤
التَّوبَةُ ١١٤
الخَوفُ..... ١١٦

أَسبَابُ الخوفِ ١١٧
الزُّهدُ ١١٩
أقْسَامُ الزُّهْدِ ١١٩
دَرَجَاتُ الزُّهدِ ١٢٠
حقِيقَةُ التَّوكُّلِ ١٢٠
الأصل الرَّابعُ؛ وتَحقِيقُ الرِّضَا عنِ الله تَعَالى ١٢٦
حَقِيقَةُ القَنَاعةِ ١٢٩
حَقِيقَةُ التَّفْوِيض ١٣٩
الأصل الخامسُ؛ وتحقيقُ الرُّجوعِ إلى الله تعالى ١٤٠
حَقِيقَةُ الحمْدِ ١٤٠
النِّسَبَ بين الحمدِ والشكرِ ١٤٣
حَقِيقَةُ الشُّكْرِ ١٤٦
شُكرُ الجَوَارحِ ١٥٢
حَقِيقَةُ التَّصَوفِ ١٥٦
الكَلامُ على الذِّكْرِ ١٥٨
حُسْنُ الصُّحبَةِ ١٦١
حقوق المسْلمِ على المسْلِم ١٦٧
آدَابُ التَّصَوفِ ١٦٨
فَصْلٌ فِي الأَدَبِ مَعَ الله تَعَالَى ١٦٩

فَصْلٌ فِي الأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ ١٧٠
فَصْلٌ فِي الأَدَبِ مَعَ الوَقْتِ ١٧٠
فَصْلٌ فِي أَدَبِ المرِيدِ مَعَ شَيخِه ١٧١
الكَلامُ عَلى السَّماعِ ١٧٣
فَصْلٌ فِي آدَابِ المرِيدِ مَعَ إِخْوَانِه ١٧٣
فَصْلٌ فِي آدَابِ المرِيدِ مَعَ نَفْسِه ١٨٢
فَصْلٌ فِي آدَابِ الجلُوسِ ١٩٢
المرَاتِبُ التِي يَمُرُّ بِهَا السَّالِكُ ١٩٦
مُصْطَلَحَاتِ القَومِ ٢٠٥
مَقَامَاتُ الشَّيخِ المرَبِّي ٢١٣
الكَلامُ عَلى الفِرَاسَةِ ٢١٤
الفِرَاسَةُ الإِيمَانِيَّةُ ٢١٤
الفِرَاسَةُ الخَلْقِيةُ ٢١٥
الفِرَاسَةُ الرِّيَاضِيَّةُ ٢١٦
ثُبُوتُ كَرَامَاتِ الأَولِياءِ ٢١٩
خَاتِمَةٌ فِيمَا قِيلَ فِي التَّصَوُّفِ مِنَ الشِّعْرِ ٢٣٤
أَهَمُّ مصَادرِ ومَراجعِ التَّحقِيقِ ٢٣٧
محتَوياتُ الكتاب ٢٤٢

تم بحمد الله